

روجيه ريجيس

بونابرت في مصر

الحملة الفرنسية على مصر من خلال غراميات قائدها

بونابرت في مصر

الحملة الفرنسية على مصر

من خلال غراميات قائدها

روجيه ريجيس

ترجمة

حبيب جاماتي

الكتاب: بونابرت في مصر.. الحملة الفرنسية على مصر

الكاتب: روجيه ريجيس

ترجمة: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com   **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ريجيس ، روجيه

بونابرت في مصر.. الحملة الفرنسية على مصر / روجيه ريجيس,

ترجمة: حبيب جاماتي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٧٩ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٦١٤٣ / ٢٠٢٠

بونابرت في مصر

الحملة الفرنسية على مصر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

الكتاب الذي أقدمه هنا للقراء وضعه مؤلفه الفرنسي المؤرخ روجيه ريجيس في قالب قصصي وبعنوان: "بولين فوريس"، وهو اسم المرأة التي أحبها نابليون بونابرت في مصر خلال قيادته الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ومن خلال هذه القصة الغرامية يروي المؤلف قصة الحملة الفرنسية، فهو إذًا في كتابه عن "بولين فوريس" مؤرخ وروائي في آن واحد.

وقد نقلت هذه القصة التاريخية إلى العربية ووضعت لها عنوانًا آخر، فصدرت في طبعة أولى عن "دار الهلال" بالقاهرة. وأما هذه مطالعتها ولكى تأتي مطابقة للعنوان الذي اخترته لها، وكان بونابرت في ذلك الوقت في التاسعة والعشرين من العمر، فقد ولد سنة ١٧٦٩ وقاد حملته العسكرية لغزو الشرق في عام ١٧٩٨.

ومن أعجب الآراء التي أبداها بعض المؤرخين الفرنسيين وتفننوا في الدفاع عنها، الرأي القائل إن الحملة الفرنسية على مصر لم تكن مغامرة "استعمارية"، بل مشروعًا "علميًّا" حققه بونابرت بقوة السلاح. وهذا رأي خاطئ؛ فالحملة كانت استعمارية قبل كل شيء وإن اقترنت بالعلم، فأسفرت من هذا القبيل عن نتائج لا يستهان بها. ولو استطاع الفرنسيون

البقاء في مصر منذ ذلك الوقت، لبقوا فيها ولما رحلوا عنها، ولكن هناك شيئًا واحدًا يجب ألا يغرب عن البال، وهو أن الحملة الفرنسية لم تكن موجهة ضد مصر فقط، بل ضد بريطانيا العظمى التي أراد نابليون أن يضربها ضربة غير مباشرة، بعد أن فشل في غزو الجزر البريطانية، فقرر احتلال مصر والسيطرة منها على طريق الهند ثم الوصول إلى الهند نفسها.

على أن الحملة قد فشلت من الناحية الحربية، بالرغم من الانتصارات التي أحرزها الفرنسيون. فإنهم لم يبلغوا الأغراض التي حاربوا من أجلها؛ فجيشهم لم يصل إلى الهند ولم يتمكن من قطع الطريق بينها وبين إنجلترا ولم يحتفظ بمصر مستعمرة فرنسية ولم ينشئ الإمبراطورية التي داعبت بونابرت في أحلامه.

كان المماليك يحكمون مصر حكمًا إقطاعيًّا قائمًا على الطغيان وكانت الفوضى تشمل البلاد. فبعد هزيمة المماليك، انصرف بونابرت إلى إقامة نظام إداري حكومي لم تعرفه البلاد من قبل، فأنشأ "ديوان القاهرة" ثم "ديوان الإسكندرية" وطائفة من "المجالس الوطنية" في عواصم الأقاليم وأنفق أموالًا كثيرة في فتح الطرق والشوارع وتجميل المدن، كما وجه اهتمامًا خاصًا للأمن في جميع أنحاء البلاد، فانتقلت مصر من تلك الفوضى التي كانت تعمها إلى عهد جديد عرفت فيه بعض الطمأنينة والنظام والأمن، ولكن هذا العهد لم يدم طويلًا؛ فقد أساء الفرنسيون إلى أنفسهم بإساءتهم إلى كل من تقدم إليهم بالنصح وأفسدوا إدارتهم بما فرضوه من ضرائب ورسوم وما أظهروه من تعسف في القضاء على كل معارضي حكمهم ومن إباحية في حياتهم الاجتماعية وقسوة في مطاردة

الزعماء الوطنيين الذين لم يرضخوا لحكمهم ويسلموا باحتلال الأجنبي لبلادهم. فالفرنسيون أحسنوا "إدارة" البلاد ولكنهم أساءوا "حكمها"، فأفسدوا باليسار ما أصلحوا باليمين. ولهذا كان أول عهدهم خروجًا من فوضى وآخر عهدهم عودة إلى الفوضى.

فمن الناحية الإدارية الداخلية، يتضح أن الحملة الفرنسية نجحت نجاحًا مؤقتًا تبعه فشل ذريع وقد رحلوا غير مأسوف عليهم كما أن المماليك من قبلهم هربوا أمامهم غير مأسوف عليهم.

كان بونابرت يقول: "أنا رجل علم والظروف جعلتني "رجل حرب!". ولهذا، فإن اهتمام قائد الحملة الفرنسية بإنتاجه العلمي لم يقل عن اهتمامه بالناحية الحربية. وقد عهد بتنفيذ برنامجه إلى طائفة من العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع الحملة وأنشأ لهذا الغرض مؤسسة سماها: "المعهد" أو "المجمع العلمي المصري"– أنستيتو ديجبت– برئاسة "مونج" واضطلع هذا العهد بوساطة اللجان المتفرعة منه، بدراسة جميع المسائل العلمية بلا استثناء وكانت الأعمال التي تمت على يد ذلك الرهط الممتاز من خيرة علماء فرنسا فاتحة عهد علمي جديد وهي الينبوع الذي تدفقت منه الدراسات الخاصة بعلم الآثار المصرية أو "الإجبتولوجيا".

وعلى هذا، يكون نجاح الحملة من الناحية العلمية قد فاق نجاحها من جميع النواحي الأخرى، بل إن الأثر الوحيد الذي تبقى منها هو هذا الأثر العلمي دون سواه. ولولا الحملة الفرنسية، لظل تاريخ مصر القديمة مجهولًا مدة أخرى من الزمن.

جاء الفرنسيون إلى مصر مشبعين بروح الثورة الفرنسية ومبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي لم يكن قد طرأ عليها تشويه بعد، فعملوا في بادئ الأمر على تطبيق هذه المبادئ لأنها كانت في نظرهم معدة "للتصدير" لا متقصرة على "الاستهلاك المحلي" فقط ولكنهم لم يواظبوا على هذه الخطة إلى النهاية، فأضاعوا في غدهم ما كسبوه في الأمس.

كما أشرك الفرنسيون أهل البلاد في إدارة وطنهم، فشعر المصريون بأن في وسعهم أن يساهموا في حكم أنفسهم وعادت العزة القومية، فاجتلت مكانها في صدورهم بالرغم من وجود الأجنبي في بلادهم وساد التفاهم بينهم وبين ذلك الأجنبي مدة من الزمن، ولكنها قصيرة.

بقي أن ندون الحقائق والوقائع الآتية :

- نزل الفرنسيون ساحل الإسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨، ورحل آخر جندي منهم في ١٥ أكتوبر ١٨٠١، فقد مكثوا في مصر ثلاثة أعوام وثلاثة شهور ونصف.
- أذاع بونابرت نداء إلى المصريين يقول لهم فيه إنه ما جاء ليحاربهم، بل ليحارب المماليك ومن يشد أزرهم وتوطيد نفوذ السلطان العثماني في مصر. ولكن السلطان نفسه كذب هذا الادعاء فيما بعد وأرسل جيشًا لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وفي موقف بونابرت بعض الشبه بموقف الإنجليز في حروب مصر والسودان.
- وقوف المصريون وقفات مشرفة من أول الحملة إلى آخرها؛ فقد قاوموا الفرنسيين في الإسكندرية وفي القاهرة ثم هادنوهم وتعاونوا معهم عندما

أدركوا أن لا فائدة من المقاومة وأن الغزاة مشبعون بروح التفاهم والرغبة في الوئام. غير أنهم عادوا إلى الثورة عليهم ومحاربتهم، عندما اتضح لهم أن أعمال الفرنسيين لا تتفق وأقوالهم وأن الحرية في الفوضى الداخلية خير من العبودية في ظل الاستعمار.

ـ إن معركة الأهرام لم تدر رحاها في سهل الأهرام، بل حول بلدة إمبابة وليس صحيحًا أن قنبلة فرنسية حطمت أنف أبي الهول لأن مرمى القنابل لم يكن في ذلك الوقت يتجاوز مئات من الأمتار. خسر المماليك في هذه المعركة سبعة آلاف قتيل وخسر الفرنسيون ٣٥٠ قتيلًا وقد انتصروا بفضل المدفعية على الخصوص.

ـ ليس هناك ما يثبت أن بونابرت خاطب جنوده في المعركة قائلًا: "أيها الجنود، من أعلى هذه الأهرام أربعون قرنًا تنظر إليكم!" بل يغلب على الظن هذه العبارة من نتاج المخيلة ومن صنع "الدعاية"!

ـ اشترك مُحَّمد علي في معركة أبي قير البرية، في ٢٥ يوليو ١٧٩٩، وهي آخر معركة قادها بونابرت بنفسه في مصر، ولو لم يحتل مُحَّمد علي باشا مع الجيش العثماني! فالحملة الفرنسية مهدت حكم مُحَّمد علي وأسرته.

ـ كان الجنرال بونابرت وخلفاؤه يقيمون في قصر الألفي في المكان الذي كان فيه فندق شبرد القديم بالأزبكية. وفي حديقة ذلك القصر قتل خليفته الجنرال كليبر بيد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وتولى حكم مصر بعده الجنرال مونو الذي اعتنق الإسلام واتخذ اسم "عبد الله مونو".

ـ كان الفرنسيون في بادئ الأمر يتظاهرون باحترام الدين ويرعون المؤسسات الدينية بعنايتهم ولا يتعرضون لرجال الدين في شيء ولكنهم انقلبوا عليهم فيما بعد وضايقوهم وطاردوهم، يوم اتضح لهم أن رجال الدين ليسوا على استعداد لتأييدهم في الضغط على السكان وإخماد الروح الوطنية في النفوس والقضاء على كل مقاومة. وقد انتشرت إشاعة عن نابليون بأنه اعتنق الإسلام، ولكنها كانت مجرد إشاعة.

ـ عندما تأكد بونابرت من أن حلمه في إنشاء إمبراطورية شرقية قد تبدد ولن يتمكن من الوصول إلى الهند بطريق سورية والعراق، عدل عن فكرته الأولى ورسم خطة ترمي إلى فتح الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية وإنشاء إمبراطورية عربية يحكمها باسم فرنسا، معتمدًا على عداء العرب للترك ولكن هذه الخطة لم تخرج إلى حيز التنفيذ. من المآخذ التي يأخذها المؤرخون على الفرنسيين، أنهم في ثورة القاهرة، كانوا قساة غلاظًا في قمع الثورة. وهذا صحيح؛ فقد أمعنوا في القتل والتخريب وضربوا الأزهر بقنابل المدافع ودخل أحد قوادهم ساحة الأزهر راكبًا حصانة وتبعه فريق من الفرسان. وكان الكاتب الفرنسي ألكسندر دوماس الكبير يقول إن القائد الذي فعل هذا هو أبوه "الجنرال دوماس".

ـ في ثورة القاهرة الثانية، في عهد الجنرال كليبر، وقف جميع المصريين جنبًا لقتال الفرنسيين واشترك الأقباط مع المسلمين في هذه الثورة، كما اشترك فيها بعض الشرقيين والأوربيين النازلين في مصر. ومن الأسماء التي لمعت في هذه الثورة: السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والسيد

المحروقي كبير التجار، ومصطفي البشتيلي زعيم بولاق وحسن الجداوي والمعلم جرجس الجوهري وغيرهم

ـ بعد الحملة الفرنسية على مصر، توالت الحملات الاستعمارية من الغرب وتسابقت الدول الأوروبية في اقتطاع أجزاء من الشرق، فكان القرن التاسع عشر عهد فتح واستعمار، فأنشئت فيه تلك الإمبراطوريات الشاسعة التي كتب لها أن تنهار في الشطر الثاني من القرن العشرين وكلها الآن إما قد انتهت تصفيتها أو في طريق التصفية.

حبيب جاماتي
القاهرة
مايو ـ آيار ـ ١٩٦٢ ـ ذو الحجة ١٣٨١

الوردة الفضية

فتح باب الحانوت ببطء، فقد دفعته يد مترددة كيد الإنسان الخجول ودهشت الفتاة "بليلوت" لذلك التردد وكانت منحنية على منضدة عملها، تثبت شريطًا حريريًا في فوق معطف أسود على طراز المعاطف الإنجليزية. فرفعت رأسها، متجهة بنظراتها إلى الباب وأناملها ما زالت ممسكة بإبرتها وخيطها معلق في الهواء.

إن اليد التي تدفع الباب بمثل هذا الحذر، ليست بلا شك يد المواطنة[١] "فوريس" صاحبة الحانوت النشطة التي ذهبت إلى السوق منذ لحظات.

وهي أيضا ليست يد عميلة من عميلاتها، فقد ظهر بالباب رجل طويل القامة، نحيل الجسم، يتشح بالسواد من رأسه إلى قدميه، ما عدا ربطة عنقه البيضاء والكآبة مرتسمة على محياه، كأنه يلبس الحداد على نفسه!

وبعد أن اجتاز الرجل عتبة الباب، تردد مرة أخرى قبل أن يغلقه. ثم ألقى تحيته بحركة مشبعة بالتكلف، وقال بلهجة من يدبر مؤامرة:

---

(١) في عهد الثورة الفرنسية الكبرى الغي الفرنسيون الألقاب كلها، حتى لقبي "مسيو ومدام" أي "السيد والسيدة" وأحلوا محلهما لقبي "مواطن ومواطنة".

–أقدم لك احتراماتي أيتها الشابة الحسناء. ولعلى لم أكن متطفلاً، هل المواطنة فوريس غائبة؟

وكانت الفتاة قد استأنفت العمل بإبرتها، فأحنت رأسها وراحت تسترق النظرات إلى الرجل من خلال أجفانها المرخاة، وأجابت قائلة:

– إن المواطنة فوريس ليست هنا الآن، ولكنها لن تتأخر وعما قريب تعود على ما أظن. وإذا راق لك أن تنتظرها، أيها المواطن، فأرجو منك أن تتكرم بالجلوس.

وكان في عبارات الترحيب هذه والابتسامة التي رافقتها، ما أعاد الطمأنينة إلى نفس القادم الغريب، فانبسطت أسارير وجهه وابتسم ابتسامة الارتياح، ثم تناول مقعدًا جلس عليه منضدة الفتاة العاملة، وقال في صوت هامس راعش النبرات:

"بليلوت" صانعة القبعات في حانوت "الوردة الفنية"

هذا ما كنت آمله!.. آه. أيتها اللطيفة "بليلوت" اعذريني إذا كنت أدعوك بهذا الاسم ولكن الناس جميعًا يعرفونك به. أيتها اللطيفة بليلوت، إنك لا تستطيعين أن تتصوري مبلغ سعادتي بأن وجدتك وحدك بين هذه الجدران وأستطيع الإفضاء إليك بالشعور الذي قادني إلى هنا.!

دهشت الفتاة أكثر مما اضطربت لسماعها هذه العبارات، فرفعت رأسها وألقت نظرة استفهام على ذلك الخجول الذي انتابه الجرأة فجأة وفطن الرجل إلى السؤال الذي لم تفه به شفتاها بعد، فاستطرد قائلًا:

–كيف، ألا تعرفينني؟. إننى أمر أمام هذا الباب منذ ثلاث عشريات[1] على الأقل ورغم برد هذا الشتاء اللعين، كنت ألصق أنفي بالواجهة؛ محاولًا أن أراك من خلال الزجاج. أنت الفتاة المحتشمة التي يصعب اكتشاف مخبئها، ولكنها مع ذلك من الجمال والرزانة بحيث لا يسع كل رجل شريف، برقة قائلة:

كفي أيها المواطن. إن هذا لا يفيدني، من أنت؟

---

(1) ألغت الثورة الفرنسية تقسيم السنة والشهور. فأحلت محل الأسابيع المؤلفة كل منها من سبعة أيام، ما سمى بالعشريات أو الأثلاث، كل ثلث منها مؤلف من عشرة أيام، وكل شهر مؤلف من ثلاث عشريات أو ثلاثة أثلاث. وغيرت الثورة أسماء الشهور. وجعلت السنة مؤلفة من اثنى عشر شهراً، أي من ٣٦٠ يوماً. أما الأيام الخمسة الباقية فكانت تخصص لإحياء أعياد الثورة.

فبدت الدهشة على وجهه وقال:

من أنا؟ لا شك في أنك الوحيدة في مدينة "كركاسون" كلها[1] التي لا تعرف وجهي وتجهل اسمي. أنا المواطن "ديسال"، المحامي لدى المحاكم.

وظلت الفتاة محتفظة بهدوئها ومظهرها الساذج، وقالت:

إنني أشكرك على زيارتك ولكني في الوقت الحاضر، ليس عندي دعوى أو قضية تتطلب الدفاع عنها.

حقًّا، إنني آسف لذلك، فلشد ما يهمني أن أقدم لك برهانًا على إخلاصي، غير أنني ما جئت اليوم لكي أدافع أمامك عن قضيتي الخاصة!

قضيتك الخاصة؟

نعم، أيتها الصبية الجميلة الساذجة! إنني أحبك. هذا هو الواقع! وهاأنذا قلت كل شيء في كلمة واحدة. إنني أحبك وأرغب في إقناعك بأن ليس هناك شخص آخر في وسعه أن يحبك أكثر مني!

آه، أيها المواطن، يخيل إلى أنك وصلت بسرعة إلى خاتمة الحديث!

بليلوت؟!

كان اسم "بليلوت" ينطبق تمامًا على "مرغريت بولين بليل"، العاملة في محل الأزياء بمدينة كركاسون، في شهر فريمير[2] من العام السادس للجمهورية.

---

(١) كركاسون: مدينة في جنوب فرنسا، احتلها العرب بجيش جاءها من الأندلس، في القرن الميلادى الثامن– الثانى للهجرة. ومكثوا فيها نحو ٢٥ سنة.

(٢) يوافق شهر ديسمبر–كانون الأول– من سنة ١٧٩٧.

وقد ولدت الفتاة قبل ذلك التاريخ بعشرين سنة، أي في ١٥ فبراير– شباط سنة ١٧٧٨. فممن ورثت اللطف والجمال؟ أمن أمها الطاهية في بيت رجل من الأشراف القدماء، أم من أبيها الذي يقول بعض الناس "إنه مجهول" ويقول آخرون: "إنه ساعاتي في بلدة بامبير؟!"

إنها قصيرة القامة، ممتلئة الجسم، شقراء الشعر طويلته، زرقاء العينين، ناعمة البشرة تميل إلى ارتداء العهد الملكي البائد. وهي ليست غبية ولا تتصنع الحشمة ولا يعلم أحد كيف أصبحت على جانب من الاطلاع والمعرفة؛ فهي تتجاذب أطراف الحديث مع عملاء المحل بكثير من اللياقة والذوق السليم. وأما ضحكتها الرنانة، المغردة، فهي وحدها آية من آيات الفتنة!

فأي غرابة في أن يقع في هواها جميع شبان كركاسون؟!

ولكن سليلوت فتاة ذكية فطنة، فهي تعرف ما يهدف إليه كل الشبان المغازلين.

إنها رحلت عن بلدتها بامبير وأقامت مع أمها في مدينة كركاسون القديمة، حيث عملت في حانوت الأزياء الذي تملكه المواطنة فوريس، واسمه "الوردة الفضية".

وقد مضى عليها في عملها ستة أعوام، رأت خلالها أشياء كثيرة وسمعت أشياء كثيرة، فعركتها التجارب وعرفت كيف تتخلص من المعجبين واحدًا بعد واحد. فهي رغم أنها كانت تبحث عن الحب وتتوق إليه، كانت تعرف أيضًا ما ينطوي عليه الحب من خيبة في أكثر الأحيان. ولهذا آثرت

الانتظار وأخذت تعد عدتها في هدوء للسنوات التي تلي عهد الشباب. على أن بليلوت لم تكن تبحث عن عاشق، بل كانت تبحث عن زوجٍ! وليس الزواج هدف أولئك الشبان المتحذلقين المفتونين ولا الضباط الذين يقضون وقت الفراغ متسكعين في شوارع المدينة. كما أنه ليس هدف أولئك الكهول الذين يحومون حول الفتاة لمغازلتها وإهدائها آخر شعلة تختلج بها قلوبهم الفاترة!

ولهذا لم يكن لعبارات المحامي الذي كاشف الفتاة بحبه ووقع يذكر في نفسها. فقد ظلت محتفظة بابتسامتها الدائمة، وأجابته قائلة:

أشكرك كثيرًا أيها المواطن، على ما تبديه نحوي من اهتمام، بل أن هذا ليشرفني حقًّا! ولكن، كيف السبيل لإعطائك جوابًا يرضيك؟ ألا تعلم أن الحب المقرون بالسعادة لا يمكن تحقيقه إلا إذا اشترك فيه اثنان؟

نعم، هذا هو العدد الذي لا بد منه، وهو كافٍ على كل حال!

حسن جدا! وقد ذكرت لي أنك تحبني. وهذا ما لا شك فيه.

لكنني لم أقل لك، من ناحيتي، أنه سيكون في وسعي أن أحبك...

إذا كنت لا تحبينني الآن، فقد تحبينني فيما بعد! وقد يحملك على ذلك ما سوف أبذله لك من إخلاص ووفاء وعناية. إنك شابة نضرة جديرة بكل إعجاب ولم تخلقي للبقاء خاملة في هذا الحانوت أو لكي تدمى أناملك الناعمة بمزاولة الأعمال اليدوية.. فكري في هذا... وإذا كان وجهي لا يحتفظ بنضارة الشباب، فإن قلبي لا يزال ملتهبًا كأنني في العشرين!.. ثم إنني أربح أموالًا كثيرة وسأستأجر لك دارًا تتوافر فيها جميع

أسباب الراحة التي يتصورها العقل، لتعيشي فيها سيدة من سيدات الطبقة الراقية، دون أن تصنعي شيئًا! ثم إنني سأزورك كل مساء!.. ولن أفض لك طلبًا، فسأشتري لك جميع الأزياء التي ترغبين فيها والحلي التي...

وهنا قاطعته بليلوت قائلة:

نعم... ولكن، كيف تنظر المواطنة ديسال، زوجتك، إلى ذلك كله؟

أوه!.. إن زوجتي لن تعلم من ذلك شيئًا!.

وانطلق المحامي العاشق مستأنفًا حديثه في حماسه، فقال:

وإذا كنت تجدين ثروتي غير كافية، فإننا سنذهب معًا إلى باريس، فهناك الثروات الطائلة التي تجمع بلا عناء وفي وقت قصير. إن توريد حاجات الجيش يضمن أرباحًا مدهشة والأذكياء يستغلون هذا على نطاق واسع، في الجيش الذي يقوده الجنرال مورو في ألمانيا والجيش الذي يقوده الجنرال بونابرت في إيطاليا!

ومضى الرجل يبسط الفرص لأصحاب المطامع لكي يجمعوا الأموال الطائلة بلا عناء، في عهد حكومة الديركتوار التي تتخبط في غمرة من المشاكل والمصاعب[١]

ولكن بليلوت لم تصغ إليه. فقد أثار في نفسها حديثه عن الحروب القائمة على الحدود، ذكرى ضابط شاب كانت صورته قد انطبعت في

(١) تولت حكومة الدير كتوار، أو المديرين، شئون فرنسا منذ ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥ حتى ٩ نوفمبر ١٧٩٩ حيث أسقطها الجنرال بونابرت وأنشأ حكومة "القناصل" برياسته.

ذهنها: ذلك هو "جان نويل فوريس" الملازم في إحدى فرق الفرسان وابن أخي المواطنة فوريس، صاحبة حانوت الأزياء التي تعمل فيه في كركاسون!

كان جان يومئذ في الثامنة والعشرين من عمره، وسيم الطلعة، براق العينين، شديد الميل إلى المغامرات، وقد تطوع في الجيش وهو في السادسة عشرة وحارب في عهد الملكية وعهد الثورة[1] في صفوف المنشأة أولا ثم في كتائب الفرسان، حيث ارتقى إلى رتبة ملازم ثم أصيب في إحدى المعارك على حدود أسبانيا بجرح أحيل بسببه إلى الاستيداع. وكان ذلك في سنة ١٧٩٦، فعاد إلى كركاسون، لكنه لم يقطع الرجاء في الرجوع إلى الجيش، بل ظل يتوق إلى ذلك ويردده بلا انقطاع على مسامع رفاقه في المقاهي التي يغشاها، كما يؤكده على طريقته الخاصة، بحرصه على ارتداء ثوبه العسكري الزاهي والاختيال به دائمًا بين الناس.

بل ذهب ذات يوم إلى أبعد من ذلك، فسافر إلى باريس وجعل يبذل المساعي ليحمل المسؤولين على إعادته إلى الجيش.

على أنه، قبل سفره إلى باريس، بذل أيضا نوعًا آخر من المساعي في كركاسون نفسها. فقد كان الشباب يعيش في بيت عمته صاحبه حانوت الأزياء، فيظل يروح أمامها ويجئ مختالًا بثوبه العسكري الجميل وهو يجر سيفه على الأرض ويضربها بحذائه، ثم يحاول أن يبهر العاملة الحسناء بما يرويه على مسامعها من أقاصيص بطولته!

---

(١) الثورة الفرنسية ألغت الملكية وأرسلت الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت إلى المقصلة في سنة ١٧٩٣.

تصوري أن رئيس الفرقة أمرني ذات يوم بأن أتجه مع فصيلتي إلى الصفوف الأمامية؟..

وحينما كانت المواطنة فوريس تغادر الحانوت ويخلو الضابط الشاب إلى بليلوت، كان يتحول إلى هجوم من نوع آخر، فيطوقها بذراعيه ويلصق شفتيه بشفتيها، ويتنهد قائلًا:

حرام أن تذبل زهرة نضرة مثلك في ظلام هذا الحانوت!

وكانت هذه هي الكلمات نفسها، أو على وجه التقريب، التي سمعتها من المحامي العاشق وغيره من المغرمين! ولكن الضابط فوريس كان يضيف إليها كلمات أخرى أبعد صراحة منها، فيقول لها مثلا:

بادليني حبا بحب. يجب أن نتبادل حبا بحب.. فإن العمر قصير!

نعم، إن هذا الضابط كان عاشقًا حقا. وعبثًا كانت الفتاة تنجرف برقة وحذر، فإن همته لم تفتر، بل ظل يعاود الكرة بلا ملل ويزداد الحاجة في كل مرة بمهارة كافية، لجعلت الشاب العاشق يقدم على الزواج بها. ولا شك في أن الاقتران بالضابط الملازم الذي ينتظره مستقبل باهر لو عاد إلى صفوف الجيش والذي سيرث صاحبه الحانوت بعد موتها، كان أمرًا يحقق ما تصبو إليه الفتاة العاملة من مطامع وآمال. وهل في وسع بليلوت أن تجد أحسن من هذا؟

تلك هي الأفكار التي كانت تتلاطم في رأس الفتاة، بينما كان المحامي ديسال يواصل إلقاء خطابه الغرامي على مسامعها داخل الحانوت، ويختتمه قائلًا:

هيا. أقدمي على قرار نهائي يا ذات الجمال الرائع! فقد مر زمن طويل علي وأنا أتنهد وأتعذب وأشرف على الموت في سبيل الحب! وفي وسعك بكلمة واحدة أن تجعليني أسعد الناس على الإطلاق!

ولكن بليلوت قاطعته فجأة بقولها:

كن على حذر! اسكت، فقد أقبلت صاحبة الحانوت!

فتح الباب ودخلت امرأة بدينة في الخمسين من العمر، قصيرة القامة، ضخمة الصدر، يكاد الدم يتفجر من خديها وعيناها تلمعان كأنهما جمرتان في ظل حاجبين كثيفين، ثم تقدمت متثاقلة متمايلة وألقت معطفها على مقعد..

وأسرع المحامي ديسال في النهوض كيلا تفاجئه وأنحنى أمامها، قائلًا:

أنا مسرور برؤيتك أيتها المواطنة! ولم يكن انتظاري مملًا في رفقة هذه الفتاة الظريفة. وقد جئت لزيارتك لأقول لك: إن المواطنة ديسال– وهي من عميلاتك، أليس كذلك؟ أبدت لي رغبتها في شراء قبعة من حانوت..

فأجابت المواطنة فوريس بلهجة أهل كركاسون قائلة: سأرحب بمقدمها..

لا شك عندي في ذلك، ولكن البرد شديد الوطأة الآن، ولهذا فإن زوجتي تؤثر البقاء في البيت. وحبذا لو أرسلت إليها مجموعة من أحدث القبعات الباريسية مع هذه العاملة الصبية..

آه يا حضرة المواطن، لا يسعني أن أدع أحدًا غيري يتولى اختيار

القبعة اللائقة بعميلة راقية مثل المواطنة ديسال. ولهذا سأذهب إليها بنفسي!..

وكانت هذه العبارات خيبة أمل للمحامي ديسال. فماذا يستطيع أن يصنع بعد ذلك؟

ولم يسعه أخيرا إلا أن ينظر إلى بليلوت نظرة ملؤها الأسى، ثم اتجه إلى الباب وشيعته صاحبة الحانوت بما يليق برجل في مقامه من انحناء وابتسام!

وما كادت المواطنة فوريس تغلق الباب وراءه، حتى صاحت بلهجة لا أثر للاحترام فيها:

ماذا يريد منا هذا الغراب الأسود، ماذا يريد، وما رأيك يا بليلوت؟

ظلت الفتاة محتفظة بهدوئها وأجابت قائلة:

أما سمعت ما قاله لك؟ لقد أبدت له المواطنة ديسال رغبتها في..

نعم، سمعت. ولكن وطأة البرد ليست من الشدة بحيث لا تستطيع امرأة في صحة جيدة أن تخرج من بيتها. إن المواطنة ديسال مغالية، فلماذا لا تأتي إلى "الوردة الفضية؟" ولماذا توفد إلينا زوجها. هذا الشيطان الطويل؟

من أين لي أن أعرف ذلك؟

إن وراء هذا شيئًا ما ولا شك.. ولكننا لم نعد، والحمد لله، في عهد

الطاغية روبسبيير أو المدعي العام فوكيه تانفيل[1]، فحكم الإرهاب قد انتهى. ومع ذلك، فإنني لا أنظر بعين الارتياح إلى أولئك الرجال التابعين للقضاء ولا أحب أن يدخلوا حانوتي أو يتدخلوا في شؤوني!

كانت المواطنة فوريس قد اجتازت أسوأ أيام الثورة وهي تبيع القبعات، دون أن يحدث لها حادث. ولهذا كانت تباهي بأنها واسعة الاطلاع بفضل تجاربها، والحقيقة أن الحظ وحده هو الذي ساعدها كما ساعد كثيرين غيرها، فعاشت مجهولة منسية ولكنها ظلت شديدة الحذر من الناس

وتنفست طويلا، ثم استطردت تقول وقد وضعت يديها على خصرها:

إلا إذا كان..

وسكتت فلم تتم عبارتها، فقالت بليلوت:

إلا إذا كان.. ماذا؟

إلا إذا كان هذا الغراب البشع قد جاء من أجلك أنت، يا بليلوت.. آه.. لا تحتجي على هذا ولا تتظاهري بالطهر والسذاجة! فأنا أعرف الحقيقة. إن جميع الرجال يتوددون إليك، حتى الكهول منهم وهؤلاء

---

(١) أقام روبسبيير في فرنسا ما عرف بعهد الإرهاب وقد دام أكثر من سنة، وأرسل روبيير والمدعى العام فوكيه تانفيل مئات من الضحايا إلى المقصلة، ثم صعدا إليها بدورهما الأول في سنة ١٧٩٤ والثانى في سنة ١٧٩٥.

المواطنين المتزوجين، مثل ديسال هذا.. نعم، إن جميع الذين تقع أنظارهم عليك، يقعون في غرامك. إنه وباء يجتاح كركاسون وأنني لأجد مشقة عظيمة في منع هؤلاء العشاق العنيدين من دخول بيتي. فإنهم يجدون دائمًا العذر الذي يسمح لهم باقتحام هذا الباب ومغازلتك بعيونهم الذابلة!..

فانطلقت من بين شفتي الفتاة ضحكة ساخرة طويلة، وأجابت قائلة:

كوني مطمئنة!.. فإن هذا المواطن المحامي، بوجهه الشبيه بالورق المقوى وثوبه الأسود وتصنعه التأنق، ليس فيه ما يعجبني ولن تغريني عباراته المنمقة!

حسنًا!.. سأذهب بنفسي، رغم هذا، لأعرض أحدث القبعات على المواطنة ديسال.

واستأنفت بليلوت عملها. ولكنها، بعد سكوت قصير، تنهدت مرة أخرى، وقالت بلهجة تنم عن شيء من الأسى:

إنه لم يخلق بعد، ذلك الرجل الذي يجعلني أقدم على عمل سيئ يلطخ سمعتي!

زواج مرتجل:

خرجت بليلوت من البيت الذي سلمت فيه قبعة من صنع محل "الوردة الفضية" الذي تعمل فيه وهي أسعد كثيرًا مما دخلته، فالمواطنة التي اشترت القبعة كانت كريمة، برغم أن زوجها كان خادمًا قبل أن يصبح صاحب مصرف مالي كبير، وقد وضعت في يد الفتاة، عدا ثمن القبعة، رزمة

من أوراق النقد لتكون منحة لها، فدستها هذه في جيب سترتها ومضت عائدة إلى المحل في خطى متناقلة وقد ازدهاها الشعور بأنها انتقلت فجأة إلى مصافِ ذوي الوجاهة والثراء!

شعور لذيذ ولا شك وقد أعقبه في الشارع شعور ألذ. ففي ذلك اليوم الأول من سنة ١٧٩٨، كان الفضاء قد امتلأ بأشعة الشمس وهدأت الريح بعد أسابيع ساد فيها البرد القارس وتكاثف الغيوم. كانت أسوار المدينة القديمة وأبراجها وأعالي منازلها تبدو واضحة جلية في ضوء ذلك النهار البديع والجو أشبه بجو الربيع المفعم بالفرح والحبور.

لم تحفل بليلوت كثيرًا وهي تسير ببطء في طريق العودة إلى المحل، بالكثيرات من ربات البيوت اللائي مرت بهن في الشوارع التي اخترقها وكذلك كان أكثرهن في شغل عنها، بالانصراف إلى كنس عتبات الأبواب أو تبادل الأحاديث من نوافذ المنازل المتقابلة، بعد أن بقين أسابيع قابعات في بيوتهن بسبب البرد. على أن أحداهن ما كادت تلمح الفتاة حتى هتفت بها قائلة:

إيه يا بليلوت!.. لا تتسكعي هكذا في الطريق. أم تريدين أن تسيري في نزهتك هذه وخلفك موكب من المعجبين؟

فقهقهت الفتاة وأجابت قائلة:

وأخيرًا، وصلت بليلوت إلى نهاية الطريق ولم يبق عليها إلا أن تجتاز "ميدان الأعشاب" لكي تصل إلى شارع كورنجير، حيث "الوردة الفضية" محل الأزياء الذي تعمل فيه.

كان الصبيان يلعبون في الميدان ويملأون الجو بصياحهم والمارة يروحون ويجيئون طلبًا للنزهة كما يفعلون في أيام الصيف. ولم يكن في هذا ما يدهش الفتاة. ولكن الذي أثار دهشتها أن دار البريد هناك، وهي في الوقت نفسه محطة للمسافرين، ازدحم أمامها جمهور كبير من الجنسين من مختلف الأعمار، فدفعها الفضول إلى هناك واقتربت من رجل عجوز كان يتطلع بدوره إلى مدخل المحطة.

وقد أتكأ على عصاه، فسألته:

ماذا يصنع هؤلاء؟

فرفع العجوز نظره إليها، وقال في غير اكتراث:

إنهم ينتظرون وصول المركبة القادمة من باريس..

ولم تجد هي في هذا ما يبرر ذلك الازدحام، فعادت تسأله: "ولماذا ينتظرونها؟"

فبدت الدهشة على وجهه، وقال: "لماذا؟ آه، أيتها الحسناء!..

إنهم ينتظرونها لكي يعرفوا آخر الأنباء عن العاصمة!"

فلم يقنعها هذا الجواب ولكنها اكتفت بأن ابتسمت ساخرة وهزت رأسها موافقة.

فابتسم العجوز بدوره ساخرًا من عدم اكتراثها واستطرد قائلا:

طبعًا، في سنك أيها الفتاة، يفوق الاهتمام بالحب كل اهتمام بما

عداه، إنني أعرف ذلك. ولكن بقية الناس لا يرون هذا الرأي، ولا سيما فيما يتعلق بالسياسة؛ فالبلاد الآن تجتاز أيامًا عصيبة وقليل من الأمل ينعش الصدر. ولا شك في أن عودة المواطن بونابرت تستحق هذا الاهتمام، فهو الآن موضع الآمال وقبلة الأنظار!

المواطن بونابرت؟ لقد طالما سمعت بليلوت باسم بونابرت هذا! اسم غريب تردده الشفاه بلا انقطاع. نعم، لقد صدق الرجل العجوز.

ولكن ما شأنها هي ببونابرت؟ إن هذا الجنرال القائد ليس بالزوج الذي يمكن أن تنتظره مثلها. لكنها لم تكن تجهل أن الأخرين من الرجال والنساء والشبان والشيوخ يعتقدون أن حياتهم معلقة بكلمة يقولها هذا القائد الذي أحرز انتصارات باهرة في سهول إيطاليا وأعاد السلم بمعاهدة كامبو فورميو.

كان التوقيع على معاهدة كامبو فورميو قد تم في ١٧ أكتوبر من السنة السابقة[١]. وبهذه المعاهدة بسطت فرنسا سلطانها على بلجيكا وعلى الضفة اليسرى لنهر الرين، وفي الوقت ذاته ضمنت لنفسها السلطة في إيطاليا بإقامة جمهورية مستقلة عبر جبال الألب. وكانت هذه النتائج فوق ما كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة تأمله، فسكرت فرنسا بنشوة المجد العسكري وعاد نابليون بونابرت في ٣ ديسمبر من تلك السنة إلى باريس، بعد أن حصل على انتصارات باهرة في مختلف الميادين، فاستقبله الشعب استقبال الأبطال وأمعن في الهتاف له وإقامة المآدب والحفلات

---

(١) سنة ١٧٩٧ بين فرنسا والنمسا.

لتكريمه واشترك في ذلك أعضاء حكومة الديرين أنفسهم، رغم أنه لم يكن يشغل منصبًا من مناصب الدولة. وكانت عودته منتصرًا من الميادين عبئًا ثقيلًا عليه.

والواقع أن باراس وكارنو ورفاقهما من أعضاء الحكومة الفرنسية في ذلك الحين، كانوا يتمنون التخلص من ذلك القائد العظيم المزعج ويعملون سراً في هذا السبيل، ولكن الشعب الفرنسي علق كل آماله ببونابرت وكان يتوقع منه أن يصنع من أجله معجزات أخرى!

كان الشعب متعطشًا للسلام والاستقرار، وإذا كان أعداء فرنسا على الحدود قد ألقوا السلاح وأوقفوا القتال، فإن إنجلترا لم تكن قد خضعت بعد، فهي تواصل الحرب ولا تزال تهدد بإذكاء النار التي لم تنطفئ تمامًا في أوروبا وهاجمت المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحاء. وتعرقل تجارة فرنسا في الخارج. فلا بد من تسوية الموقف تسوية حاسمة وبأي وسيلة ممكنة، مع هذه الأمة المتعجرفة العنيدة!

وكان الشعب الفرنسي يريد وضع حد للشقاء الذي يعانيه ذوو الاستقامة وعامة الشعب. فماذا جناه هؤلاء من الثورة خلال الأعوام الخمسة الماضية؟ وماذا صنعت حكومة الدير كتوار أو المديرين من أجلهم؟

إن أصدقاء الحكام والنفعيين ومور دي الجيش ومحدثي النعمة ومن كان يحوم حولهم من نساء، كانوا منصرفين في باريس والمدن الكبرى إلى اللهو والرقص ونهب أموال الدولة، في حين أن الملايين من الفرنسيين المحرومين وأصحاب الأملاك الذين شح دخلهم والصناع العاطلين والعمال

الذين لا تكفيهم أجورهم. كل هؤلاء كانوا يحاولون عبثًا الحصول على حاجاتهم من السلع الضرورية التي يزداد ثمنها ويندر وجودها يومًا بعد يوم، بينما أوراق النقد أصبحت لا قيمة لها في الأسواق.

كان الناس يعانون الجوع ويرتدون ثيابًا مرقعة ويفتقرون إلى الأشياء الضرورية في الحياة. ولهذا كانوا ينتظرون من بونابرت أن يوفر لهم الطعام والكساء والحصول على ما يحتاجون إليه لكي ينعموا بمباهج الحياة، وبعبارة أخرى، كانوا يريدون أن يعيشوا كما كانوا يعيشون من قبل في "عهد الطغاة" ولم تكن الوسائل المؤدية إلى ذلك تهمهم في قليل أو كثير. فكان بعضهم يرى أن يعمل الجنرال بونابرت لإعادة الملك إلى العرش وفريق آخر يتمنى أن يطرد القائد أعضاء حكومة الديركتوار ويستولي على الحكم، فالجميع كانوا يتمنون أن يصنع بونابرت شيئًا وأن يبدلوا بالحالة الراهنة أي حال!

كان الرجل العجوز المتكئ على عصاه ماضيًا في حديثه كأنه يلقي محاضرة معدا ما ينتظره الشعب من بونابرت. وكانت بليلوت تصغى إليه في أدب وهدوء، وإن لم تفهم ما يقول كل الفهم. ومن وقت لآخر كانت تتطلع إلى مركز البريد وتتفرس في الجمهور المحتشد هناك.

وأخيرًا، وصلت المركبة إلى الميدان، فاخترقته ووقفت في المكان المعد لوقوفها، فلم يسع بليلوت إلا أن تركض نحوها مع الراكضين.

وقد تذكرت جان فوريس، فتاها الضابط الوسيم، ابن شقيق صاحبة المحل الذي تعمل فيه، وحدثتها نفسها بأنه قد يكون بين العائدين في المركبة

من باريس ولا سيما أن عمته لم تعطه من المال ما يكفي لإقامة قصيرة هناك!

وصدق ظنها، فما كادت تصل إلى المركبة حتى هبط منها شاب جميل يرتدي ثوبًا عسكريًّا أخضر ووقف ينفض عنه الغبار، وكان هو جان فوريس!

ووقعت عينا الشاب بين الوجوه المتطلعة إلى المركبة، على وجه بليلوت، بعينيها الصافيتين وابتسامتها الحلوة، فانطلقت من فمه صيحه فرح واخترق الجمع الحاشد، حتى وصل إليها، فاحتواها بين ذراعيه وطبع على خدها قبلة حارة، دون أن يحسب حسابًا للمتطفلين الذين استرعى ذلك المشهد انتباههم، وقال لها وهو ما زال ممسكًا ذراعيها:

إنه لتلطف منك أن تجيئي لانتظاري هنا. ولكن، من أنبأك بعودتي؟ إنني لم أخبر أحدًا بها!..

فضحكت بليلوت، وأجابت بقولها:

الحق أنني لم أكن أعرف أنك عائد اليوم، ولكن هذا حدث صدفة.. صدفة فقط، فقد كنت مارة من هنا. و...

فقاطعها وهو ينظر إلى عينيها متلهفًا، وقال:

لا.. لا أصدق، بل دعيني أعتقد أن قلبك أنبأك بأنني عائد اليوم، لكن تعالي.. فلا داعي لبقائنا الآن في هذا الميدان وسيكون لدينا ما يكفي من الوقت لنتحدث. لقد عدت إلى الخدمة في الجيش وسأقص عليك كل

شيء فيما بعد، أمامي شهر كامل قبل أن التحق بفرقتي.

ثم تأبط الضابط الشاب ذراع الفتاة وانطلق بها إلى شارع كورنجير، حيث "الوردة الفضية" حانوت عمته، واستسلمت له بليلوت ومشت بجانبه رافعة الرأس، مختالة فخورة بصاحبها الضابط الفارس الذي يمشي معها متأبطًا ذراعها وسيفه يقرع الأرض!

وراح الشاب يتكلم عن عواطفه تارة، وعن معارك الغد تارة أخرى، إلى أن قال:

إيه يا زهرتي اليانعة، إنك لا تزالين جميلة!.. ولا تزالين وديعة حادثة، أليس كذلك؟ هذا ما كنت آمله. إن قلبك كان في انتظاري!

انطلقت صرخات فرح أخرى حينما دخل الشابان محل الأزياء وتبودلت أيضا قبلات أخرى بين الشاب وعمته فوريس. ولما كانت هذه لا تقل ثرثرة عنه، فقد راح الاثنان يتكلمان في وقت واحد دون أن يسمع أحدهما شيئا مما يقوله الآخر!

ولما حان موعد العشاء، جلس الشاب وعمته وبليلوت إلى مائدة واحدة في مؤخرة الحانوت وسكتت المواطنة فوريس، تاركة الكلام لابن أخيها الضابط الشاب، فأخذ يروي لهما قصة رحلته إلى باريس والمساعي التي بدلت الحال وأحيت في قلبه الأمل في الرجوع إلى خدمة الجيش، فقد أذيع نبأ رسمي بدعوة الجنود والضباط المتقاعدين أو المسرحين من الخدمة، إلى المبادرة بالالتحاق بالجيش، ما داموا قادرين على حمل السلاح!

واعترف جان بأنه لا يعرف السبب الذي دعا إلى اتخاذ ذلك

القرار،ولكنه يعتقد أن النية منصرفة إلى توجيه ضربة قاضية إلى إنجلترا. وقد يكون ذلك بغزو الجزيرة التي تحدث كل هجوم سابق. فإن الجيوش الفرنسية تحتشد والسفن تجهز على طول سواحل المحيط، بل على سواحل البحر المتوسط أيضا. ولا شك في أن العمل القادم سيكون عملًا عظيمًا.

وبلغت حماسة الشاب منتهاها، وهو يقول:

وعلى هذا، سأسارع إلى قيد اسمي متطوعًا في الجيش، طالبًا إعادتي إلى رتبتي في سلاح الفرسان، ومن حسن الحظ أن الجنرال بونابرت هو الذي سيقود الحملة القادمة. وإذا قلنا "بونابرت" فقد قلنا كل شيء!. لقد روى رفاقي الذين خدموا تحت رايته في إيطاليا كيف كان يحرز الانتصارات تباعًا وكيف كان في الوقت ذاته يوفر لرجاله حياة كلها أفراح وملذات! وسيكون الأمر كذلك في أي مكان يقودنا إليه!

كانت بليلوت تصغى إلى حديث الضابط صامته مفكرة وقد شعرت أكثر من مرة بحذائه الغليظ يداعب تحت المنضدة حذاءها الناعم ويضغط عليه ويعاكسه! ولكنها لم تكن في حاجة إلى تلك الحركة الصامتة لكي تفهم ما يريد منها جان فوريس أن تفهم. أي أن الشاب لم يعد إلى كركاسون لاستئناف الخدمة في الجيش فحسب، بل عاد إليها أيضًا موطدًا العزم على الفوز بالفتاة العاملة في حانوت عمته..

نعم، أدركت بليلوت أنه وطد العزم على الظفر بها وأنه لن يدخر وسعًا في الهجوم الخاطف عليها متى خلا إليها، فراحت تعمل ذهنها في الاستعداد لذلك الهجوم وترسم الخطط المناسبة للمقاومة أو الاستسلام،

حسب الظروف والأحوال!

وبعد العشاء، عادت الفتاة وحدها إلى المسكن الذي تشاركها أمها فيه وأوت إلى فراشها وهي ما زالت مشغولة الذهن بما سيكون من أمرها في الغد مع جان..

ما كادت بليلوت تعود إلى محل الأزياء في صباح اليوم التالي وتستوى جالسة على مقعدها أمام منضدة العمل، حتى فتح الباب الداخلى للمحل، وأطل منه جان بقامته المديدة ووجهه الوسيم البسام.

لم يكن يتقلد سيفه كالمعتاد. ولكن بليلوت أدركت من بريق عينيه عزمه الأكيد على القيام بهجومه بلا إبطاء

وبادر الفتاة بالتحية قائلا:

صباح الخير يا بليلوت. إن عمتي خرجت لقضاء أمر ما، فنحن الآن وحدنا وقد اغتنمت هذه الفرصة وجئت لأداعبك!..

قال هذا وهو يخطو نحوها مطمئنًا حتى بلغ المنضدة التي تجلس إليها، فاتكأ بذراعيه وراح يركز نظراته في عينيها، فاختلج قلبها، لكنها تماسكت وردت عليه قائلة:

صباح الخير، أيها المواطن فوريس.. داعبني كما شئت ما دام هذا يسليك. ولكنني أطلب منك منذ الآن شيئًا واحدًا، وهو أن تدعني أعمل، فلا بد من إنجاز هذه القبعة التي في يدي قبل أن ترجع عمتك.

قالت هذه الكلمة بلهجة كلها تعقل واتزان، ولكن الابتسامة التي

ارتسمت على ثغرها واضطراب أهاب عينيها، كان فيهما شيء من الإغراء لم يفت الشاب إدراك معناه، فاستطرد قائلًا بلهجة مرحة.

اعملي ما شئت يا بليلوت!. إن هذا لن يمنعك من الاستمتاع لما سأقوله لك وهو لا يختلف عما قلته لك من قبل وكررته مرة بعد مرة.

إن العالم كله على سعته لا تعجبني فيه إلا فتاة واحدة. وهذه الفتاة هي أنت يا بليلوت! أنت "الوردة الفضية". نعم، إنك تشبهين وردة أنبتتها معجزة في هذا المحل. وردة أود أن أقطفها، إذا سمحت أنت بذلك!

فتشاغلت بليلوت بإعداد إبرتها للعمل، وقالت دون أن ترفع نظرها إليه:

يا لها من عبارات شدية عطرة!. لكنها غريبة حقًّا إذ ينطق بها ضابط في الجيش، إنها جديرة بأن ينطق بها بستاني أو بائع أزهار!.

ثم أطلقت من حنجرتها ضحكة مغردة ساحرة وعكفت على عملها متظاهرة بالانهماك فيه، فضحك جان بدوره وقال:

أهكذا رأيك؟. لكنني سأثبت لك الآن إلى أي حد أنت مخطئة.

وسترين كيف نصنع جميعا في فرقة الفرسان!

وفي قفزة رشيقة واحدة، تخطى المنضدة التي تفصل بينهما واحتضنها بين ذراعيه، ثم انهال على شفتيها بالقبلات..

ولم تبد بليلوت مقاومة تذكر أول الأمر، ثم دفعته عنها بعد قليل في تلطف ملحوظ، وهى تقول له:

لا، لا.. لا أسمح لك بهذا!.

فسألها وذراعه ما زالت حول خصرها:

ولماذا لا تسمحين يا زهرتي الجميلة؟

فنظرت إليه متنهدة، ثم أطرقت وأجابت:

أنت تعلم الجواب يا جان. إن الذي تريده لا حق فيه لغير شخص واحد، هو زوجي في المستقبل!

وبهت جان وبقي هنيهة يحدق في وجهها وهي مطرقة. ثم وضع يديه كلتيهما على كتفيها مترفقا وأخذ يضحك، كأنه سمع ملاحظة طريفة تفوهت بها صلبية صغيرة. فلما رآها تحدق النظر في عينيه مستنكرة معاتبة، كف عن الضحك فجأة، وقال لها:

إذًا، أنت تعتقدين يا بليلوت أن الزواج هو أعظم برهان على الحب؟

فقالت بلهجة تنم عن الطهر والسذاجة:

إنني لا أعرف برهانًا غير هذا. أو بعبارة أخرى. هذا ما تلقنته إلى الآن!

فضرب المنضدة بقبضته، وصاح قائلًا:

اسمعي يا بليلوت. سأثبت لك أننا نحن معشر الضباط الفرسان نحسن اتخاذ قرارات سريعة حاسمة. سأتزوجك يا بليلوت!

ولم تكن الفتاة تتوقع مثل هذا القرار السريع الحاسم، فاشتد خفقان قلبها وأغرورقت عيناها بالدموع، وقالت هامسة وقد جف ريقها في حلقها:

تتزوجني؟

فأجاب جان بدون تردد:

نعم.. سأتزوجك.. وماذا في ذلك ما دمت أحبك، وما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة للفوز بك؟

فعادت تحدق النظر في عينيه وصدرها يعلو ويهبط لتلاحق أنفاسها. ثم قالت وفي صوتها ما ينم عن الفرح والخوف في آن معًا:

جان.. أجاد أنت فيما تقول؟

فعاد إلى وضع يديه على كتفيها، وقرب وجهه من وجهها، وقال:

نعم يا بليلوت، إنني أتكلم جادا وأمامنا شهر كامل حتى أعود إلى فرقتي بالجيش، وسنجمع منذ اليوم الوثائق اللازمة ونعد العدة للزفاف. وقبل عشرة أيام يكون كل شيء قد انتهى على ما يرام.

وأوشكت بليلوت أن تنهار أعصابها لفرط فرحها واغتباطها، لكنها تجلدت وتمتمت قائلة بعد أن تنهدت طويلا:

آه يا جان، كم أنا سعيدة الآن!

فمال الشاب عليها واحتضنها مرة أخرى وطبع على شفتيها قبلة

شعرت بأنها ألذ وأشهى وأحر من جميع قبلاته السابقة ولبثا متعانقين بعض الوقت. ولو أن عناقهما استمر لحظة أخرى لفاجأتهما عمة جان وهما على تلك الحال. فقد دخلت المحل فجأة في اللحظة التالية لعناقهما الحار الطويل، وصاحت وهي تغلق الباب خلفها:

ما أبدع هذا الطقس! كأننا لسنا في فصل الشتاء!

على أنها ما لبثت قليلا حتى فطنت إلى ارتباك الشابين وخدودهما المحمرة والبريق الساطع من عيونهما، فبقيت تحدق فيهما هنيهة ثم قالت:

ماذا أرى؟ لماذا تبدوان هكذا كأنكما تلميذان فوجئتا وهما يرتكبان ذنبًا؟

فابتدرها جان قائلا:

عمتي.. يا عمتي العزيزة.. سأشرح لك الأمر كله. إن ما حدث غاية في البساطة ومدعاة للفرح.. إنني اعتزمت الاقتران ببليلوت في أقرب وقت!

فاستولت الدهشة على عمته ثم خيل إليها أنه يمزح. فحولت نظراتها إلى بليلوت متسائلة، ولما رأتها مطرقة مستحيية، تحققت أن الأمر جد لا هزل، وقالت:

إذًا أنتما عازمان على الزواج حقا يا ولدي!.. يا لكما من بارعين في فن الكتمان! وأني لأراهن على أنكما تعدان لي هذه المفاجأة من زمن بعيد!

فبقيت بليلوت ساكتة، بينما ضحك جان وقال:

نعم يا عمتي العزيزة، إننا نعد هذه المفاجأة لك منذ ربع ساعة!

فضحكت المرأة البدينة بدورها، مدفوعة بطبيعتها المرحة وتسامحها في كل شأن من شؤون الحب ثم قالت بلهجة مفعمة بالحنان: أي ولدي العزيزين.. ما دمتما تتبادلان الحب فأنتما محقان في عزمكما على عدم الانتظار ولا يسعني إلا أن أقركما على هذا. ورغم ما يدعيه الناس في عهد الانحلال الخلقي الذي نعيش فيه، ما زلت أعتقد أن الزواج هو خير وسيلة لضمان السعادة.. فدعني أقبلك يا عزيزى جان!.. وتعالي أيضًا يا بليلوت!. فبين ذراعي مجال كاف لضمكما معا!

وضمت المرأة رأس الشابين إلى صدرها العريض. ثم قالت لجان وهى تشير إلى بليلوت:

لم يكن في وسعك يا عزيزي جان أن تجد زوجة أفضل من هذه الفتاة. لقد عرفت بليلوت جيدًا خلال السنوات الست التي قضتها في العمل معي. إنها لفتاة شريفة وعاملة مجتهدة.. ثم هي إلى ذلك كله، تحفة نادرة جديرة بالملوك، كما كانوا يقولون في قصر فرساي[١] في العهد البائد!

---

(١) قصر فرساى: مقر ملوك فرنسا على مقربة من باريس.

أمل ضائع

أخذ المواطن ديسال يقطع شارع كورنجير ذهابًا وإيابًا دون أن يجتاز عتبة الباب الذي تعلوه لوحة "الوردة الفضية" الجميلة. وفي المرة الثالثة حاول أن يرى، من خلال زجاج الواجهة، ما يحدث خلف ستائرها داخل المحل، ولكن جهوده ذهبت عبثا، إذ كان الشتاء قد عاد بعد الأيام القليلة التي سطعت فيها الشمس، فاصطبغ الفضاء بلون الرصاص وتلبد الجو بالغيوم الكثيفة وهبت ريح شمالية أثارت الغبار في شوارع كركاسون، فخلت من المارة وساد المدينة كلها ظل من الكآبة والصمت الرهيب.

ولفح البرد وجه المحامي ديسال، فأخذته الرعدة واصطكت أسنانه، فأسرع في مشيته وهو يقطع الشارع للمرة الرابعة، التماسًا للدفء. وما كاد يمر بالمحل في هذه المرة حتى عاودته جرأته وزايله تردده، ففتح الباب ودخل.. وحفت المواطنة فوريس صاحبة المحل إلى استقباله والترحيب نه، قائلة:

حقا إنها لمفاجأة أيها المواطن!. أي فرصة سعيدة جعلتك تشرفني بزيارتك في هذا البرد القارس؟

فأجاب ديسال متلعثمًا:

كنت مارا في هذا الحي صدفة، فتذكرت فجأة أن زوجتي تريد تصبيح قبعة اشترتها أخيرًا..

وكانت نظرة واحدة كافية ليدرك المحامي أن كل شيء في المحل باق في موضعه: الأثاث العادي والقبعات المصفوفة للعرض والعلب المرصوصة كالأبراج والمرأة التي انعكست فيها صورته وصاحبة الحانوت البدينة النشطة. ولكن العاملة الجالسة إلى المنضدة، تشتغل بالإبرة وتقص بالمقص وتعقد الشرائط، ليست هي العاملة التي طالما رآها هناك، بل هي فتاة أخرى قصيرة سمراء، ذات صدر ضيق وعينين خبيثتين ليس فيهما ذلك الصفاء أو السحر الذي كان يشع من عيني العاملة الأولى.. بليلوت.

ومضى المحامي ديسال في الحديث عن قبعة زوجته، وهو يختلس النظر بين لحظة وأخرى إلى العاملة الجديدة، ويسائل نفسه في قلق لم يستطع إخفاءه: "ترى ماذا حل ببليلوت الشقراء الجميلة الضاحكة؟"

ولم يسعه أخيرًا إلا أن يستجمع جرأته ويسأل صاحبة المحل في صراحة:

هل خرجت الفتاة بليلوت من عندك؟

فبدت الدهشة في وجه المرأة البدينة، وقالت:

عجبًا ألم تعلم بما حدث؟.. لقد تزوجت بليلوت!.

بليلوت تزوجت؟ ولكنني رأيتها عندك من زمن غير بعيد..

آه!.. المسألة حديثة العهد. إن بليلوت تزوجت في الثامن من شهر

بلوفيوز[1] منذ عشرين يومًا!

فانتفض المحامي ممتعضًا، ولكنه تمالك نفسه واستطرد قائلا:

ومن هو الرجل- من فضلك- الذي تزوجته؟

ابن أخي، جان فوريس، الملازم في جيوش الجمهورية!

وظل الرجل هنية ذاهلًا وهو يردد في نفسه: "بليلوت تزوجت؟ إذًا ضاعت إلى الأبد!"

وشعر بأن هذا الحادث المفاجئ لم يذهب بأمله فقط، ولكنه انطوى على إهانة ألحقتها به تلك العاملة الحسناء!

على أنه تظاهر بعدم الاكتراث، وأجاب قائلا:

خسارة!.. لم يبق على كل حال إلا أن نتمنى لها السعادة!

فاستاءت صاحبة المحل من عبارته هذه، وقالت في لهجة تنم عن شعورها.

لم أفهم ما تعني بقولك "خسارة" و"على كل حال؟"

آه، أيتها المواطنة، إنني لا أسمح لنفسي بأن أشك في مزايا ابن أخيك، ولكن الجميع يعلمون من هم رجال الجندية وما هي الحياة التي

---

(1) أسماء أشهر السنة كما وضعتها الثورة الفرنسية في "التقويم الجمهوري" هي: أشهر الخريف: فاندميير- برومير- فريمير.

وأشهر الشتاء: نيفوز- بلوفيوز- فانتور. وأشهر الربيع: جرمينال- فلوريال- بريريال. وأشهر الصيف: ميسشيدور- ترميدور فروكتيدور.

يمارسونها؟ إنهم كما تعلمين دائمو التنقل من بلد إلى بلد ولا أذكر لك المخاطر التي يتعرضون لها. فإن رصاصة واحدة تأتي في غير موعد أو قنبلة واحدة جامحة، تكفي للقضاء على الضابط اللامع، لكي تصبح الزوجة الشابة وحدها مهملة معرضة لجميع أنواع التجارب!

ولم تستطع المرأة صبرًا على سماع عباراته الجافة المتشائمة، فقاطعته قائلة:

كفي! كفي أيها المواطن!

فتراجع الرجل قائلا:

معذرة!.. إنني أعبر عما يجول في خاطري، وأرجو ألا يسيئك كلامي، فالواقع أن ما حملني على التصريح به، أنما هو شعور المحبة.

نعم، الحب الخالص التي يختلج به صدري نحو فتاة جميلة آسف على غيابها عن هذا المكان!

وجاهدت صاحبة المحل للاحتفاظ بهدوئها ولو لم يكن المتكلم رجلا محترما، يشغل مكانة رفيعة، لما سكتت ولزجرته وألزمته الوقوف عند حده.

وكان هذا ولا شك رأي "سيزارين" العاملة الجديدة السمراء، فقد توقفت عن العمل وراحت تنظر إلى الرجل شزرًا، لكنه فطن إلى ذلك، فابتسم لها واستطرد قائلا لصاحبة المحل:

وهو أيضا شعوري نحوك أيضا أيتها المواطنة فوريس. إني أشعر بمودة خالصة نحوك ونحو كل من يقيم بجانبك. وكلما سنحت لي الفرصة،

سأدخل إلى محلك هذا وأقدم لك واجب التحية!

وهدأت هذه الكلمات خاطر بائعة الأزياء، فأجابت قائلة:

شكرا وسأطلعك بدوري على أخبار الزوجين العاشقين، فالواقع أنهما عاشقان حتى الجنون، لا شك في أن مرآهما مدعاة للسرور. أما فيما يتعلق بمستقبلهما، فلا داع لمخاوفك!.. إنني أعرف جان وأعرف بليلوت حق المعرفة. وفي الظروف الحاضرة، لا يصعب على الجندي أن يرتقي مخارج الرتب، فابن أخي سيصبح جنرالًا مثل غيره.

أما بليلوت، فإنها من البراعة بحيث تستطيع ضمان السعادة لنفسها!

وابتسم المحامي ديسال؛ ابتسم لأن تلك المخاوف لم يعد لها أثر في نفسه منذ اللحظة التي فطن فيها إلى أن العاملة السمراء الجديدة توليه اهتمامها. فسكت قليلا وقد تفتحت أسارير وجهه وعاد إلى هدوئه ثم قال مخاطبًا المواطنة فوريس:

إنني أتمنى بقلبي السعادة للزوجين الشابين. ولكن هل أستطيع أن أعرف أين ذهبا بعد الزواج؟

فأجابته فوريس في مثل هدوئه، قائلة:

إنهما يقيمان على بضع خطوات من هذا المكان، فقد استأجرا منزلا صغيرا يقضيان فيه شهر العسل في عزلة عن الناس وقد يكون هذا الشهر قصيرا. فإن ابن أخي كما تعلم قد لبى الدعوة الموجهة إلى رجال الجيش. فعاد إلى الخدمة، برتبته السابقة ووظيفته ذاتها. وفرقته أرسلت إلى نواحي

مرسيليا، فهو ملحق بما يسمونه "الجناح الأيسر لجيش إنجلترا". ويغلب على الظن أنه سيشترك في الحملة العظيمة التي يعدها الجنرال بونابرت. وقد منح لمناسبة زواجه مهلة يلحق برفاقه بعدها، وهو مهما يكن مغرما ومهما يكن سعيدا مع عزيزته بليلوت، فإنه متعطش إلى استئناف القتال؛ فهو شجاع ممتلئ غيرة وحماسة، ولا شك عندي في أنه سيظفر قريبا بأسمى الرتب في الجيش!

فوافق المواطن ديسال على ذلك قائلا:

إن هذا ليسرني كثيرا!..

والحق أنه كان مسرورًا ولكن لسبب آخر، فإن العاملة سيزارين قد ردت على ابتسامته الأولى من وراء ظهر المواطنة فوريس، بابتسامة أكثر وضوحًا وشفعتها بغمزة من جفونها الناعسة!

وأخيرا حنى المحامي رأسه وقال لصاحبه المحل:

أيتها المواطنة، أنى في خدمتك دائما! وكوني على ثقة بأنني سأعود قريبا!..

قال هذا واتجه إلى الباب، فشيعته مودعة وهي تؤكد له أنها ستذهب بلا إبطاء إلى المواطنة ديسال وتضع نفسها في خدمتها.

وكان الليل في الخارج قد أسدل ستره على كركاسون، فابتعد ديسال مدفوعًا بالريح القارسة التي كانت تهب على شارع كورنجير.

وأغلقت المواطنة فوريس باب محلها وتمتمت قائلة:

ما أغرب هذا الطائر الأسود! كنت أحسب من قبل أنه يتردد على الحانوت من أجل بليلوت. أما الآن..

ونظرت إلى الفتاة العاملة عندها..

ولكن سيزارين كانت قد خفضت جبينها وزمت شفتيها واستعادت هدوءها واستأنفت عملها بهمة ونشاط!

الفرسان الأربعة

بدأت سفن الأسطول الذي أعده الجنرال بونابرت تغادر ميناء طولون، حاملة جيشه إلى ميادين جديدة لتسجيل انتصارات جديدة. وعلى أرصفة الميناء تجمع أهل الجنود وأصدقاؤهم وزوجاتهم وعشيقاتهم لتوديعهم، هاتفين ملوحين بالأيدي والمناديل.

وكانت الرياح تجري رخاء في ذلك اليوم المتمم للثلاثين من شهر فلوريال من العام السادس للجمهورية (١٩ مايو سنة ١٧٨٩) فانطلقت السفن ناشرة قلوعها، تخفق فوقها الأعلام المثلثة الأوان ومضت تشق طريقها متهادية فوق صفحة المياه الزرقاء والشمس تسطع في سماء صافية خالية من الغيوم والجو كله مرح وفرح وآمال بذلك الأسطول الذي أعاد ذكرى "الأرمادا"، ذلك الأسطول الذي أعده فيليب الثاني ملك أسبانيا سنة ١٥٨٨ ليغزو به الجزر البريطانية انتقامًا لمصرع الملكة ماري ستيوارت.

كان أسطول بونابرت يتألف من سبع وأربعين سفينة قتال وسبع وتسعين سفينة نقل، علاوة على سفن أخرى سبقت إلى عرض البحر أو كانت تتهيأ لتلحق بالأسطول، فيصبح عدد سفنه أربعمائة.

وفي مؤخرة السفينة "لافرنجانت"، وقف فريق من الضباط ينتمي

أكثرهم إلى كتيبة القناصة الثانية والعشرين، وكلهم ما عدا واحد أو اثنين من قدماء المحاربين في عهد الجمهورية وراحوا وهم متكئون على الحاجز يرقبون الشاطئ الذي أخذ يختفي، وقد سادهم الصمت جميعا وصدر كل منهم يخفق بذكرى مؤثرة يحرص على كتمانها في طيات الضلوع..

وأخيرا، رفع أحدهم صوته بكلمة وداع لفرنسا وحبيبته التي تركها فيها. ذلك هو الملازم الثاني "جاكومان"، ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره وفي شعره الأشقر وبشرته الوردية وإحساسه المرهف ما يجعله أشبه بفتاة مدللة حسناء، فلم يزد الآخرون من زملائه على أن التفتوا إليه مبتسمين، ثم سرعان ما عادوا إلى صمتهم العميق.

ولو أن أحدًا سأل ضباط ذلك الأسطول وجنوده: "فيم أنتم ذاهبون؟" أو "إلى أي شاطئ تحملكم هذه السفن؟". ما كان جوابهم جميعًا إلا أن قالوا مدفوعين بعاطفة الواجب: "إننا لا نعلم عن وجهتنا شيئا، ولكن هذا لا يهم، وحسبنا أننا ذاهبون إلى حيث نحرز والمجد بقيادة الجنرال بونابرت!"

والواقع أن أمر هذه الحملة أحيط بالتكتم الشديد، وفيما عدا بعض الأعضاء المقربين من القائد العام، لم يكن أحد يعلم أن مصر هي وجهة هذه الحملة.

وكان الجنرال بونابرت حين عاد إلى باريس، بعد أن عقد معاهدة كامبو فورميو وأحرز الانتصارات الباهرة في إيطاليا، قد أدرك بفطنته مدى الخطر الكامن وراء امتعاض الشعب من حكومة الديركتوار أو المديرين،

وقد صرح ذلك القائد العظيم لأخصائه بقوله:

إن الشعب شديد الرغبة في تحقيق مطالبه، وقد مل الانتظار، فلا بد من صنع شيء عاجل لتنفيس هذه الرغبة المكبوتة، وإلا أدت إلى الانفجار وهلاكنا أجمعين!

وسعى بونابرت سعيه حتى عهد إليه في قيادة "جيش إنجلترا" وكان المفهوم أن هذا الجيش سيغزو الجزر البريطانية مجتازا بحر المانش. ولكن بونابرت ما لبث قليلا حتى تبين تعذر هذا الغزو.

ولا سيما أن سيادة البحر كانت حتى ذلك الوقت للأسطول البريطاني وقائده الجبار الأميرال تلسون. وعلى هذا لم يجد بونابرت بدا من أن يولي وجهه شطر الشرق؛ حيث يستطيع أن يضرب إنجلترا ضربة مباشرة لكنها ضربة موجعة وقد تكون قاتلة، وذلك بقطع طريقها إلى الهند.

ولم يكن هو صاحب هذه الفكرة، فقد خامرت قبلة أذهان كثيرين، مثل "ماجالون" الذي مكث عشرين سنة قنصلا لفرنسا في مصر و"شوازيل" وزير الملك لويس الخامس عشر، و"ديلاكروا" وزير الشؤون الخارجية الفرنسية سنة ١٧٩٦. لكن بونابرت أعجب بهذه الفكرة بعد أن درسها بدقة، فتبناها وزاد في حماسته لتنفيذها ميله الخاص إلى الشرق وإيمانه العميق باستطاعته أن يحقق فيه آمالًا عظيمة، كما صرح بذلك من قبل.

وأعد بونابرت حملته بما امتاز به من حزم ودقة في جميع الأعمال التي اضطلع بها، فحشد في موانئ مرسيليا وطولون وجنوا وفي جزيرة كورسيكا

ثلاثين ألف رجل، منهم أربعة وعشرون ألف جندي مقاتل، موزعين على خمس فرق للمشاة وفرقة للفرسان، وقد اختارهم من نخبة الجنود الذين حاربوا في جيوش الرين وإيطاليا. وحشد في تلك الموانئ سفن النقل المزودة بمعدات القتال، والسفن الحربية المعدة لحمايتها.

واختار لركوبه السفينة "أوريان" أي "الشرق" التي يستقلها الأميرال "بروي" قائد ذلك الأسطول([1]).

وبدأ شحن المعدات منذ اليوم الثامن من شهر مايو، ولكن شدة الريح وهياج البحر في الأيام التالية حالا دون إقلاع السفن قبل مساء اليوم التاسع عشر، حيث بدا الجو ملائمًا فصدرت الأوامر بالرحيل.

وفي ذلك اليوم وجه بونابرت إلى رجال حملته نداء ذكرهم بالكتائب الرومانية التي طالما نسجوا على منوالها ولا بد لهم من أن يفوقوها فيما بعد، ثم قال: "إن أوروبا شاخصة بأنظارها إليكم وأمامكم مستقبل باهر يجب أن تحققوه. ولسوف تصنعون أكثر مما صنعتم لخير الوطن ولسعادة البشرية ولمجدكم الخاص!"

وهكذا لم يسع رجال الحملة الذاهبة إلى الحرب إلا أن يضعوا ثقتهم كاملة في قائدهم العظيم ولم يسع ذوي الإحساس المرهف إلا أن يخفوا تأثرهم بمفارقة الوطن والأهل والأحبة، ليكونوا عند حسن ظنه بهم.

ظل الملازم فوريس محتفظًا برباطة جأشه وهو مسند يديه إلى حاجز

([1]) أغرقت هذه السفينة في معركة أبي قير البحرية في أول أغسطس ١٧٩٨ وهى المعركة التي انتصر فيها الأميرال نلسون ودمر الأسطول الفرنسي وقد قتل فيها الأميرال بروى الفرنسي.

السفينة "لافرنجانت" بجانب زميله جاكومان، في حين أنه كان أحق منه بأن يبدي تأثره بمغادرة فرنسا وزوجته الحبيبة "بولين بليل" العاملة في حانوت عمته ولما يمض على زواجهما أكثر من أربعة أشهر!

على أن فوريس لم يضيع يومًا واحدًا خلال تلك الأشهر الأربعة.

فقد حرص على أن يتزود فيها بأكبر قدر ممكن من السعادة وبذل جهده لكسب الوقت، فلم يترك لحظة واحدة تمر دون أن يستغلها في إرواء ظمئه إلى الحب والاستمتاع بالكنز الثمين الذي ظفر به.

وقد جاءه الأمر بأن يلحق بكتيبة القناصة الثانية والعشرين، بقيادة الجنرال "لاسال". في مرسيليا، ثم في طولون، وهو غارق في غمرة السعادة!

وكان مقررًا أن تؤلف من هذه الكتيبة ومن كتيبة فرسان الهوسار السابعة، فرقة الخيالة الخفيفة الملحقة بالحملة الذاهبة إلى مصر.

وهكذا لم يجد فوريس بدًّا من اللحاق بفرقته لكي يحقق أحلامه بأعمال البطولة المجيدة، عاملا تحت إمرة القائد بونابرت، بطل معركة ميليزيمو ومعركة ريفولي، بعد أن تحققت رغبته في العودة إلى صفوف الجيش.

ولكن.. هل تطول غيبته عن فرنسا؟ وكم تستغرق تلك الحملة الغامضة التي لم يعلم عن وجهتها شيئا إلا في آخر لحظة؟ ثم ماذا يكون شأنه خلالها مع بليلوت؟

تلك هي الأسئلة التي كانت تدور في ذهنه وهو صامت في مؤخرة

السفينة "لافرنجانت" بجانب زميله الشاب جاكومان. وعلى مقربة منهما يقف أزواج وعشاق آخرون ما لبثوا أن تجهروا من صمتهم الوقور، فانطلقت ألسنتهم من عقالها وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث إلى أن قال أحدهم إن كل واحد منا ولا شك قد ترك قطعة من نفسه في أرض الوطن ولكن.. هل كان في استطاعته ألا يتركها؟

فقال زميله الذي يقف بجانبه:

نعم، كانت أوامر الجنرال بونابرت صريحة صارمة في هذا الشأن، فقد أكد غير مرة أنه لا يريد أن تتكرر حوادث الفساد التي وقعت في إيطاليا وأنه لن يلحق بالجيش امرأة واحدة غير اللاتي يختارهن بنفسه للخدمة.

وقال رفيق ثالث:

لهذا، لم أجرؤ على مخالفة الأمر!

وقال آخرون مثل قوله. لكن أحدهم أضاف قائلا:

ولكن ذلك لا يمنعنا من القول بأن قائدنا طاغية يستبد بقلوب المحبين!

فهز الضابط الذي بجانبه رأسه موافقا وقال:

لعله لا يعلم أن حارس إله الحرب، وفينوس ربه الحب، ألفا السير معا دائما، جنبا إلى جنب!

فتضاحك الآخرون، ثم قال قائل منهم:

أعتقد أن الجنرال بونابرت يعلم ذلك علم اليقين ولكنه لم يشأ أن

يعمل به لأن فينوس على ما يظهر، عاملته بجفاء!

فبدت الدهشة في وجوه زملائه وتبادلوا نظرات التساؤل.

فابتسم الضابط المتحدث، ومضى يقول:

عجبا؟! ألا تعرفون ذلك؟ إن أكثر الناس لا يجهدونه! فإن المواطنة زوجة بونابرت[١] بدأت منذ الأشهر الأولى للزواج ترتكب من الخيانات الزوجية أشكالا وألوانا. وقد كنت في حملة إيطاليا وسمعت الجميع يتحدثون عن علاقتها بالمواطن هيبوليت شارل، الملازم في فرقة فرسان الهوسار والمساعد للضباط المشرفين على التموين. وكان شارل أكثر ملازمة لها من كلبها "فورتونى"، وما لبث بونابرت أن فطن إلى ما هناك، فأوشك أن يعدم بالرصاص ذلك الفارس العاشق ولا سيما بعد أن تبين أنه استغل مركزه فاشترك في صفقات رابحة مريبة. لكن شارل نجا بنفسه في اللحظة الأخيرة وإن كان قد طرد من الجيش.

ثم أطلق الضابط المتحدث ضحكة ساخرة وقال:

أما الآن وقد أصبح مكان الزوج خاليا في منزل الجنرال بشارع النصر، من يدري أن "الجنرالة" وعشيقها لا يجتمعان من جديد؟

وأخذ بعض الضباط يعلقون على حديث زميلهم بمختلف التعليقات إلى أن قال أحدهم لينهي ذلك الحديث!

إن هذه الحوادث المحزنة كثيرًا ما تقع لأعظم الناس، والواقع أن قائدا

---

(١) جوزفين دى بوهارنيه، الزوجة الأولى التي طلقها نابليون بونابرت بعد أن أجلسها على العرش.

عظيما كالجنرال بونابرت لا يمكن أن يكون محظوظًا في وقت واحد في ميادين القتال وفي ميادين الحب!

أما جاكومان وفوريس، فكان كل منهما في شغل بما هو فيه عن الاستماع لذلك الحديث وبقي أولهما محدقا ببصره في الشاطئ الذي ابتعد حتى صار الحديث بخيط أزرق مشدود إلى الأفق، وكان يستنشق بشراهة نفحات النسيم الآتية من البر، كأنه يجد فيها عبير القبلة الأخيرة التي تبادلها مع حبيبته ساعة الوداع. أما فوريس، فبقي واقفًا يتطلع إلى الآفق البعيد وعلى شفتيه ابتسامه يكاد يخفيها، خشية أن يلمحها أحد من الرفاق، فيدرك أنه يبتسم لذلك الطيف الحبيب القريب منه وإن كان غير منظور!

وأخيرا، بدأت الشمس بعد ساعة من تحرك الأسطول، تتجه إلى مغربها في هدوء أشبه بهدوء سفن الأسطول في انسيابها فوق الماء.

وفجأة، مزقت الجو أصوات الأبواق، داعية الجنود وضباطهم إلى القيام بالأعمال المنوطة بهم وسرعان مال تجمع الجنود في مقدمة السفينة ثم لحق بهم الضباط، وفي مؤخرتهم جاكومان. أما فوريس، فلم يكن لديه عمل في تلك النوبة، فبقي في موضعه حتى انصرف كل من كانوا حوله، فأطلق لابتسامته العنان ثم مشى مبتعدًا من الحاجز في خطوات متناقلة إلى أن هبط جوف السفينة، فاقترب من باب حجرة هناك ودفعه بيده ودخل..

رأى فوريس على ضوء المصباح الخافت في الحجرة الضيقة التي دخلها في جوف السفينة، أربعة من الجنود الفرسان يرتدون معاطف

خضراء وعلى رؤوسهم قبعات عالية وقد جلسوا فوق أكياس وسط الحجرة مملوءة بالشعير.

وكانوا يتحدثون في مرح ساعة دخوله، فلم يقطعوا حديثهم. وقال أحدهم متمما حديثه مع الجندي الجالس بجانبه:

أما أنا، فقد قررت أن أصنع لنفسي بعد أن نصل إلى هناك، ثوبًا مزركشًا كأثواب نساء الحريم، فمثل هذا الثوب ولا شك يتناسب مع سمرة الوجه وسواد العينين!

فرد الجندي الآخر قائلا:

نعم، إنه ثوب رائع حقا، ولكن لكي تتم روعته ينبغي أن يتدلى على الجبين بعض قطع من النقود!

فأطلق الجندي الأول ضحكة رقيقة ناعمة وقال:

نعم، وحبذا لو كانت هذه القطع من النقود الذهبية الحقيقية!

فتدخل أحد الجنديين الآخرين قائلا:

أما أنا يا عزيزتي الجميلة، فسأكتفي هناك بارتداء ثيابي العادية وقد حملت بعضها معي في كيس كبير. إن النساء هناك لهن أسلحتهن الخاصة التي يأسرن بها قلوب الرجال وهن ولا شك أقدر على استعمالها، ولهذا أؤثر أن استمر هناك في استعمال أسلحتي العادية!

فقال الجندي الرابع:

هذا حق يا عزيزتي الحسناء، ولكن الله وحده هو الذي يعلم ماذا

يكون شأننا بعد أن نصل إلى تلك الصحارى النائية التي يقودنا إليها بونابرت!.. لن يضير عشيقي أن يجدني مرتدية على أحدث زي باريسي!

ولعل القارئ قد أدرك أن هؤلاء الجنود الأربعة لم يكونوا إلا أربع نساء متنكرات في زي الجنود.

ولم يكن هذا أمرًا يجهله فوريس، فإن إحدى هؤلاء النسوة المتنكرات كانت هي بليلوت زوجته الحبيبة الحسناء وقد استطعن مرافقة الحملة والصعود إلى السفينة في ميناء طولون، بمساعدة بعض عمالها الذين أعدوا تلك الحجرة لإيوائهن. ولم تكن السفينة "لافرنجانت" هي وحدها التي وقعت فيها هذه المخالفة الصريحة لأمر الجنرال بونابرت، فالواقع أن جميع سفن الأسطول، إذا استثنينا سفينة القيادة "أوريان" التي اتخذ مقره فيها، لم تخل أحداها من زوجات وعشيقات جريئات. غامرن بمرافقة الجميلة متنكرات، وقد بلغ عدد من صحبن الحملة على هذا النحو حوالي ثلاثمائة من النساء!

ولم تتردد بليلوت في الإقدام على هذه المغامرة. فما كاد زوجها ينبئها وهما يمضيان شهر العسل في كركاسون بأنه تلقى الأمر بالرحيل، حتى صرخت قائلة:

لن أفارقك! وحيثما تذهب أنت، سأذهب أنا!.

مانع فوريس في بادئ الأمر، وقال لها:

إن التعليمات الشديدة التي أصدرها بونابرت صريحة في حظر مرافقة النساء للحملة ولم يستثن من هذا الأمر سوى قلائل من العاملات اللائي

يقمن بمهام الخدمة على أن يحصلن على تصريح خاص بذلك.

فقالت بليلوت:

إذًا، في وسعك أن تحصل لي على تصريح كهذا!

فتنهد وقال:

لو أنهم كانوا في حاجة إلى عاملات لمصنع القبعات، لما تأخرت عن السعي للحصول على الترخيص لك أنك بمرافقة الحملة على هذا الأساس ولكنهم في حاجة إلى خادمات فقط!

فقالت بليلوت: إذًا سأسافر معك بوصفي جنديا!

وما زالت تلح عليه في هذا الشأن حتى لم يجد بدًا من موافقتها.

فعمدت إلى أحد أثوابه العسكرية القديمة وأعدته لنفسها. ثم سعيا في سبيل إتمام هذه الحيلة حتى صعدت إلى السفينة "لافرنجانت" دون أن تسترعي أنظار أحد، لتنكرها في زي الجندي.

وبمثل هذه الحيلة، استطاعت النسوة الثلاثمائة الأخريات مصاحبة الحملة وقد أغراهن بالإقدام على هذه المغامرة الخطرة، ميلهن أي الذهاب إلى جهة نائية مجهولة، فضلًا عن تعلقهن بمن أحببن من أزواج وعشاق!

والآن. ها هي بليلوت قابعة مع رفيقاتها الثلاث في تلك الحجرة الضيقة المظلمة القذرة في قاع السفينة، بيد أنها لم تكن في وقت من الأوقات أكثر مرحًا وأقل اهتماما بالعواقب وأبعد إمعانا في الضحك، منها في هذه الساعة. بل أن فوريس لم يرها في وقت من الأوقات أجمل مما رآها

في تلك الساعة وهى تتحدث مع زميلاتها عن أزياء الحريم في الشرق وقد جلست على أحد أكياس الشعير مرتدية معطفه الأخضر القديم وعلى رأسها القبعة الطويلة الواسعة!

وغلت مراجل الحب في صدر فوريس، فمال على بليلوت، وهم بأن يطبع قبلة على شفتيها، ولكنها دفعته عنها ضاحكة وصرخت رفيقاتها وتدخلن للتفريق بينهما. وقالت إحداهن:

ما هذا أيها المواطن الملازم؟ إننا هنا لسنا نساء، بل نحن جنود في جيش بونابرت وما دمنا لم نخلع بعد هذا الزي العسكري، فإنه لا يسمح لأحد بأن يمسنا بيده!

فنهض فوريس كئيبا كسير النفس، إلى حد أن بليلوت نفسها أشفقت عليه. فقالت له وهي تضحك ضحكة كلها وعود وآمال:

صبرًا يا عزيزي جان!. إنها لحظة مرة سوف تنقضي.. وهناك بعد وصولنا. سنعوض ما أضعناه من وقتنا!.

فرد عليها قائلا:

لا بأس، ما دمنا سنعوض ما فاتنا هناك!

وقد نطق الكلمة الأخيرة متلعثمًا في صوت خافت كأنه شعر في قرارة نفسه بأن السعادة التي يحلم بها لن تتحقق هناك!!..

مياه.. ثم رمال

زمجر الجندي الذي كان يسير أمام بليلوت، ثم صاح ساخطًا:

لن نصل أبدًا إلى نهاية الطريق!

ورد عليه الجندي الذي كان يسير خلفها قائلا:

طبعا لن نصل، لأنهم اعتزموا هلاكنا جميعا في هذه الصحراء!

وكان الملازم فوريس يسير بجانب زوجته ويسندها من ذراعها، فأوشك أن يتدخل باسم النظام. ولكن بليلوت منعته من ذلك. ثم ضحكت ضحكة كانت في ذلك الجو المحرق، أعذب من العين الصافية وخاطبت الجنود قائلة:

أي رجال أنتم؟. لماذا تتعبون أنفسكم بمثل هذه الأحاديث المتخاذلة اليائسة وتكادون تبكون كالنساء؟ أتراهنونني على أننا سنصل قريبا، وأنه لن يهنك منا أحد في الطريق؟

فأجابها قريبا، واحد منهم قائلا:

إنك أيتها المواطنة بليلوت تمزحين دائمًا حتى لو كنت في الجحيم!. وإذا كنا نبدو كالنساء كما تقولين، فإنك والحق يقال تتحدين الأخطار حتى لكأنك شيطان.

والواقع أن ما أظهرته بليلوت من رباطة الجأش والاستهانة بالتعب

والخطر وهي تسير مع جنود الحملة في الطريق إلى القاهرة. لم يكن إلا بفضل إيمانها القوي بالمستقبل الذي ينتظرها، وبأن تتطور العاقبة مهما تكن شديدة قاسية، فإنها في النهاية لا بد أن تتطور لمصلحتها وقد تجلي إيمانها هذا منذ إصرارها على مصاحبة زوجها في تلك الحملة متنكرة في زي جندي، كما تجالى بعد ذلك في كل يوم خلال الشهرين الكاملين الذين انقضيا منذ إبحار الأسطول من ميناء طولون

كانت سفن الأسطول تتعمد السير في بطء وقد غيرت أكثر من مرة طريقها المرسوم تنفيذًا لأوامر القيادة، لتمكين القوافل المتفرقة من الالتقاء والسير في قافلة واحدة ولم يكن هذا البطء في مصلحة الأسطول، فأقسم قائده الأميرال نلسون، ليقطعن الطريق على أسطول بونابرت وليدمرنه تدميرا..

وكان من حسن حظ بونابرت أن أفلت أسطوله من مطاردة الأسطول الإنجليزي ولكن رجال الحملة الفرنسية كانوا يعانون الأمرين من شدة الإعياء والحرمان. فالمواد الغذائية التي معهم كان أكثرها فاسدًا تعافه نفوسهم ومياه الشرب لم تكن متوافرة لديهم وكذلك الخمور وتبرمهم بالازدحام الذي يعانون على ظهر سفنهم ومللهم طول البطالة.

أما بليلوت، فظلت محتفظة بابتسامتها وتفاؤلها وأخذت تشجع رفيقاتها اللواتي بدأن يظهرن الندم على مغامرتهن بمصاحبة الحملة وانقطعن عن التحدث في شؤون الأزياء.

فارس من المماليك

وهكذا تشجع زوجها، فأخذ يكثر من زيارتها في غير حذر كثير، وما لبث "جاكرمان" وبعض الضباط الآخرين أن علموا بأمرها منه، فأخذوا يترددون إليها، ليستمعوا لحديثها.

وأخيراً، وصل الأسطول الفرنسي في العاشر من شهر يونيو إلى جزيرة مالطة، فدب النشاط قليلا في الجنود واستعدوا لخوض القتال ولكن حماستهم ما لبثت قليلًا حتى تبخرت؛ لأن رئيس جمعية الفرسان صاحب الجزيرة سرعان ما آثر الاستسلام بعد الطلقات الأولى[1]، فاحتل بونابرت الجزيرة وضمها إلى الجمهورية الفرنسية ثم زود سفن أسطوله منها بالمؤن وأقلع منها على إثر ذلك، بعد أن ترك فيها حامية صغيرة واستأنف بأسطوله شق الطريق إلى الشرق وما لبث الجميع أن تبينوا أن هدف الحملة الأول هو الاستيلاء على مصر لطرد الأتراك والمماليك وتثبيت أقدام فرنسا في طريق الهند والشرق انتقامًا من الإنجليز.

كانت مصر في ذلك الحين خاضعة في الظاهر بحكم السلطان العثماني، ولكنها في الواقع أشبه بمزرعة يستثمرها المماليك على طريقة الحكم في العصور الوسطى، فهم يستغلون أهلها ويستأثرون من دونهم بكل خيراتها.

---

(1) كانت جزيرة مالطة في ذلك الوقت ملكا لجمعية فرسان مالطة العسكرية الدينية، وكان رئيس الجمعية يدعى "هومبيش" وهو الذي سلم الجزيرة إلى الفرنسيين في إلىو التالي لوصول أسطولهم إليها في ١١ يونيو ١٧٩٨

راح رجال الحملة يطلقون الأعنة لخيالاتهم ويحلمون بمملكة ساحرة على طراز المماليك التي تتحدث عنها أقاصيص "ألف ليلة وليلة"؛ أي مملكة تكتنفها الظلال وتكثر فيها الفاكهة والأزهار والعطور والحسان السمراوات!

وأنعشت هذه الأحلام نفوس الجنود الأخيرة من الرحلة التي استغرقت نحو عشرين يوما وظل الحظ يبتسم لبونابرت، فأفلتت سفنه مرة أخرى من مطاردة نلسون الذي كان يبحث عنها غربا عندما أطلت على الإسكندرية في الثالث عشر من شهر مسيدور أي في أول يوليو.

وتنفس الجنود الصعداء ودبت فيهم الحماسة مع نشوة الظفر ولكن حماستهم ما لبثت قليلا حتى فترت، وراحوا يتهامسون متسائلين: أهذه مملكة ألف ليلة وليلة؟ هذه السواحل المنخفضة والرمال الصفراء الشاسعة التي لا تنبت فيها شجرة واحدة!؟

أما بولين فوريس، فظلت تحتفظ بمرحها وتفاؤلها وتقول بلهجة التوكيد:

سيتغير كل شيء بعد نزولنا إلى البر!

وبدأ النزول إلى البر في صباح اليوم التالي. لكن الأوامر صدرت بنزول ثلاث فرق فقط من فرق المشاة لاحتلال الإسكندرية. أما رجال السفينة "لافرنجانت"، وهم جميعا من الفرسان، فظلوا فيها ريثما يستولي المشاة على المدينة.

وفي مساء اليوم نفسه كفت المدافع عن قصفها، إذ جاء النبأ بسقوط المدينة واحتلالها، فدخلت السفن التي تحمل الفرسان والمعدات

والمؤن إلى المرفأ وفي الصباح نزل من فيها إلى البر وشد ما خابت آمالهم إذ وجدوا الإسكندرية التي حسبوها مدينة آهلة بالقصور الفخمة والنعيم العظيم، ليست في الواقع سوى مجموعة من البيوت الصغيرة تتخللها أروقة ضيقة وشوارع مقفرة ولا أثر فيها لأحد من الأهلين![1].

وسرعان ما صدرت الأوامر بمتابعة السير في طريق القاهرة. ولم يكن في السفن غير عدد قليل من الخيول، إذ كان الجنرال بونابرت قد رأي أن يستكمل عدة فرسانه في البلاد التي يدخلها فلم يكن بد لمعظم الفرسان، ومن بينهم فرسان الفرقة الخفيفة وكتيبة القناصة الثامنة والعشرون التي ينتمى إليها فوريس من السير مشيا على الأقدام مع حمل معداتهم وسروج خيولهم على أكتافهم وكان ذلك في ليل اليوم الخامس من شهر يوليو. ولم يكن على بليلوت إلا أن تتولى حمل نفسها وقبعتها المصنوعة من الجلد وثوبها العسكري الأخضر الذي رفضت أن تخلعه، فقطعت المرحلة الأولى وهى حوالى أربعة فراسخ، محتفظة بمرحها ونشاطها وابتسامتها ولكن فوريس أحس خيفة من عدم استطاعتها تحمل قطع المراحل الأخرى وكان يخشى في الوقت نفسه أن يتركها في مؤخرة الجيش، فسألها قلقًا مضطربًا:

ما رأيك أيتها العزيزة؟ إن المراحل الباقية من الطريق أكثر مشقة فيما يظهر وربما يتعذر عليك احتمال قطعها ماشية.

---

(١) لم يكن سكان الإسكندرية في آخر القرن الثامن عشر يزيدون على ستة ألاف نسمة. فقد تدهورت من جميع الوجوه بسبب سوء تصرف الحكام المماليك أو الأتراك. وتولى الدفاع عن الإسكندرية زعيمها مُحَمَّد كريم بشجاعة وإقدام. ولكنه أضطر إلى التسليم بعد معركة حامية، وقد دخل الفرنسيون الإسكندرية من "باب رشيد"

وشد ما كان عجبه وإعجابه إذ أجابته في لهجة الواثقة المطمئنة، قائلة:

سأقوى على اجتياز الطريق مهما يكن شاقا طويلا وسأثبت لك أنني أوفر نشاطًا وشجاعة مما تظن، فما زلت عند قولي لك في كركاسون: "إنني معك ولن أفارقك وحينما تذهب سأذهب!"

وبرت بليلوت بعهدها، فقد قطعت المراحل التالية كما قطعت المرحلة الأولى، لم تشك من شيء، بل ظلت محتفظة بمرحها. وكلما ساءت روح رفاقها المعنوية، بثت فيهم من روحها القوية المرحة، بدعابة تضحكهم أو ضحكة تطربهم، فاشتدت عزائمهم وعاودهم الأمل والنشاط.

والحق أن سلوك بولين فوريس خلال هذه المرحلة التاريخية المضنية كان جديرًا بالإعجاب، فقد كان على الجنود، وهى معدودة منهم، أن يقطعوا مسافات طويلة في سبل غير واضحة وكثيرا ما كانت أقدامهم تغوص في رمال كثيفة، فلا يقتلعونها إلا بمشقة، فضلا عما كانوا يعانونه من شدة القيظ، إذ تلفح أشعة الشمس وجوهم ويتصبب العرق من أجسامهم وتجف حلوقهم وهم يمشون مثقلين بأحمالهم، في أرض جرداء ليس فيها شجرة واحدة يستظل بها!

وكان في بعض هذا ما يجعل اليأس يستولي على نفوسهم، ولكن كان هناك ما هو أدهى وأمر، فكثيرًا ما كان الظمأ يشتد بهم وهم يضربون في صحراء دمنهور الشاسعة، دون أن يجدوا قطرة ماء!. وفي بعض الأحيان كانت الأقدار تسوقهم إلى بئر في الطريق، فلا يكادون يزدحمون حولها

ويأخذون في إطفاء ظمئهم من مائها الراكد العكر، حتى ينضب ماؤها فلا يجد أكثرهم غير الطين، بل كثيرًا ما كانوا يفاجأون بالرصاص ينهال عليهم في الظلام من حيث لا يحتسبون!

وكانت قوافلهم تسير متفرقة، لا تعلم أحداها شيئا عن القافلة التي سبقتها أو التي خلفها ولا تدرى إلى أين تسير ولا متى يستقر بها المقام أو تشتبك في القتال!

وكانوا كثيرا ما يتساءلون وهم يمشون جاهدين، متألمين، لاهثين: "أين ذهب رجال الكشافة الراكبون؟ وماذا حدث للفرق التي تقدمت إلى القاهرة؟. وأين هو الجنرال بونابرت الآن؟"

ومن وقت لآخر، كان يمر بالقافلة ضابط سعيد محظوظ، على متن جواده؛ فيصيح بأفرادها قائلا:" تشجعوا..!" ثم يمضي في طريقه لا يلوي على شيء!

وهنا، كاد ينفذ صبر الرجال الذين أجهدهم المشي والعطش والجوع وسرعان ما تنطلق الكلمات النابية من أفواههم بلا حساب!.

وكان القدماء من الضباط أشدهم حنقا وسخطا على نظام الحملة وطالما رددوا قولهم:

إنهم يقودوننا والقائد العام معنا إلى الهلاك. إن (الحمير) باعوا أنفسهم لحكومة الديركتوار وهم الذين ساقوا بونابرت إلى هنا للتخلص منه!

وكانوا يعنون بالحمير علماء الحملة الذين اصطحبهم بونابرت فيها،

إذ كان هؤلاء يصحبون قوافل الحملة ممتطين ظهور الحمير، وحدث مرة أن التقى الجنرال "كفاريللى" بالقافلة التي فيها بولين فوريس، فهتف بأفرادها قائلا:

تشجعوا.!. إن الساعات العصيبة، كالساعات الحلوة، لا تدوم طويلًا!..

وهنا رد عليه أحد جنود القافلة بتلك الكلمات التي تناقلها الناس فيما بعد، وقد تكون بولين فوريس هي التي فاهت بها، فقالت له:

إن لك أن تقول هذا طبعًا أيها الجنرال المواطن؛ لأن لك قدمًا هنا وقدمًا في فرنسا!

والجنرال كفاريللى هذا، بطل من أبطال الحروب، أصيب مرة بجرح في قدمه؛ فبترها الجراحون وصنعت له بدلا منها قدم من الخشب. وكان كثير العناية بالجنود وبتوفير أسباب الراحة لهم بقدر ما تسمح به الظروف وكان الجنود يحبونه لذلك ويحترمونه.[١]

وأخيرا، وصلت القافلة إلى دمنهور وهي واحة خضراء في قلب الصحراء الشاسعة، فيها آبار كثيرة ومياه عذبة، فشرب الجنود واغتسلوا وأقاموا بها أربعة أيام كاملة للراحة والاستجمام.

وكان طبيعيا أن يتجلى مرح بليلوت في هذه الفترة أشد منه فيما مضى وأن يجد سبيله ميسرًا إلى نفوس بقية الرفاق.

---

(١) تعنى بولين بالقدم "التي في فرنسا" القدم التي قطعت وتركها كافاريللى في فرنسا وصنعت له بدلا منها قدم خشبية، وكان المصريون يسمون كافارلايلللى: "يللى كفر!"

ثم تضاعف المرح والابتهاج، إذ أشفقت القيادة على فرسان الفرقة الخفية من عناء المشي وحمل الأثقال، فقررت نقلهم إلى مراكب تصعد بهم في النيل، كما تنقل مدافع الحملة ومعداتها. وفي اليوم التالي، أقلعت بهم المراكب المصرية ليلًا من هناك ومضت تتهادى على صفحة النيل في اتجاه القاهرة.

لم تنته متاعب القافلة التي ضمت بولين وزوجها بذلك التبدل الكبير الذي طرأ عليها منذ وصولها إلى دمنهور، فما كادت السفن تمضي بها في النيل حتى برزت فجأة، عند أحد منحنيات النهر؛ مجموعة من المراكب يقودها المماليك؛ وفي الوقت نفسه ظهرت على الضفتين، جماعات من الأهلين المسلحين!

ونشب القتال وقصفت المدافع من الجانبين وتلاقت القنابل فوق السفينة التي كانت فيها بولين فوريس ولم تكن قد شهدت من قبل أي معركة حربية. لكنها لم تفزع ولم تجزع، وحينما أمسك زوجها ذراعها ليشجعها أثناء المعركة، أخذه العجب لرباطة جأشها وثباتها ومحافظتها على ابتسامتها، رغم ما يحدق بها من الأخطار!

وأسفر القتال عن هزيمة المماليك، ولكن السفن التي كان الفرنسيون يستقلونها أصيبت بأضرار جسيمة، فاضطر فريق الفرسان إلى النزول ثانية إلى البر ومواصلة السير مشيا على الأقدام!

وكان بونابرت قد ابتكر خطة جديدة لمقاومة الجماعات المسلحة التي كانت تداهم الحملة في الطريق إلى القاهرة، وتلك هي خطة

"المربعات"؛ فكان الجنود من المشاة والفرسان عندما يداهمهم المماليك، ينتظمون في مربعات تواجه الهجمات من جميع الجهات.

على أن القافلة التي بها بولين، لم تجد عناء يستحق الذكر في قطع المراحل الباقية من الطريق، ففي هذه المرة كانت تمشي في أرض الدلتا الخصبة وكان الفرسان قد تركوا أحمالهم في المراكب التي واصلت السير في النيل، ومن وقت لآخر كانت بولين تهتف برفاقها فرحة مهللة!

أرأيتم أيها الرفاق؟ أما كنت على حق حين قلت لكم: إن شقاءنا سيقف عند حد؟ إننا لن نرى بعد الآن إلا أيامًا حلوة جميلة!

والواقع أنهم جميعا كانوا يشاركونها المرح والتفاؤل ونسوا في صحبتها ما قاسوه في الأيام الماضية من عذاب وحرمان، واعتقدوا أن وجودها بينهم كان من أهم عوامل نجاتهم وابتسام الحظ لهم.

غير أن القافلة لم تصل إلى القاهرة في الموعد المنتظر، فقد أنفقت عشرة أيام في قطع الأميال المعدودة الباقية وكانت الأوامر تصدر إليها متتابعة، فتضطر إلى تغيير وجهة سيرها من حين إلى حين وتبيت حيث تقودها الظروف، ولا علم لأفرادها بشيء عن سير الحوادث حول العاصمة، ولهذا كانوا يتساءلون دائمًا:

ماذا حدث هناك؟ وماذا يصنع بونابرت الآن؟

ولم يكن في وسع أحد منهم أن يجيب عن هذه الأسئلة.

وفي صباح اليوم الخامس من شهر ترميدور (الثانى والعشرين من شهر

يوليو) جاءت الأنباء إلى القافلة بأن الجيش الفرنسي انتصر في اليوم السابق في معركة فاصلة دارت رحاها في سفح الأهرام وهزم قوة كبيرة كان يقودها إبراهيم ومراد، زعيما المماليك.[1]

وأنشأ الذين لم يسعدهم الحظ بالاشتراك في هذه المعركة، يضفون عليها هالة من الخيال ويناقلون فيما بينهم أن الجنرال بونابرت وقف في جنوده خطيبا قبل نشوب المعركة، قائلا لهم:

أيها الجنود! اذكروا أن أربعين قرنا تنظر إليكم من أعلى هذه الأهرام!

لكن هل فاه بونابرت حقا بهذه العبارة الرائعة؟

ليس هناك أي دليل على ذلك؛ فقد ثبت الآن أن بونابرت، يوم انتصاره في معركة الأهرام، لم يخطب في جنوده ولم يوجه إليهم أي نداء، غير أن تلك الأسطورة راجت أيما رواج ولا يعلم أحد من أين جاءت ولا من الذي ابتكرها، وكان جنود بونابرت في حاجة إلى الأساطير وفرسان الفرقة الخفيفة كانوا أكثر حاجة إليها من غيرهم، وهم الذين كانوا لا يزالون يعانون المشقات في دلتا النيل.

وأخيرا، صدر الأمر إلى القافلة في يوم ٢٩ يوليو باستئناف السير لقطع الفراسخ الاثنى عشر الباقية حتى القاهرة، فاجتازت القافلة نصف هذه المرحلة في اليوم الأول، ثم استأنفت سيرها في فجر اليوم التالي. فلما مضت أربع ساعات دون أن تلوح القاهرة لأفرادها. دب فيهم الملل

---

(١) دارت رحى هذه المعركة؛ في الواقع؛ خلف بلدة امبابة لا عند الأهرام وأن عرفت بمعركة "الأهرام" وقد أبدى فرسان المماليك فيها شجاعة فائقة.

والتبرم؛ وأخذ كثير منهم يرددون قولهم:

لن نصل إلى القاهرة أبدا! إنهم يقودوننا إلى الهلاك في هذه الصحراء!

أما بولين، فكانت تؤمن في قرارة نفسها بأن الرحلة الطويلة قد انتهت وأن حياة جديدة ستبدأ قريبا.

وقد نبتت في صدرها رغبة قوية في أن ترى بونابرت، ذلك القائد الظافر المحظوظ الذي لم تقع أنظارها عليه بعد، بل كان يشاركها في ذلك بعض الضباط وفي مقدمتهم زوجها فوريس وزميله الشاب جاكومان على أنهم جميعا كانوا يتحدثون عن بونابرت في إعجاب شديد وكانوا يجلونه إلى حد التقديس.

وأخيرا، شقت الفضاء صيحات فرح عالية، فقد لاحت القاهرة رابضة على ضفاف النيل؛ بمآذنها المرتفعة في الفضاء وقبابها المموهة بالذهب وسطوحها البيضاء وحدائقها التي خيل إلى الجنود أنهم يستنشقون عبيرها الفواح!

ولم تصرخ بليلوت مثل رفاقها؛ بل راحت تنقل نظراتها بين مناظر القاهرة التي تزداد وضوحا كلما اقتربت منها؛ وبين الفرسان والضباط المنتشرين في ضواحيها جائلين بعد أن دخلوها فاتحين. كانت تبحث بينهم عن الوجه الذي ترغب في أن تراه.

ومرت ساعة أخرى قبل أن تصل القافلة إلى الباب المؤدي إلى المدينة، من خلال الأسوار العالية التي تحيط بها، وكان الجنود على أهبة اجتياز الباب، عندما خرجت منه كوكبة من الفرسان ممتطين جيادهم

المطهمة وتناقلت الألسنة عبارات لم تفطن إليها بولين في بادئ الأمر، فقد مر الفرسان وسط الغبار مسرعين، ثم سمعت أحد رفاقها في فرقة القناصة يقول لزميل له:

إنه هو!

وسمعت ذلك الزميل يرد قائلا:

نعم؛ أنه هو بعينه.. لقد عرفته.. هو القائد العام!

وأحست بليلوت بأن خفقان قلبها يزداد وأنه يؤلمها أكثر مما آلمها في ذلك اليوم الذي شهدت فيه المعركة الأولى، فالتفتت إلى الوراء وراحت تتطلع إلى أولئك الفرسان وهي تقف على اطراف قدميها. لكنهم كانوا قد ابتعدوا، فلم يتح لها إلا أن تلمح من بعيد، في مقدمة الحرس والضباط ذوي الأزياء الباهرة، فارسًا قصيرا، هزيلًا، شاحبًا، يرتدي ثوبا أسود ويمتطي متن جواد عربي أشهب...

وكان هذا الفارس الجنرال بونابرت!

في الحسينية

كان الملازم الثاني جاكومان مثال الموظف المجد الذي يحرص على القيام بواجبات وظيفته متوخيًا الدقة والإتقان، وكان برغم وسامته ورقته الملحوظتين ضابطًا باسلًا لا يجاريه أحد في الشجاعة والإقدام، إذ جد الجد ودعا الداعي إلى امتشاق الحسام وبقي طوال الرحلة يكتم سر غرام حديث كان قد تمكن من قلبه. وكلما هم بالاعتراف لبعض الأصدقاء الأوفياء، غلب عليه حياؤه فآثر الكتمان على أنه فيما بعد لم يجد حرجًا في أن يتخفف من عناء ذلك الكبت؛ ويبث ذات نفسه لزميله جان فوريس وزوجته بولين، ولا سيما بعد أن توطدت صداقته بهما على ظهر السفينة لافرنجانت وفي الطريق إلى القاهرة، ثم بعد إقامتهم بها

وكان فوريس الطيب القلب يصغى باهتمام إلى أحاديث زميله الشاب دون أن يعلق عليها بشيء. أما زوجته بولين، فكانت من وقت لآخر تقطع حديث جاكومان لتستوضح بعض الأمور أو لتلقي إليه بعض النصائح.

وهكذا مضى جاكومان ينتهز كل فرصة تواتيه ليزور الزوجين الصديقين ويكرر على مسامعهما تلك القصة الغرامية التي ملكت حواسه واستأثرت بمشاعره ولم تلهه عن ذلك تلك الأحداث الخطيرة التي تخللت الشهرين اللذين انقضيا منذ استقرت الحملة في مصر.

وكان أهم تلك الأحداث، ما وقع في الرابع عشر من شهر ترميدور

(أول أغسطس سنة ١٧٩٨)، إذ فاجأ الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال نلسون أسطول بونابرت الراسي في خليج أبي قير بقيادة الأميرال بروي واستطاعت بعض السفن الإنجليزية أن تدور حول السفن الفرنسية، فوقعت هذه بين نارين وأخذ التدمير المفاجئ ينزل بها كالصاعقة وانفجرت سفينة القيادة "أوريان" وقتل الأميرال بروي بقنبلة مباشرة وحاول الأميرال فيلنوف، قائد الجناح الأيمن للأسطول الفرنسي، أن ينجوا بالسفن الباقية من الأسطول؛ لكنه لم يستطع إلا إنقاذ أربع سفن فقط تسلل بها من المعركة إلى عرض البحر حيث واصلت فرارها حتى مالطة. وما أقبل الليل، حتى كان الأسطول الذي حمل جيش بونابرت إلى مصر لم يبق له أي أثر وبات الجيش كله أسيرًا في البلاد التي فتحها!

ووصل نبأ الكارثة إلى القاهرة، فساد الوجوم والذهول جميع من فيها من القوات الفرنسية ولكن بليلوت تلقت الصدمة كعادتها رابطة الجأش، مستسلمة للأمر الواقع ومشيئة القضاء والقدر، مؤمنة في الوقت نفسه بأن هذه الكارثة لن تؤثر في سعادتها الخاصة وفيما تطمح إليه من مستقبل ناضر بسام!

أما بونابرت، فكان موقفه عظيمًا حقًّا وواجه الكارثة بما عهد فيه من حزم وعزم وثقة بالمستقبل، ومضى ينفخ من روحه العبقرية القوية في نفوس رجال حملته، قائلًا:

حسنا! إن هذا الذي حدث لأسطولنا، سيحملنا ولا شك على أن نقوم بأعمال عظيمة!

وحينما لمح اليأس في وجوه من حوله، راح يهون عليهم الأمر ويحيي في قلوبهم الأمل، بقوله:

نعم، إننا الآن معزولون عن الوطن ولا سبيل إلى إقامة مواصلات أمينة بيننا وبينه وهذا ما يوجب علينا أن نعمل لكي نكفي أنفسنا. إن مصر مليئة بالخيرات وفي استطاعتنا أن نجعل منها دولة عظيمة، كما كانت في الأزمنة الغابرة، بل في استطاعتنا أن نضفي عليها ما يجعلها أعظم بفضل المعارف الحديثة وما هناك من فوائد كثيرة مختلفة للعلوم والفنون والصناعات. ليس هناك حدود لا يمكن بلوغها أو نتائج لا يمكن الحصول عليها!

وراح القائد العبقري يتبع القول بالعمل، فلم تمض على كارثة أبي قير ثمانية أيام حتى بدأ ينفذ خطته، فأنشأ في القاهرة "المجمع المصري" على غرار "المجمع الفرنسي" وجند للعمل فيه العلماء الذين جاء بهم معه من طولون، وفي مقدمتهم: برتوليه العالم الكيميائي وجوفروا سانت إيلير العالم الطبيعي وفوريه العالم الرياضي وديجنيت ولاري الطبيبين وجوبير المستشرق وجومار الجغرافي، وغيرهم من المهندسين والكتاب والفنانين، برئاسة "مونج" العالم الرياضي المشهور.

وعنى بونابرت بوضع الأنظمة واللوائح لهذه المؤسسة كما عنى بتوجيه نشاطها وتزويدها بإرشاداته. فكان على العلماء أن يعملوا لإعلاء شأن العلم والفن وفي الوقت نفسه يتعاونوا مع الجيش لإحياء دولة الفراعنة العريقة!

وبدأ العلماء ورجال الجيش تحقيق هذه المشروعات وسرعان ما أقيمت الثكنات ومصانع الأسلحة والمستشفيات والأفران والطواحين ومعامل التكرير وغيرها في أنحاء مصر، فدبت الحياة في أوصالها وانتعشت اقتصادياتها واطمأنت الحملة الفرنسية إلى أنها لن تحتاج إلى أي مساعدة من الخارج ولن يضرها انقطاع المواصلات بينها وبين فرنسا، وحرص بونابرت في الوقت نفسه على اجتذاب المصريين واكتساب عطفهم وولائهم، فأصدر إلى كل أفراد الحملة أوامر مشددة تفرض عليهم أن يحترموا دين أهل مصر وعاداتهم بكل الاحترام وضرب لهم في ذلك أحسن الأمثال، فجعل يشترك في الحفلات الدينية أو الإسلامية. وفي أول شهر فروكتيدور، أي في ١٨ أغسطس، أمر ضباط أركان الحرب والجيش بالاشتراك في عيد وفاء النيل، فساد القاهرة في ذلك اليوم جو حافل بالفرح والمرح وتوثقت الروابط بين سكان البلاد والقادمين إليها من فرنسا.

ونظم الفرنسيون معيشتهم كأنهم حامية عسكرية في مدينة كبيرة، فتعاقبت حفلات العرض وسباق الخيل خارج الأسوار وقد توافرت الخيل لفرسانهم بفضل الأسلاب التي خلفها المماليك بعد هزيمتهم.

وسرعان ما تغير مظهر القاهرة بفضل العناية الخاصة التي وجهت إلى شوارعها والحوانيت الجديدة التي أنشئت فيها لعرض البضائع والسلع المختلفة. كما أنشئت فيها المقاهي والملاهي وأصدر الجيش صحيفتين وأخذت فرق الموسيقى تعزف في الميادين كل عشرة أيام.

ولم تعد الزوجات والخليلات اللواتي جئن خلسة مع الجيش يحاولن

الاختباء، فقد اشترين أو استأجرن بيوتًا أقمن بها على الطريقة الشرقية ورحن يتبادلن الزيارات ويخرجن إلى الشوارع والميادين والحدائق مع أزواجهن أو عشاقهن!

وكذلك صنعت بليلوت، فقد نظمت حياتها وفقًا للظروف الجديدة مثل رفيقاتها وكانت القيادة قد حددت حي بولاق لترابط فيه كتيبة القناصة الثانية والعشرون ولكن هذا الحي، برغم وقوعه على النيل ووجود كثير من الحدائق والحوانيت فيه، كان بعيدًا عن قلب العاصمة حيث تتوافر أسباب اللهو والتسلية. ولهذا وقع اختيار فوريس وبليلوت على بيت جميل منعزل في الحي الحسيني يشتمل على بضع حجرات وألحقت به حديقة صغيرة وقد ترك فيه صاحبه القبرصي الذي هجره مجموعة من السجاجيد وبعض الأرائك والمناضد الصغيرة المعدة لتناول القهوة.

وقنعت بليلوت بذلك المنزل في انتظار أيام أسعد وأوفر رغدًا واتخذت من حديقته وسطحه متنزهًا لها في ساعات الصباح والأمسيات المعتدلة الجو، حيث تملأ صدرها بالنسمات المنعشة وعطر الأزهار العبقة وتطلق لأحلامها العنان!

وقد حرصت على ألا يزورها أحد في ذلك المنزل؛ فهي توجس خيفة من رفاق زوجها ومن النساء أيضًا، فكانت تقبع في بيتها في انتظار عودة جان بعد فراغه من العمل قانعة بالساعات التي يمضيانها معًا في البيت أو خارجه. وكان جان ما يزال شديد التعلق بها، لم ينقص حبه لها شيئًا عما كان عليه في شهر العسل وكذلك كانت هي تبادله حبًّا بحب،

ظل الزوجان يرحبان بزيارته لهما في بيتهما، من وقت لآخر، وهو الملازم الثاني جاكومان وكان يبرز زياراته لهما دائمًا، بأنه لا يثق بأحد غيرهما وبأنه يجد أكبر العزاء في التحدث إليهما عن حبيبته البعيدة التي تركها في باريس!

توجه جاكومان ذات مساء لزيارة صديقيه جان فوريس وزوجته في بيتهما كعادته وكان السكون يخيم على حي الحسين؛ فأبواب المنازل مغلقة وليس في الطرقات حي يسعى، إذا استثنينا بعض الكلاب الشاردة!

ففتحته له صبية عربية ترتدي جلبابًا من الصوف الأبيض وأفهمته بالكلمات الفرنسية القليلة التي تعلمتها، أن سيدها غائب وليس في البيت سوى سيدتها.

ولم يكن في ذلك ما يدعو إلى تردد جاكومان في الدخول، فليس هو بالقريب على ربة البيت، فقادته الخادمة في ممر ضيق مسقوف إلى الحديقة الصغيرة، حيث كانت سيدتها جالسة كعادتها في انتظار مقدم زوجها.

وكانت بليلوت قد عادت إلى ارتداء الأزياء التي ألفتها في كركاسون ولكن افتقار البيت إلى المقاعد العالية، جعلها تقلد نساء الشرق في الجلوس أو التمدد على الأرائك والسجاجيد، فلم يدهش جاكومان إذ رآها في ضوء النجوم الساطعة وقد جلست في ناحية من الحديقة متكئة على بعض الوسائد الموضوعة فوق سجادة كبيرة ثمينة.

وما رأته داخلًا مع الخادمة، حتى هتفت بصوتها المغرد الحنون مرحبة به ومدت يدها لتحيته وهي تبتسم قائلة:

لقد أحسنت صنعًا بمجيئك الآن، فمنذ لحظات عاد جان إلى مكتبه تلبية لدعوة عاجلة ولست أعلم في أي ساعة سيعود. ولهذا كنت متبرمة بوحدتي هنا، ولكن حمدًا لله. فها أنت ذا قد أقبلت وأنك لنعم الجليس الأنيس وسأحتفظ بك أسيرًا حتى يعود جان وينقذك من الأسر!

فابتسم الضابط الشاب بدوره وانحنى أمامها في إجلال واغتباط، ثم أمسك اليد البيضاء المبسوطة له وضغطها مترفقًا متمتمًا بعبارات الشكر وجلس حيث أشارت له على كومة من الوسائد أمامها

ووقعت عيناه على ذراعيها العاريتين وصدرها المكشوف؛ في الوقت الذي سرت فيه إلى أنفه رائحة العطر المنبعث من أردانها ممتزجًا برائحة الورد والنعناع والريحان وغيرها من أزهار الحديقة، فشعر باضطراب لم يدرك سببه أول الأمر، وقال في صوت مرتعش ينم عن الخجل والارتباك:

أخشى أن أكون مزعجًا بزيارتي أيتها المواطنة!

فنظرت إليه معاتبة، ثم تنهدت وقالت:

أمثلك يكون مزعجًا؟ كلا أيها المواطن، بل على عكس تمامًا، وإذا كان هناك ما آخذه عليك، فذلك أن زياراتك لنا قليلة قصيرة دائما، في حين أني أود من كل قلبي أن أراك أكثر من ذلك، خصوصًا في السهرات التي أقضيها وحدي فريسة الوحدة والملل!

ثم تنهدت مرة أخرى وواصلت حديثها وهي ما زالت تحدقه بنظراتها المعاتبة، فقالت:

إنك تعجبني ويسرني أن أتحدث معك فيما يشغل قلبك ولست أعتقد أن هناك من هو أجدر بالإعجاب من شاب مثلك رقيق الشعور، مخلص في الحب، لا ينسى حبيبته!

وسره أن تكون هي البادئة بالحديث الذي يشغله وزايله ارتباكه فشكر لها جميل عطفها وتقديرها، ومضى على سجيته يحدثها عن حبيبته، فقال:

تصوري أيتها المواطنة. لقد رأيتها في الليلة الماضية، نعم رأيت هنا "لوسيل" الحبيبة التي تركتها في باريس، ولكن مع الأسف كان حلمًا لا حقيقة!

ثم مضى في حديثه، معيدًا على سمع بليلوت تفصيلات قصة غرامه وكيف بدأت خلال إجازة قصيرة بين حربين أمضاها في باريس، أثناء الشتاء الماضي وهناك نعرف إلى "لوسيل" وكانت دون العشرين، ولكنها مع ذلك أرملة، فقدت زوجها النبيل السابق أثناء الثورة وسرعان ما أحبها وأحبته وأمضيا معًا ساعات لذيذة، غير عابثين بمقتضيات الحياة ومستوياتها ثم تعاهدا على الزواج ولكنهما لا يملكان شيئًا ولا يسعهما الاعتماد على المرتب الضئيل الذي يتقاضاه من الجيش. وعلى هذا، اتفقا على الانتظار ربما يرتقي إلى رتبة أعلى يكفي مرتبها لحياة زوجية سعيدة، ثم سنحت له الفرصة حين شرع بونابرت في تأليف حملته، فسارع إلى الالتحاق بها ورافقته لوسيل إلى طولون حيث أقسمت مرة أخرى، وهي تقبله قبلة الوداع؛ لنحافظن على العهد وتظل مخلصة وفيه وبادلها قسمًا بقسم!

ولم تكن بليلوت تجهل شيئًا من هذا كله، فقد سمعته وزوجها غير مرة من جاكومان وكانت في المرات الماضية تصغى إليه بعقلها، فترثى لحاله وتعذره، إذ يستغرق في التحدث بجمال لوسيل وفضائلها وكلماتها ووعودها. أما في هذه الليلة فكان لكلماته عن حبيبته الغائبة وقع آخر على قلبها وكانت تجاهد نفسها لتتابع الإصغاء إليه دون أن يلحظ ضيقها وتبرمها. على أنه لم يفطن إلى ذلك، فانطلق في حديثه وأخذ يقص عليها الرؤيا التي جمعته بلوسيل الحبيبة وكأنما خيل إليه أنه يراها ماثلة أمامه، فاشتدت حماسته ونسي نفسه وما حوله متصورا أن حبيبته هي المستلقية بجانبه في ضوء النجوم بين حفيف أوراق الأشجار ونفحات الأزهار وتغريد الأطيار!

وللمرة الأولى منذ زواج بولين، أحست في نفسها رغبة قوية في الاستئثار بقلب الضابط الشاب الوسيم، فراحت تتخذ في استلقائها أوضاعًا مغرية مثيرة تكشف عن مفاتن جسدها البض المكتنز ومن حين لآخر ترسل من التنهدات والنظرات والضحكات ما يكفي بعضه لبلوغها ما تريد وفوق ما تريد!

على أن هذا كله لم يؤثر التأثير المراد في قلب جاكومان، فمضي مسترسلًا في حديثه عن حبيبته لوسيل. دون أن يبدو منه ما ينم عن تحرك إحساسه نحو بليلوت المستلقية بجانبه في سكون الليل وفي تلك الخلوة المثيرة...

ونفذ صبرها أخيرا، فقطعت حديثه فجأة وقالت له باللغة العربية التي

تعلمتها من خادمتها كلمات منها:

عجيبة!.. أهكذا كان الأمر؟!

وسكتت لحظة ثم قالت له جادة:

حقًّا، إن قصتك لتثير الشجون في النفس كل من يسعمها ولكن المسألة ليست مسألة شجون تثار. فإن مستقبلك كله في كفة الميزان الآن!

فدهش الشاب لهذا القول، وسألها:

ماذا تعنين؟

فشعرت برغبة قوية في إثارة مخاوفه، واستطردت قائلة:

هل فكرت في الحالة التي أنت فيها؟!

وبغت الضابط الشاب، فإنه لم يكن ينتظر قط أن تعلق على حديثه بمثل هذا السؤال.

لقد كان في المرات الماضية، إذا حدثها وزوجها عن لوسيل، لا يسمع منهما إلا عبارات التأييد والتشجيع وكانت بولين خاصة تصغى إليه باهتمام وتقره على أقواله وتشجعه على البقاء على عهده، لكنها في هذه المرة، ثم تتفوه بأي كلمة من كلمات التشجيع، بل تفاجئه بالسؤال عن موقفه من الحالة التي هو فيها!

فماذا تراها تعني بهذا السؤال؟

ولم تخف حيرته على بليلوت، فاستأنفت كلامها في صوت هامس

وقالت:

إننا محرومون كما تعلم من السفن التي لا بد منها لإعادتنا إلى فرنسا ويخشى علينا جميعًا أن نضطر إلى البقاء في مصر سنوات عديدة وكل شيء يدل على أن هذه نية بونابرت. فهل أنت واثق من أن المسكينة لوسيل لن تيأس خلال هذه السنوات، فتبحث حولها عن رجل يعزيها؟!

وانتفض جاكومان وقال:

آه أيتها المواطنة! كيف تقولي مثل هذا القول؟..

إنني واثق من لوسيل بقدر ما أنا واثق من نفسي!

فبدرت من بليلوت حركة ساخرة، وقالت:

أحق ما تقول؟! إنك إذًا لساذج!

فزاد فلقه وسألها:

كيف.. ألا تصدقينني؟

فضحكت ساخرة وقالت:

إنني لا أشك في أن صاحبتك محبة مخلصة وفية. وكم كنت أود أيضًا أن أكون كذلك فيما يختص بوفائك أنت، ولكن هذه مسألة أخرى!

فحملق الشاب فيها مندهشًا وقال:

مسألة أخرى؟ إنني أقسم لك، فقطعت بليلوت حديثه قائلة:

لا... لا تقسم إن الرجل رجل وأنا أعرف الرجال جيدًا! وحينما

يكون الرجل في مثل سنك وفي مثل الظروف التي تحيط بك. بعيد عن الخليلة بلا أمل في لقاء قريب وفي بلد حار مثل هذا البلد، مفعم بالعطور، حيث الجو مثير للمشاعر...

ثم توقفت الحسناء عن مواصلة الكلام وأغمضت عينيها وأبرزت خصرها ورفعت ذراعيها العاريتين فوق رأسها وأطلقت من فمها ضحكة رنانة!

وارتبك جاكومان وشعر بشيء من الألم، لكنه راح يتابع بعينيه حركات الزوجة الشابة المستلقية على قيد ذراع منه وخيل إليه أنه لم يعرفها على حقيقتها إلا في هذه اللحظة.

وبعد سكوت طويل، قال محتجًّا:

إنه ليدهشني، أيتها المواطنة، أن أسمع منك هذا القول. فهل أنت حقا تشكين في الإخلاص لبعض المحبين وصدقهم؟ وكيف يكون ذلك منك أنت؟ أنت التي انعقد إجماع الجيش على أنك صورة حية للحب والوفاء؟!

فحدجته بليلوت بمؤخرة عينها! ثم تنهدت وقالت:

إنهم يقولون هذا! ولكن من أدراهم؟

فاشتدت دهشته وقال متلعثمًا!

كيف؟ أيكون ذلك غير صحيح؟

فاستبدلت بولين جفنيها متنهدة وهمست قائلة كأنها تحدث نفسها!

لكن.. ما الفائدة!؟

ثم اعتدلت فجأة، وقالت وفي لهجتها شيء من المرارة:

ليست هذه الحالة أوفر سعادة وأحلى إلى النفس من غيرها؟ فالزوجان الوفيان كثيرًا ما يكونان عرضة للملل والضجر والناس يهزأون منهما وقد لا يكون الناس مخطئين! وقد يحدث أحيانا دون أن يدرك أحد أن يميل الزوجان الوفيان إلى سلوك مسلك أقل!

ترى: هل كانت بليلوت صادقة في هذا التصريح الغريب المفاجئ؟ ربما! فإن عاملة كركاسون الصغيرة ثم تكن امرأة تتحلى بفضائل الرومانيات الشريفات، بل كانت امرأة مثل غيرها من النساء، تستمسك بأهداب الفضيلة لا عن شعور بالواجب، بل عن اضطرار لا اختيار، وقد اكتفت حتى ذلك الوقت بزوجها وبما حمله إليها الزواج من جديد مجهول.

ولكن الزوج والزواج فقدا مع الوقت في نظرها، قيمتهما وجواذبهما منذ وصولها مصر، رأت بليلوت وسمعت ولمست أشياء كثيرة كانت من قبل تجهلها ولم تكن التربية والحالة الفكرية في العصر الذي تعيش فيه، من الروادع الكافية لحمايتها من التجارب.

نعم، إنها لم تفكر قبل ذلك في الخروج عن جادة الواجب الزوجي ولكن الأقدار شاءت، في سكون تلك الليلة، أن تكون وحدها وأن يجلس جاكومان الشاب الوسيم الساذج بجانبها!

أما جاكومان، فقد أذهله ما سمعه منها وبقي حائرًا لا يريد أن يصدق ما سمعه منها، ثم قال:

أتعبرين حقا عما يجول في خاطرك؟ وهل يمكن ألا تثوري إذا علمت أن جان بدأ يفكر في أن يلقي بنفسه بين أحضان امرأة غيرك؟

فأجابته في هدوء قائلة:

لن يكون في وسعي أن أمنعه! وإذًا فخير لي أن أرضخ وأرضى بحكم القضاء!

وكأنما شجع هذا الجواب جاكومان، فسألها:

أيتها المواطنة ما يكون شأنك أنت لو حدث لك، مثلا، ما لا أريد أن أتصوره..

فقربت وجهها من وجهه، حتى شعر بأنفاسها الحارة العطرة ونظرت إليه مبتسمة وقالت:

كنت أقبله راضية، وأقول: "هذا ما كتب لي في صفحة القدر!"

ولم يجد الضابط الشاب وقتا كافيًا لإظهار استنكاره ذلك التصريح الخطير الذي فاهت به بولين، فقد سمع وقع أقدام في ممر الحديقة السقوف وما هي إلا لحظة حتى دخل جان فوريس. وما وقعت عيناه إلى زوجته وبجانبها جاكومان وهما يتهامسان، حتى هتف بزميله مداعبًا يقول:

آه، أيها الشقي! هأنذا فاجأتك وأنت تغتنم فرصة غيابي لتغازل زوجتي!

ولم يسع جاكومان إلا أن يهب واقفًا ويرد على دعابة صديقه قائلا

في لهجة لا أثر فيها لغير الجد:

فوريس.. أنت صديقي. بل أنت أعز أصدقائي، وحتى لو لم تكن صديقي، ولو غازل زوجتك جميع الناس. ما كان لي إلا أن أعاملها بكل احترام وتقدير!

في حديقة تيفولي:

كانت الشموع تلقي ضوءها على المنضدة الكبيرة التي تتوسط القاعة الفسيحة، فتبدو الأوراق المبعثرة فوقها والخرائط المنشورة عليها، كما يبدو جانب من السيف الملقى بين تلك الأوراق والخرائط.

على أن هذا الضوء لم يكن كافيًا لإبراز الرسوم الكثيرة الرائعة التي تحلى سقف تلك القائمة التي تعد من أجمل القاعات في قصر الألفي بك أجمل قصور مصر. وهو القصر الذي اختاره بونابرت لنفسه في القاهرة.

ولم يكن في القاعة سوى رجل واحد يدرع القامة طولا وعرضا في خطى متقطعة وقد وضع يديه خلف ظهره متشابكتين. دون اهتمام بالنظر إلى ما يحيط به من روائع التحف الشرقية، ولا إلى ما فوق تلك المنضدة من أوراق وخرائط وتقارير.

ومن وقت لآخر كانت قدمه تتعثر بمقعد أو تحفة فوق السجادات الثمينة التي يمشي عليها، فينبعث من صدره ما يشبه الزمجرة ثم يواصل المشي دائرا حول المنضدة، سابحًا في الأفكار.

إنه في التاسعة والعشرين من عمره، متوسط القامة بل قصيرها، ضيق

الكتفين، هزيل الجسم مسترسل الشعر يميل وجهه إلى الصفرة والاستطالة ويرتدى سترة طويلة لا زخارف فيها تبدو كأنها واسعة أكثر مما ينبغي. كما يبدو حذاؤه واسعا أيضا، فهو في مظهره أشبه بموظفي الجيش أو صغار الكتاب في الدواوين ولكنه لم يكن إلا القائد العام للجيوش الفرنسية في مصر، أو "السلطان الكبير" كما لقبه بعض أهلها، فهو إذًا بونابرت نفسه أو "بونانراب" كما كان يسميه العامة من المصريين!

على أنه في مساء اليوم العاشر من شهر فريمير لم يكن فيما بينه وبين نفسه أكثر من رجل تعس، عجزت عبقريته العسكرية، كما عجز سلطانه الكبير، عن إزالة ما يشكوه من القلق والحيرة والألم!

كان يفكر في "جوزفين دى بورهانيه" زوجته التي تركها في فرنسا، بعد أن ثبت لديه بصورة قاطعة أنها خانته منذ الشهور الأولى لزواجهما وأنها ما زالت تخونه، هناك في باريس وفي ذلك البيت نفسه الذي نبت فيه حبهما الأول في شارع النصر!

نعم، لقد نبت حبهما الأول هناك في ذلك البيت وكان هذا في شهر فريمير أو شهر نيفوز من العام الرابع للجمهورية، أي في ديسمبر سنة ١٧٩٥ . ثم تم زواجهما منذ ثلاث سنوات فقط، في اليوم الثامن من مارس سنة ١٧٩٦[١]

إن بونابرت لم يحاسب جوزفين على شيء من ماضيها قبل أن يجمع بينهما الحب والزواج، فقد كان بطبعه يأبى أن يحسب حسابًا لكل ما ليس

---

(١) كانت جوزفين تكبر نابليون بستة أعوام.

له علاقة بشخصه.

ولكنه منذ أصبحت خليلته وزوجته، بدأت الغيرة تعضه بنابها وبدأ ينظر بعين القلق والشك إلى كثير من تصرفاتها، فقد أبطأت أكثر مما ينبغي في اللحاق به إلى سهول إيطاليا عقب انتصاره هناك وكانت الأعذار التي انتحلتها لتبرير ذلك البطء، أعذارًا واهية ثم ما كان أشنع تصرفاتها بعد أن وصلت إلى ميلانو واستقرت في قصر سربيللوني وما كان أثقل تصنعها وتكلفها كلما وافاها هناك فجأة ينشد الراحة والاستجمام من عناء الاضطلاع بأعباء القيادة وخوض غمار القتال والتنقل بين المعسكرات، عدا إجراء المفاوضات وتنظيم إدارة البلاد.

في ذلك الوقت، أتيح لبونابرت أن يلتقط مصادفة بعض ما كان الناس يتهامسون به عنها وتعمد ألا يصدق سمعه وبصره؛ لأن قلبه كان عالقًا بالمرأة الجميلة الساحرة الخبيرة بفنون الإغراء، وكان في الوقت ذاته يقدر ما لمسه فيها من محبة عميقة ورقة وحنان. ولهذا آثر التجاهل أو لعله تجاهل إشفاقًا على كبريائه وسمعته أو أملًا في أن تعود إلى رشدها ويصفو جو سعادتهما من جديد.

وعاد بونابرت إلى فرنسا واجتمع الزوجان في قصرهما بشارع شانترين، الذي سمي شارع النصر تكريما له. ولكن مشاغله لم تترك له متسعًا من الوقت لامتلاك قيادها، فإن فتوحات أخرى كانت تشغل ذهنه ويستغرق الاستعداد لها كل وقته. ثم كانت حملته للانتقام من إنجلترا، فشغل بالاستعداد للرحيل إلى مصر وقد صحبته جوزفين إلى طولون

ورغبت في أن تسافر معه، لكنه لم يكن يريد ذلك، فوعدها بأن يرسل إليها سفينة تحملها إليه حينما تسمح الظروف بذلك. وهكذا كان آخر عهده بها هناك وهي واقفة على رصيف الميناء تلوح له بيدها مودعة!.

والآن، ها هو أصبح منعزلًا وقد عكف على تنظيم الأمور بمصر وتأمين مستقبل الحملة، فأفلح في ذلك إلى حد كبير. ولكن الأسطول الإنجليزي ما زال يقطع الطريق بين فرنسا والشرق، فلا سبيل إلى استقدام جوزفين إلى مصر. وفي الوقت نفسه كان وجودها وحدها في باريس أمرًا مقلقًا للقائد الزوج، ففي البريد النادر الذي أُرسل إليه من فرنسا، كانت هناك بجانب الأوراق الرسمية الصادرة إليه من حكومة الديركتوار، رسائل من أخويه جوزيف ولوسيان، فيها اتهامات صريحة خطيرة لزوجته هناك!

وكانت أدلة الاتهامات قاطعة بأن جوزفين ليست أهلا لحمل الاسم الذي أسبغه عليها ولا مندوحة له عن الانفصال عنها إلى الأبد؛ صيانة لشرفه وشرف أسرته من استهتارها الذي لم يقف عند حد ومغامراتها الطائشة المبتذلة الحمقاء!

وهكذا، بلغت الغيرة من نفس بونابرت مبلغا لم يألفه من قبل ونفد صبره في النهاية، فلم يعد في استطاعته تحمل ذلك العذاب في صمت وهدوء ولا أن يرجو صلاحًا لحال تلك المرأة العابثة اللعوب!

خرج بونابرت في ذات يوم للتنزه على ظهر جواده، عند عيون

المسعودية، بالقرب من القاهرة ولم يكن معه كعادته غير مرافقه جونو[1]

ومضى بعض الوقت وبونابرت صامت، يتظاهر بالتطلع إلى ما حوله ثم التفت فجأة إلى جونو وسأله: "هيه يا جونو، ما عندك من جديد عن جوزفين؟"

ولم يكن جونو ينتظر هذا السؤال، فارتبك ولم يدر كيف يجيب، ثم حاول الإنكار والتجاهل حين ألح بونابرت في سؤاله. لكن هذا ما زال به حتى حمله على الإفضاء إليه بكل ما يعلمه في ذلك الشأن: "إن الناس جميعا يعلمون أن جوزفين، قبل زواجها، كانت خليلة باراس[2] ولعلها بقيت على علاقاتها به فيما بعد الزواج. ولكن الذي لا شك فيه أنها كانت أيضًا خليلة بوتو أمين سر المدير باراس وخليلة القائد مورا[3] الذي ذهب إلى باريس حاملًا الأعلام التي غنمها الجيش في معارك إيطاليا! وخليلة هيبوليت شارل، ذلك الضابط الذي صحبها إلى ميلانو في مركبة واحدة، ثم طرد من الجيش بعد أن كاد يعدم رميا بالرصاص عقابًا على ما وجه إليه من اتهامات. ومن المؤكد أن هيبولت شارل قد عاد إلى باريس بعد إقلاع الحملة من فرنسا. وهناك عادت جوزفين إلى الاجتماع به، بل أخذت تظهر برفقته أمام الناس وتقضي معه السهرات في المسارح الصغيرة وتدعوه إليها في قصر مالميزون الذي اشترته في طريق سان جرمان!" وعبثا كان

---

(1) الجنرال جونو من أقرب القواد وأحبهم إلى نابليون أنعم عليه بلقب "دوق" مات منتحرا في نوبة جنون ولم يتجاوز الثانية والأربعين

(2) واحد من المديرين أعضاء "الديركتوار".

(3) مورا: جعل منه نابليون ملكا وزوجه أخته كارولين بونابرت.

بونابرت يحاول التجلد وهو يصغى إلى حديث جونو، فكان بين لحظة وأخرى يضرب جبهته بقبضتيه من شدة الغيظ!

ثم قطع نزهته فجأة وعاد مسرعًا إلى قصر الألفي بك ودخل الحجرة التي يشغلها بوريين أمين سره شاحب الوجه جاحظ العينين وصاح به كثيرا.

لو أنك كنت مخلصًا لي حقا، لأطلعتني على ما علمته الآن عن جوزفين من جونو الصديق الوفي!

ثم أخذ يضرب أرض الحجرة مزمجرًا ثائر الأعصاب، ويقول محدثا نفسه: "جوزفين؟! إنني الآن على مسافة ستمائة فرسخ منها! ويل لها! أتخونني هكذا؟ ومع كل هؤلاء؟! الويل لهم أيضا!. سأزيل من الوجود كل أولئك الأغرار المتحذلقين.! أما هي فالطلاق.. نعم، الطلاق الطلاق المصحوب بالضجة على رؤوس الأشهاد!".

وكان بوريين صديقًا لجوزفين، فحاول أن يهدئ ثورة بونابرت عليها وراح يدافع عنها مؤكدًا أن الظواهر تساعد على اتهامها زورًا ثم أفاض في الحديث عن مجد بونابرت وسمعته في فرنسا وغيرها. ضاربًا على نغمة الإشفاق على صفحة بطولته المشرقة أن تلوثها فضيحة كهذه التي تدعو إليها التقولات والتخرصات.

ولكن بونابرت قطع حديثه قائلًا:

مجدي؟!.. إنني أوثر أن أضحي بمجدي وبكل شيء على أن أغضي عن تلك الخيانات وسأكتب الآن إلى أخي جوزيف ليعلن الطلاق!

وفي مساء ذلك اليوم، ذهب بونابرت إلى برتييه وليس أركان حربه، وسأله أيضا:

أصحيح هذا الذي يقال عن جوزفين؟

نعم صحيح! والجيش كله مع الأسف يعرف هذا!

وهكذا لم يجد بونابرت بدا من تنفيذ ما اعتزمه، فكتب إلى أخيه جوزيف، خطابًا ضمنه ذلك الاعتراف المفعم بالأسى، إذ قال له فيه: "إنني حزين جدا، فقد تمزق الحجاب وجفت العاطفة، والمجد أصبح تافه المذاق!"

أما الطلاق فقد أيقن بونابرت بأنه التخرج الوحيد من الحالة النفسية البشعة التي وصل إليها.

لكنه أخذ يسائل نفسه: إذا لم يقدم على ذلك قبل الإبحار من طولون؟ إن الطلاق الآن سيكون فضيحة مضحكة، لا تتفق وما ينبغي له إزاء الشعب في البلاد الجديدة التي فتحها وإزاء جيشه فيها. بل هو لا يتفق والآمال العظيمة التي يعلقها عليه شعب فرنسا الذي ينتظر منه أعمالًا جديدة رائعة. ثم إن هناك أعداءه في إنجلترا وأوروبا كلها وإنهم يترقبون أي خطأ يقع فيه ليتخذوه وسيلة للنيل منه!

تلك هي الأفكار التي كان ذهن بونابرت يضطرب بها، وهو يذرع أرض حجرة مكتبه الفسيحة في قصر الألفي، ذات ليلة فيما بين المغرب والعشاء.

وأخيرا، مشى إلى المنضدة المضاءة بالشموع وأخذ يقلب ما عليها

من الأوراق والخرائط، حتى وجد الخطاب الذي كان يبحث عنه وهو خطاب من أخيه الصغير "لوسيان" حمله إليه الرسول "هاملان" في صباح ذلك اليوم.

وكان لوسيان في هذا الخطاب يكرر الاتهامات الموجهة إلى جوزفين وقد طالعه بونابرت قبل ذلك مرات، ولكنه راح يعيد قراءته أيضا، وقد تصلبت شرايين وجهه واصطبغت عيناه بلون الفولاذ ثم لم يتمالك نفسه، فمزق الخطاب وأحرق أجزاءه بالشموع ثم قذف بها على الأرض وداسها بحذائه!

وشعر على إثر ذلك ببعض الارتياح وما لبث قليلا حتى عاوده ثباته المعتاد، فرفع صوته مناديا:

مرلان.. بوهارنيه..

وسرعان ما فتح الباب ودخل الضابطان الساهران لحراسته في تلك الليلة، وأولهما ابن المدير مرلان دي دوي، أحد أعضاء حكومة الديركتوار. أما الآخر، فهو أوجين دى بوهارنيه ابن جوزفين، وكان بونابرت قد ألحقه بأركان حربه ليتسنى له أن يرعاه.

أدى الضابطان التحية العسكرية للقائد العام ووقفا في انتظار ما يأمر به، فسألهما في صوت هادئ رزين: "أمستعدان أنتما؟" ولما أجابا بأداء التحية العسكرية مرة أخرى، استطرد قائلا:

حسنا! اتبعاني إذًا. سنقوم بنزهة مشيا على الأقدام ولا أريد أن يجئ معي غيركما..

لا شك في أن بونابرت كان حتى تلك الساعة زوجا مخلصا وفيا وعلى استعداد لأن يبقى على إخلاصه ووفائه لجوزفين، لولا أن اتضحت له خياناتها له. أما الآن فقد أدرك أن الانفصال لابد منه وأنه تحرر أو كاد من القيود التي تربطه بتلك الزوجة الخائنة!

أنه ما زال في التاسعة والعشرين من عمره. أفلا يحق له أن يذوق طعم حب آخر؟

إن ليالي القاهرة المنعشة توحي بالحب وأنه ليعلم أن الكثيرين من ضباطه اتخذوا لأنفسهم خليلات ينعمون معهن بأوقات طيبة جميلة. لكن الأمر فيما يختص به، كان مختلفا كل الاختلاف، فهو بحكم مركزه لا يستطيع أن يبحث عن ضالته المنشودة بين الشرقيات، كما أنه لا يريد أن يتحرش بزوجات رجاله أو عشيقاتهم. إذًا، لم يبق أمامه إلا أن يبحث عن ضالته بين النساء الطليقات من كل قيد ولا شك في أنه سيجدها بين الكثيرات اللائي يترددن كل مساء على ملهى "تيفولي" بحي الأزبكية الذي أقيم على غرار حديقة تيفولي بباريس.

كان هذا الملهى قد أنشئ عقب انتهاء ثورة القاهرة في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨، واستئناف الحامية الفرنسية حياة اللهو والمرح وقد أنشأه تاجر فرنسي اسمه "دار جفيل" كان زميلا لبونابرت في مدرسة برين الحربية وجاء مع الحملة إلى مصر لممارسة التجارة فيها.

ولهذا عاونه بونابرت على تنفيذ مشروعه، فتم إنشاء الملهى قبل تلك الليلة بأيام، في تلك الحديقة الواسعة الجوانب، الحافلة بالنخيل والأشجار

والأزهار وتجري فيها المياه في قنوات، تقوم حولها المقاهي والأندية وحلقات عدة للراقصات والمهرجين والمصارعين ومروضي الحيات وغيرها من وسائل التسلية والترفيه.

ولم يصرح بونابرت لرفيقه بشيء عن وجهته ولا عن الهدف الذي يرمي إليه بخروجه للنزهة. ففي ليلة اليوم العاشر من شهر فريمير، الموافق ليوم الثلاثين من شهر نوفمبر، وهو يوم تمطر فيه السماء في فرنسا ويشتد البرد وتتلبد الغيوم، أما في مصر فهو يوم من أيام الخريف!

ووصل بونابرت إلى باب الحديقة دون أن يوجه أي كلمة في الطريق إلى رفيقيه وكانا يتساءلان فيما بينهما: ترى أين يقودهما في تلك الساعة؟ وشد ما كانت دهشتهما، حينما رأياه يجتاز باب الحديقة ويتغلغل بين أشجارها، فغمز أوجين دى بوهارنيه بطرف عينه وهمس في أذن زميله قائلا:

الجنرال هنا؟ أممكن هذا؟.

وأجاب مرلان قائلا: "هذا ممكن طبعا، ما دمنا في الواقع هنا.!"

كان الشابان في مقتبل العمر، مرلان في التاسعة عشرة وبوهارنيه في السابعة عشرة، وكان يريدان لو أتيح لهما الوقوف لتناول شيء من المثلجات أو الجلوس في أحد المقاهي، فضلا عن شوقهما إلى مشاهدة الألعاب والرقص. ولكن بونابرت لم يبد اهتمامًا بشيء من ذلك كله ومضى مواصلًا المشي بين الأشجار، واضعًا يديه خلف ظهره كعادته، غير عابئ بما يحيط به!

وتبادل الشبان نظرات قلقة حائرة، مخافة أن تنقضي السهرة على هذا النحو، ثم يعود الجنرال إلى قصر الألفي بك، دون أن يربا شيئًا غير كعب حذاء القائد الذي يسير أمامهما!

وكان أوجين دى بوهارنيه أكثر جرأة من زميله، نظرًا لصلته الخاصة ببونابرت زوج أمه، فاعتزم أن يغتنم أول فرصة تسنح لوقف هذه النزهة المملة وخدمه الحظ بلا إبطاء. فقد وصل إلى مكان يعرض فيه أحد الحواة الهنود حياته ويلاعبها على أنغام المزمار ورأى المواطنة فوريس واقفة تتفرج ومعها زوجها وجاكومان وبعض الأصدقاء وفطن الشاب إلى أن بليلوت الحسناء تتابع القائد العام. كما تذكر أنها كثيرا ما أبدت أمامه إعجابها به ورغبتها في التعرف إليه، فأشار إليها بأن تقترب، ثم خاطب بونابرت قائلا:

جنرال، أتسمح لي بأن أقدم لك مواطنة فرنسية؟

فوقف بونابرت وأجاب مبتسمًا:

فرنسية أخرى؟ إنهم إذًا يكتشفون هنا كل يوم نساء فرنسيات!

فواصل دى بوهارنيه كلامه قائلا:

إن هذه الفرنسية لشديدة الإعجاب بالجنرال وترغب رغبة ملحة في التعرف إليه..

ونظر أوجين إلى بليلوت وهي تقترب منهم وتمتم قائلا:

إنها جميلة.. جميلة جدا، لا يمكن ألا أن تعجب من يراها!

وكانت بليلوت، في أثناء هذا الحوار المقتضب قد خرجت من بين

صفوف المشاهدين، دون أن ينتبه زوجها ولا رفاقها، لانهماكهم في التفرج على رقص الحيات.

وكانت خطواتها بطيئة مترددة لتهيبها لقاء الجنرال للمرة الأولى، لكنها بدت في ثوبها الأبيض وقدها الممشوق وشعرها المعقود بشريط، كأنها تتهادى في مشيتها أو كأنها صورة نيرة على لوحة الليل القاتمة! وكلما خطت خطوة، كانت العيون المتطلعة تلمح جانبًا من ساقها البضة الملتفة، يبدو من خلال شق ثوبها فوق حذائها الصغير الأنيق. وكانت يداها، تعبثان بخفة ودلال بالوشاح الملقى على كتفيها العاريتين!

وبادر أوجين فقدمها للجنرال قائلا:

المواطنة بولين فوريس..

وانحنت الحسناء أمام القائد باحترام. ثم وقفت مطرقة، بينما راح هو يحدق فيها بعين فاحصة. ثم سألها بصوت جاف:

كيف جئت إلى مصر؟

ولم ترتبك بليلوت إزاء هذا السؤال المفاجئ وسارعت إلى الإجابة قائلة بصوتها المغرد:

لحقت بزوجي الضابط!

وقالت وقد تلاقت نظراتهما:

أه. في السفينة. لم أكن امرأة يا جنرال، بل كنت جنديا من جنودك الفرسان. كنت أرتدي ثوب قناص من الكتيبة الثانية والعشرين وهى

الكتيبة التي ينتمي إليها الملازم فوريس..

ثم أردفت ذلك بضحكة من ضحكاتها التي تشبه تغريد العصافير..

فلم يسع بونابرت إلا أن يطلق وجهة العنان مسحورا بتلك الضحكة التي قلما سمع مثلها، ثم غير لهجته تبعا لذلك وسألها ملاطفا:

أين تسكنين!

في حي الحسين، في بيت عربي متواضع، لكنه محاط بحديقة صغيرة تفوح منها جميع عطور الشرق!

وحدك؟

أما قلت لك من لحظة يا جنرال إنني متزوجة وزوجي يعود إلى البيت كلما سمح له عمله بذلك؟..

لأنه لم يتح لي حتى الآن أن أراك إلا من بعيد، ولأن الجيش كله معجب بك. فلا يسع زوجة ضابط فيه إلا أن تكون أيضا معجبة بك. ولأنك في نظر كل امرأة فرنسية، صورة مجسمة للمجد!

وبقي بونابرت صامتًا مفكرًا وكان رفيقاه قد ابتعدا وانضما إلى حلقة التفرجين على الحاوي الهندي الذي يلاعب الحيات.

فاستطرد بونابرت قائلا، بلهجة تصنع فيها التهديد:

أتعلمين أيتها المواطنة، أنه كان يجب علي أن أعاقب زوجك على مخالفته الأوامر والمجيء بك إلى مصر؟

وتصنعت هي الإشفاق من ذلك التهديد وقالت:

آه يا جنرال!.. إنك لن تفعل هذا.!.

ثم اقتربت منه ومدت يدها، فأمسكت بها كم سترته السوداء ووجهت إليه من عينيها الساحرتين نظرة طويلة كلها تضرع وخضوع، فكانت هذه النظرة وما وقعت عليه عين بونابرت من وجهها الجميل وكتفيها الناصعين وذراعيها العاريتين، عاملًا كافيًا لإزالة البقية من تردده. فابتسم وقال:

لن يعاقب زوجك إكرامًا لك، إكرامًا لكِ وحدك!

فابتسمت وقالت:

أتسمح بأن أقول له ذلك؟ فهو هنا مع بعض أصدقائه ومرافقيك اللذين التحقا بهم.

لا، دعي زوجك حيث هو!

إذًا، لي أن أطمئن على أنك لن تعاقبه؟

فسكت لحظة ثم أجاب:

أعدك بذلك.. ولكن على شرط

إنني أقبل الشرط مقدمًا يا جنرال!

اشترط أن تزوريني قريبا في قصر الألفي!

هل يجئ معي زوجي؟

فكادت أسارير وجهه أن تعود إلى التجهم، وقال:

لا.. تعالي وحدك إذا شئت..

ولم تتردد بليلوت طويلا، وهمست قائلة:

كما تريد!

متى ستأتي؟

ربما يكون ذلك غدا..

بل غدا بدون شك.. أريد أن تأتي غدا..

فحنت بليلوت رأسها موافقة. وقال بونابرت فرحا:

حسن جدا أيتها المواطنة، فأنت فرنسية كما أحب أن تكون المرأة الفرنسية، تعرف ما تريد وتقرر ما تريد بسرعة!

وهكذا نسى بونابرت مرة واحدة متاعب القيادة وذكرى خيانة جوزفين وعاد من جديد شابًّا فتيًّا عاشقًا، فتحت أمامه امرأة جميلة أفق الآمال واسعة. فقال:

يجب أن نمهر عقد الصداقة بيننا، بأن نتناول معا قدحًا من المرطبات، تعالي يا بولين!.

ونظرت بولين حولها نظرة خاطفة، فوجدت الحاوي ما زال يشغل من حوله بملاعبة حياته، فرافقت القائد إلى حيث بائع المرطبات وكانت الخطوات القليلة التي قطعاها معا كافية لكي يصبح بونابرت مالكا لقياد

بولين ولكي يخاطبها مخاطبة السيد المطاع. ثم سألها:

لماذا لا تتزينين بالحلي؟

فأجابت ببساطة:

لأن زوجى ليس من الثراء بحيث يستطيع أن يشتري لي حليا!

وسأل أيضا:

ولماذا ترتدين ثوبًا أبيض؟

وكان منذ أن علم بخيانة جوزفين يكره الأزياء السنوية البيضاء، لأن زوجته الخائنة تميل إليها. وقبل أن ترد بولين على سؤاله، واصل حديثه:

لا أريد أن أراك بعد الآن في ثوب أبيض!

فأجابت الحسناء:

سأرتدي ثوبا آخر كلما زرتك يا جنرال!

وكانا قد انتهينا من شرب عصير البرتقال، فقال لها بونابرت:

سنلتقي غدا!

وابتسم وهو يتطلع إلى حلقة الحاوي الهندي، باحثًا بنظراته عن الضابطين الشابين مرافقيه. فابتسمت بولين بدورها ثم حنت رأسها وانصرفت لتلحق بزوجها الذي لم ينتبه لغيبتها.

الزيارة الأولى

لم يكن بونابرت حين اتخذ القاهرة مقرًّا له، قد اختار لإقامته قصر الألفي بك أفخم قصورها مدفوعًا بذوقه الخاص، فالواقع أنه تعود في حياته الإقامة بالمنازل التي تهيئها له الصدف والظروف. وكان بسيطًا في مظهره، يلبس دائما ثوبه الأسود وحذاءه الأسود. ولكنه في مصر كان مدفوعًا بفكرة سياسية، وقد رأى أن لابد له من فخامة المظهر التي تؤثر في أذهان الشعب، فاختار لإقامته قصر الألفي بك بحي الأزبكية.

وكان حي الأزبكية يقع في قلب القاهرة، وهو مربع يشغل حوالي نصف فرسخ وتحيط به صفوف متراصة من أشجار النخيل والبرتقال. وحول ميدان الأزبكية، دور فخمة كان يسكنها أثرياء المماليك حكام مصر وقد هربوا جميعًا أمام الغزو الفرنسي، تاركين قصورهم سليمة بما فيها من كنوز.

وكانت حفلات استعراض الجيش تقام في الأزبكية. وفي تلك القصور الفاخرة، نزل رؤساء الجيش الفرنسي البارزون، مثل: كليبر وديزي وبون ورينيه وغيرهم وكبار الموظفين المدنيين وأعضاء المعهد المصرة، الضائعون وسط تلك المظاهر البراقة.

وكان قصر الألفي بك أبدع تلك القصور على الإطلاق؛ فقد أعيد بناؤه منذ عهد قريب وجمع بين الترف الشرقي وأحدث وسائل الراحة ومؤلف من ثلاثة أجزاء تربطها ممرات تقوم على جانبيها صفوف من الأعمدة ونسقت السطوح ورصت عليها أشجار البرتقال المزروعة في صناديق. وكانت الزخارف والنقوش العربية تزين الجدران من الداخل والخارج. وفي باحتي القصر، أحواض أنيقة أطلقت فيها المياه وتحيط بالقصر من الخلف حدائق غناء غرست فيها جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين المعروفة في الشرق.

وكان الداخل إلى هذا القصر، يقف مذهولًا أمام القاعات الفسيحة التي كسبت أرضها بالرخام وتوسطتها قنوات مزخرفة يجري فيها الماء وفرشت بأثمن أنواع السجاد العجمي وطنافس كشمير وصنع أثاثها من الأخشاب النادرة الثمينة، مموهًا بالذهب والفضة.

وفي عهد الألفي بك، كان الهدوء يخيم على ذلك القصر. فلما فر مثل غيره من أمراء المماليك وحل بونابرت محله، دبت في القصر حركة مستمرة شملت أجزاءه الثلاثة وباحتيه. ففي كل يوم، من الفجر حتى المساء، بل حتى ساعة متأخرة من الليل، كان باب القصر يستقبل أفواجًا من القواد والمرفقين والرسل وحاملي البريد يدخلون مهرولين. كما كان يستقبل كثيرين من أعيان القاهرة أيضًا، ممن جاءوا لتحية القائد حاكم مصر الجديد أو لرفع شكاياتهم إليه. وهكذا أمضى الحراس ثلاثة أشهر وحركة الدخول إلى القصر والخروج منه لا تنقطع ليل ونهار، لكنهم لم يروا خلال هذه الأشهر امرأة واحدة تمر أمامهم. ولهذا شد ما كانت دهشتهم

في صباح أحد الأيام إذ رأوا بولين[1] فوريس مقبلة في خطواتها الموقعة، حتى اقتربت من الباب وقفت ريثما أجالت نظراتها الأخاذة بينهم، ثم خاطبت رئيس الحرس بصوتها المغرد قائلة:

أريد مقابلة الجنرال: إنه في انتظاري!

كانت بولين تبدو هادئة رزينة في تلك اللحظة ولكن الواقع أن قلب العاملة السابقة في حانوت "الوردة الفضية" كان يخفق بعنف وسرعة وهي تهم بدخول القصر!

لم تكن بولين تدري أو لم يكن بعينها أن تدري حقيقة الدافع لها على إقدام على هذه المغامرة وقد كانت حتى الأمس القريب تعتقد أنها تحب زوجها ولا تحب سواه. ولم تكن تتصور أن يصبح بونابرت موضع حبها. فقد كانت تشعر نحوه بعاطفة إعجاب من نوع خاص، تدفعها إلى طلب التعرف إليه والاستماع لصوته. كانت تشعر بأن قوة غير عادية خارجة عن نطاق التفكير، تجذبها إلى ذلك الرجل وقد خرجت من بيتها بكل بساطة وذهبت إلى موعدها معه في قصر الألفي بك. دون أن تفكر فيما يكون بعد ذلك فهي نفسها لم تدبر لقاءها الأول للجنرال ولا دبرت هذا الموعد للقائه في القصر. ولكن الأقدار دبرت كل شيء. وماذا يسعها إلا أن تسير وفق ما شاءت الأقدار؟!

والأقدار، ليست غير سلسلة من الصدف، فالصدفة هي التي أوجدتها في لحظة معينة على مقربة من أوجين دى بوهارنيه فتحادثا وساقها

---

(1) كانت عشيقة بونابرت تدعى أحيانا بولين وأحيانا بليلوت

الحديث إلى الإعراب عن إعجابها بالجنرال ورغبتها في التعرف إليه. والصدفة كذلك قادتها إلى ملهى تيفولى مع فوريس وجاكومان ورفاقهما، في الوقت الذي خرج فيه بونابرت للنزهة في الحديقة نفسها. وأخيرا شاءت الصدفة أن يتم اللقاء دون أن يتنبه له فوريس أو جاكومان أو أحد ممن كانوا معها حينذاك!..

وبولين تميل دائما إلى الخضوع للأقدار؛ لأنها تعتقد أن الأقدار في النهاية لا يمكن إلا أن تخدمها!

تلك هي الخواطر التي جالت في ذهن بليلوت وهى تسير داخلة قصر الألفي بك، يتقدمها أحد الجنود المماليك بتكليف من رئيس الحرس ليوصلها إلى مكتب الجنرال وكان بونابرت قد ألحق بجيشه عددًا من الجنود المماليك المحاربين الشجعان!

وقادها المملوك خلال الممرات العلوية والسلالم العديدة، حتى أوصلها إلى الحجرة المعدة للانتظار بجانب مكتب القائد العام، فجلست محتشمة على طرف أحد المقاعد وكان في الحجرة زائر آخر، وصل قبلها، وهو رجل في نحو الثلاثين، لا يتقلد سيفا ولا يضع ريشة على قبعته، حليق الوجه، يدل مظهره على أنه من رجال العلم وكان جالسًا في الطرف الآخر من الحجرة، ممسكا بيده حافظة مملوءة بالأوراق وضعها على ركبته، فلاحظت بليلوت أنه نظر إليها في غير اكتراث أو بشيء من الازدراء وقالت في نفسها: "لابد أن يكون هذا الرجل من أعضاء المعهد العلمي أو من الخبراء في التاريخ أو المهندسين. وعلى كل حال فهو من العلماء

وسوف يدعني بونابرت انتظر طويلا هنا، حتى يفرغ من استقباله".

ولكن، لم تمض دقائق معدودات، حتى فتح باب المكتب وأطل منه القائد العام، فرأى العالم الذي هم بالنهوض وأشاح عنه بناظريه. بينما التفت إليها هي وهتف مرحبا بها:

ما أسعدني حظًّا.! حقا أيتها المواطنة، ما كنت أطمع في أن يكون استمساكك بوعدك إلى هذا الحد! فأنا مسرور جدا!.. ادخلي حالا!

قال هذا وهو يقترب منها، باسطًا يديه، فأمسك ذراعها ودفعها أمامه. وخاطب الزائر الآخر قائلا:

معذرة أيها المواطن فوريه، فالسيدات أولًا!

وأغلق بونابرت الباب خلفه، فوجدت بولين نفسها وحدها معه واشتد ارتباكها حين رأته ينظر إليها من رأسها إلى قدميها كمن يفحص تحفة ثمينة، وهو ما زال ممسكًا ذراعها وعيناه تلمعان في جدران أشعة الشمس الذهبية التي انعكست من خلال الستائر على جدران القاعة الفسيحة الفخمة ذات النقوش الملونة البديعة!

وحاولت إخفاء ارتباكها بتحويل نظرها إلى تلك الجدران الزاهية وتأمل المنضدة الكبيرة التي تتوسط الحجرة بما عليها من خرائط وأوراق وما تحتها وحولها من السجاد والتحف والرياش.

على أن بونابرت ضغط على ذراعها بلطف حتى التقت نظراتهما من جديد، ثم تنهد وقال:

أخيرًا... ها قد ملكتك، فهل أنت هنا حقا؟ وهل هذا ليس حلمًا من الأحلام؟!

وكان تنهد القائد العظيم كافيًا وحده لإزالة ارتباكها وانحلت عقدة لسانها إذ خيل لها أن تنهده هذا ليس سوى اعتراف صامت من عاشق خجول، فقطبت حاجبيها قليلا وقالت له:

نعم أخيرًا، فمنذ لحظة كنت توشك أن تؤنبني، لأنني جئت قبل الموعد بقليل!

فأتى بونابرت بحركة أراد بها إزالة الذكريات الماضية واستطرد قائلا:

أنت لا تفهمينني. لقد جئت وهذا يكفي، فأنا سعيد الآن!

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة فاتنة وقالت مشيرة إلى زيها الذي جاءت به:

انظر يا جنرال.. ها أنذا نزولا على إرادتك ورغبة مني في إرضائك، تخليت عن ذلك الثوب الأبيض!

وكانت بولين قد ارتأت في ذلك الصباح سترة من الحرير الوردي فوق ثوب من اللون ذاته، فأبرز هذا من تورد خديها وزرقة عينيها الواسعتين وشقرة شعرها الكثيف، فألقى بونابرت على زيها نظرة ملؤها الإعجاب، ثم قال متمالكًا نفسه:

أشكرك. إنك تعجبينني هكذا. أما الحلي التي تنقصك فلا تفكري فيها، سأجعلها متوافرة لديك...

فتصنعت الطهر والسذاجة، وسألت مندهشة:

أنت يا جنرال؟

نعم، أنا.!.

بأي صفة!

لأنني أحبك!

وهنا، وفي هذه اللحظة فقط، تظاهرت بولين بأنها أدركت أخيرا ما ينتظره بونابرت منها، فأطرقت مسبلة عينيها وغمغمت قائلة: وأنت؟!

فأمسك بونابرت ذراعها الأخرى أيضا، وقال:

نعم، أيتها المواطنة، أفلا يحق لي أن أحب من أريد وأبوح بذلك واثبته؟!

فتظاهرت بالدهشة وقالت:

أممكن هذا؟ وكيف يكون ذلك وأنت الذي تتوجه إليه جميع النساء بابتساماتهن وفي وسعك أن تختار المرأة التي تريدها فلا يكون إلا ما تختار؟ ثم.. كيف يمكن أن تهتم إلى هذا الحد بزوجة ملازم بسيط في كتيبة القناصة؟ فأنا متزوجة، لا تنس هذا وقد أحببت زوجي دائما وهو أيضًا يحبني وشديد الغيرة عليّ.!..

وكان جواب بونابرت أن أمسك بيدها ثم قادها في خطوات متزنة هادئة إلى فرجة أمام إحدى النوافذ حيث وضع مقعدان متلاصقين، فأجلسها وجلس بجانبها، محتفظا بيدها بين يديه وعاد إلى التحديق فيها

بعينيه وهو يشعر لأول مرة منذ زواجه بجوزفين، بالاضطراب أمام امرأة!

كان متعطشًا للحب، إلى لون آخر منه غير اللون الذي تذوقه مع زوجته جوزفين، أرملة الفيكونت دى بوهارنيه.

فالواقع أن جوزفين البارعة في فنون الحب أغوت القائد الشاب، الحديث العهد بهذه الفنون وليس هو الذي أغواها. أما الآن، فهو أمام تلك الفرنسية المتواضعة الأصل، الطاهرة المظهر.. أمام امرأة ليس لها ماض!.. ولهذا داخله بعض الارتباك وتنازعه عاملان:

عامل الخجل بوصفه زوجًا يقدم على إغواء زوجة! وعامل الإقدام والميل إلى المغامرة بوصفه جنديًّا.

وتمالك نفسه أخيرًا، فابتسم في وجه بولين وقال لها:

تقولين أن زوجك ملازم؟ إذًا ننظر في ترقيته. فإذا كانت مؤهلاته تسمح بذلك، فسوف يرقى إلى رتبة كابتن أما فيما يتعلق بغيرته. فالواقع أن أي زوجٍ لامرأة جميلة مثلك لابد أن يكون غيورًا وإلا لما كان رجلًا!.. على أنه سيكون في وسعنا أن نعمل على تهدئة غيرته. إليس كذلك؟

قال هذا وضغط يدها متلطفًا، فقالت في شيء من التلعثم:

وهذا ما جئت أطلبه اليوم يا جنرال. فكيف يمكنني المجئ فيما بعد إلى هذا القصر، إذا لم يكن للملازم فوريس الحق في دخوله؟

سيكون للملازم فوريس هذا الحق. سوف توجه إليه دعوة عما قريب، فأنا مستعد لإجابة كل ما تطلبه بولين الحسناء!

ثم مال بوجهه على وجهها، ليأخذ مقدما جزءًا من ثمن هذا العهد الذي قطعه على نفسه، ولكنها نهضت في اللحظة المناسبة لتتجنب دفع شيء من هذا القبيل!

فامتعض بونابرت وقال:

كيف؟ أتنصرفين الآن؟

لابد من ذلك، فقد وجدت صعوبة كبيرة في مغادرة بيتي لوقت قصير. والآن، يجب أن أعود بسرعة.

ولكنك وعدتني، مساء أمس..

بأي شيء يا جنرال. لقد وعدت بأن أزورك، وهانذا قد وفيت بالوعد!

ففتح بونابرت فمه ليرد عليها، لكن عامل الخجل تغلب في نفسه على عامل الإقدام والهجوم، فتولاه الارتباك ولم يجرؤ على الإلحاح بالزوجة الحسناء لإبقائها معه وقتًا آخر. فشيعها إلى الباب ثم استوقفها وهمس إليها قائلا:

لا تغادريني على هذا النحو! عديني بأنك ستعودين!

فنظرت إليه وجهًا لوجه وحركت أجفانها وابتسمت ابتسامة تفوق الكلام بيانا، وقالت:

سأعود، وأقسم يا جنرال بأنني سأعود!

واجتازت عتبة الباب ومشيت في حجرة الانتظار، وكان المواطن

بوريه أمين المعهد المصري، مازال جالسًا على مقعده ريثما يستقدمه القائد العام وما وقع نظره على المرأة التي يشيعها الجنرال حتى تنهد ذلك الرجل الرزين الذي تظاهر من قبل باحتقار بولين وانحنى أمامها في تحية طويلة!

وهذه التحية المطبوعة بطابع المبالغة، جعلت المرأة الشابة تدرك مدى النفوذ الذي سوف تتمتع به، إذا هي أرادات ذلك في أي حين!

انتصار الحب

خرجت بولين فوريس من القصر، بعد أن قضت نحو نصف ساعة مع بونابرت، وأسرعت إلى منزلها في الحي الحسيني، فوجدت زوجها في انتظارها فارغ الصبر، وما رآها مقبلة حتى خف إلى استقبالها وسألها متلهفًا:

أقابلت الجنرال؟

فأجابت ببساطة وهي تبتسم.

نعم. وكل شيء على ما يرام!

فبدت الدهشة على وجهه وقال:

وهل قابلتيه بدون أن تقدمي طلبا مكتوبا؟

فابتسمت وأجابت:

وبدون أن يدعني انتظر!

فعاد الزوج يسأل:

وماذا قال لك الجنرال؟

أجابت بولين:

وعدني بأن يهتم بأمرك وفهمت منه أنك سترقى قريبا إلى رتبة كابتن!"

فاشتدت دهشته وامتزجت بفرحة غامرة لهذه البشرى وقال:

كابتن؟!.. أخيرا.!. آه، إن زوجتي لامرأة مدهشة.. حقا، يا بليلوت، لا يمر يوم واحد دون أن أهنئ نفسي على اتخاذك زوجة لي!

ثم أخذ فوريس يغمر خديها بالقبلات، مدفوعًا بعامل العرفان بالجميل وتركته بولين يفعل، دون أن ترد على قبلاته بمثلها، متظاهرة بأنها امرأة لا تهتم إلا بالأمور الجدية وقد رأت من الحكمة إلا تخفي على زوجها مجمل ما حدث في ملهى تيفولي وكيف قدمها أوجين دى بوهارنيه للقائد العام، ثم كيف تطور الحديث بينهما إلى مسألة حضورها إلى مصر وما في ذلك من مخالفة للأوامر توجب عقاب فوريس. لكنها استطاعت أن تظفر من القائد العام بوعد يسمح لها بمقابلته في قصر الألفي بك، لتشرح له وجهة نظرها في الحضور مع الحملة ولتثبت براءة زوجها من تهمة مخالفة الأوامر الصريحة.

والواقع، أنني ما ذهبت لمقابلة الجنرال إلا حبا لك، وحرصًا مني على مستقبلك!

وأخذ فوريس يواصل إلقاء الأسئلة على زوجته، ليعلم منها تفاصيل المقابلة وهو منشرح الصدر مطمئن القلب، إلى أن سألها:

هل يعرف الجنرال أعمالي السابقة، وهل يعدها كافية؟ ومتى يا ترى يصدر القرار بترقيتي؟

وكانت بولين تجيب على أسئلته كلها بلا ملل، بقولها: "نعم".

ولما ألح في أسئلته وأكثر منها، لم يسمعها إلا أن تختلق له تفاصيل جديدة عن حديثها مع بونابرت، على أساس أن الحديث كله كان يدور حول زوجها الضابط وحده!

وصدق فوريس كل ما قالته زوجته وأبدى ارتياحه لما حدث وأدركت بولين أن الغيرة لن تنساب إلى صدره، لأنه لا يفكر إلا في مصلحته الخاصة ولا ينظر إلا إلى تحقيق أطماعه. ثم أرادت أن تزداد يقينا من ذلك، فقالت له مداعبة:

لابد من الاعتراف بأن بونابرت كان ظريفًا لطيفًا وأنه ليس عدوًّا للنساء كما وصفته الإشاعات!

فابتسم فوريس ابتسامة ذات معنى، وأجاب قائلا:

وكيف لا يكون ظريفا لطيفا، أمام امرأة مثلك؟! إنه لابد كان ظريفا جدا ولطيفا جدا.! وهذا مما يجعل ترقيتي تتم بسرعة!

وأوشكت أن تصيح به: "إنك لغبي!" ولكنها اكتفت بأن تردد ذلك في سرها!

ومنذ هذه اللحظة، بدأت الفضيلة في نفس بولين تترنح وتتعثر. فلماذا لا تصبح خليلة لبونابرت؟ وهل تراها أحبت الرجل الآخر، زوجها، إلى حد البقاء وفية له مدى الحياة؟ إنها لا تعلم! فالحياة في نظرها بدأت اليوم بداية جديدة ولم يعد فوريس هو الفرصة العابرة. أما الآن، فإن فرصة

أخرى تسنح ورجلا آخر يتقدم! ولا شك في أن بونابرت لم يكن بالرجل المثالي الذي يعجب النساء، فالرجل المثالي في نظرهن يختلف عن ذلك القائد الهزيل، بلونه الأصفر وإهماله لهندامه وارتباكه أمام المرأة، ولكن، ما أروع ناظريه!.. ثم، إليس هو الرجل الوحيد، في هذه البلاد النائية، المنعزلة عن العالم؛ الذي يغدق النعم والثروة على من يريد؟

وانتهي فوريس من أسئلته وأخذ يصفر فرحًا، فعقدت زوجته الشابة العزم على مواصلة ما بدأته. وسألته:

إذًا، أنت لا ترى مانعًا من عودتي إلى قصر الألفي بك؟

فأجاب فوريس، في سذاجة الرجل الذي حكم عليه بألا يفهم أو بأن يفهم بعد فوات الوقت:

أنا؟.. لا لا، أبدًا.. بل الأمر بالعكس!

وشعرت بولين، بعد سماعها هذا التوكيد من زوجها، بأن ضميرها أصبح مرتاحًا، فأزالت من ذهنها كل قلق وعولت على أن تنعم بمباهج الحياة ما وجدت السبيل إليها وأصبحت، كما أرادتها طبيعتها أن تكون، زهرة معدة للشم والقطف وفراشة يتقاذفها النسيم!

ولم يكن في هذا ما يدهش زوجها، لأنه هكذا عرفها!

لم تمض ثلاثة أيام على زيارة بولين قصر الألفي للمرة الأولى، حتى كانت تجتاز بابه إلى مركز الحراس القائم في مدخله، بخطوات ثابتة مرة أخرى!

وخيل إليها أن الحراس لابد أن يكونوا قد تلقوا تعليمات معينة في شأنها، فقد سارع رئيسهم إلى استقبالها وأرسل معها على الفور أحد المماليك، ليوصلها إلى حجرة الانتظار!

ولم يكن المواطن فوريه هناك، بحافظته الملقاة على ركبتيه ولكن لفيفًا من الزائرين وأصحاب الحاجات كانوا يملأون الحجرة.

وللمرة الثانية، استقبلها بونابرت قبل أن يجئ دورها، فقد فتح باب المكاتب. ولما رآها، لاح البشر في وجهه، ولكنه واصل حديثه مع الرجل الذي كان يشيعه قائلا له:

يجب أن تتخذ التدابير اللازمة للمجيء معي، أريد أن أرى ذلك بنفسي، ولكنني واثق مما أقول. فالبرزخ من شاطئ البحر المتوسط إلى خليج السويس ليس من الاتساع بحيث يتعذر حلو قناة فيه. ثم لابد أن تكون هناك آثار لقناة قديمة. وسوف نعثر على تخطيط هذه القناة ونزع عنها الرمال!

كان الحديث عن فكرة جالت في خاطر بونابرت، هي فكرة شق قناة السويس وكان يؤكد للمهندسين المترددين أو المتخوفين أن هذه الفكرة لاشك في إمكان تحقيقها، فتستطيع السفن بعدئذ أن تنقل البضائع من السويس إلى الإسكندرية مباشرة. أما العالم الذي كان بونابرت يحاول إقناعه بالفكرة في ذلك اليوم، فهو مونج رئيس المعهد المصري.

وقد انحنى أمام بونابرت بعد أن فرغ هذا من كلامه، وقال:

سأكون مستعدًا للسفر يا جنرال.

وتركه بونابرت واتجه إلى بولين فوريس، باسطًا يديه للترحيب بها، وهو يقول:

كنت في انتظارك!

فسألته متظاهرة بالدهشة:

أكنت تعلم بأنني سأعود؟

فأجابها بدون تردد:

كنت واثقًا من ذلك، ما دمت قد وعدتني!

ثم دعاها إلى مكتبه غير عابئ بالزائرين الآخرين الذين أزعجتهم مجاملته للمرأة على حسابهم!

وفي قاعة مكتبه الفسيحة، مضى بها بونابرت إلى تلك الفرجة الواقعة أمام النافذة، حيث جلسا على المقعدين المتلاصقين هناك، كما حدث في زيارتها الأولى، ثم راح الجنرال يكرر لها الإعراب عن فرحه بلقائها وشوقه إليها!

كان بونابرت يتكلم بحرارة ملحوظة لا يقوى على كتمانها وكانت بولين تراقبه خلال ذلك في دقة لم تتيسر لها من قبل. وأوشكت أن تجده جميلًا!

إن الفارق كبير ولا شك بين هذا القائد الحازم الذكي الحساس الذي يدرك الفكرة قبل أن يعبر عنها اللسان وتنبعث منه جاذبية قوية من الصعب مقاومتها. وبين ذلك الرجل الأحمق الجامد الذي تزوجته.

ولكن، ما أكثر العقبات التي ينبغي اجتنابها.!

إنها لا تري مانعًا من أن تسلم نفسها بلا إبطاء، إذا هو ألح عليها في ذلك، ولكن: ألا يهجرها القائد فيما بعد إذا هي سلمت بمثل هذه السهولة، شأنها شأن أي امرأة مغامرة تؤخذ ثم تلقى بعيدا؟

ولم يجئ ذكر الملازم فوريس في الحديث غير مرة واحدة. وكان بونابرت هو الذي أشار إليه، دون أن يذكر اسمه صراحة، إذ قال لها:

سأقيم مأدبة لبعض السيدات القادمات من فرنسا إلى القاهرة أو على الأصح للمتزوجات منهن وسأدعو معهن أزواجهن. وستكونين طبعا بين المدعوات، وهكذا، لن يجد أحد سببًا للانتقاد!

وحينما نهضت بولين للانصراف، بعد هذه الزيارة الثانية، كانت الصلة التي بينها وبين بونابرت، قد توطدت عن ذي قبل وشعر كل منهما بالاطمئنان إلى الآخر، وقبل أن يشيعها إلى حجرة الانتظار، فتح درج مكتبه وتناول منه علبة أنيقة أخرج منها سوارًا من الذهب على هيئة حية عيناها ياقوتتان ثم أمسك يد بولين، ووضع في معصمها السوار، فقالت بلهجة تنم عن التأثر والحياء:

آه.!. هذا جميل جدا.. جميل أكثر مما يجب!

فابتدرها بونابرت قائلا:

كلا يا بولين الساحرة، ليس هناك فيما يختص بك شيء جميل أكثر مما يجب! فالحية رمز الحكمة والحذر والغموض، وأنا أهديها إليك للإعراب

عن عواطفي التي يجب ألا يعرفها أحد الآن!

وابتسمت بولين شاكرة، ثم غادرت القاعة إلى حجرة الانتظار خارج القصر عبر الممرات التي صارت خبيرة بها واحتفظت بالسوار في معصمها حتى وصلت إلى ميدان الأزبكية ونزعت السوار من معصمها، ثم ما كادت تصل إلى المنزل، حيث كانت تنتظرها خادمتها. حتى خبأت هدية بونابرت في صندوق كانت تحفظ فيه بعض أغطية الفراش!

بعد أربعة أيام أخرى، زارت بولين القائد العام مرة ثالثة في قصر الألفي بك وقد توجهت إلى القصر في هذه المرة وهى تعتقد أنه لم يبق أمامها إلا أن تتمنى عليه أي شيء، فتنال فورا ما تتمناه. ولكن بونابرت جعلها تنتظر ساعة كاملة في الحجرة الصغيرة. ولما دعيت إلى الدخول إلى المكتب قابلها في جفاء ملحوظ ووجدته مقطب الجبين عصبي اللهجة. كما أنه لم يمسك يديها بين يديه ولم يقدها إلى تلك الفرجة التي أمام النافذة، بل تركها واقفة، وقال لها بصوت ليس فيه شيء من الرقة والملاطفة:

لماذا تأخرت في المجئ؟

واعتذرت بما خطر ببالها لأول وهلة ودعت اعتذارها بضحكتها الحلوة التي طالما كتب لها الفوز بفضلها، ولكن بونابرت لم يقتنع.

وقطع حديثها قائلا:

اسكتي!.. إنك تهزأين به!

فبدت الدهشة على وجهها. وقالت له:

كيف؟ أيمكن أن أسمح لنفسي بأن أهزأ بك؟.. أنا المعجبة بك إعجابًا لا يقف عند حد؟

لا، إنك لتدعين هذا أيضا!

وهمت بأن تدفع عن نفسها هذا الاتهام، مؤكدة أنها تحبه صادقة مخلصة. ولكنها لم تكن واثقة بعد من عاطفتها، فأبت عليها صراحتها أن تفوه بالكلمة العالقة بطرف لسانها. غير أنا فعلت ما فعلته من قبل، في حديقة تيفولى، يوم التقيا للمرة الأولى، فوضعت يدها على ذراع بونابرت ورفعت نحوه عينيها الزرقاوين الصافيتين!

على أنه استطرد قائلا، دون أن يلطف لهجته:

إنه ليسرني أن أصدقك. ولكن يجب قبل هذا أن تعطيني دليلا على صدقك. أن المائدة التي حدثتك عنها ستقام قريبا. وستخصرينها إليس كذلك؟

فقالت بلهجة التلميذة المخطئة التائبة:

نعم. سآتي مع زوجي كما اتفقنا!

لا يهمك أمره وستصل إليك الدعوة بعد أيام، ولكن، أصغى إلى جيدا. لا تندهشي من أي شيء قد يحدث في التاسع عشر من نيفوز وأذكري أنني أطلب منك دائمًا ثلاثة أشياء: الانتظار والكتمان والطاعة، أسمعت؟

وخيل إليها، أمام هذا الغضب المكظوم، الذي تبينته في وجه بونابرت

ولهجته، أن أحلامها تنهار.!. فخارت عزيمتها وخضعت مستسلمة، راضية بكل شيء، وأجابت قائلة:

سمعت وسأطيع!

وشيعها إلى الباب، بل دفعها إليه دفعًا وهو يقول:

هيا، اذهبي الآن! لدي أعمال كثيرة!

ولكنه، قبل أن تجتاز عتبة الباب، أمسك يدها وبحركة عنيفة، وضع في إصبعها خاتمًا تتلألأ في وسطه ماسة كبيرة!

رسول إلى باريس

لم تندهش بولين ولم يدهش زوجها، حين وافهما إلى البيت العربي الصغير الذي يقيمان به في حي الحسين، رسول من مركز القيادة العامة. يحمل بطاقة كتب فيها: "المواطن والمواطنة فوريس مدعوان للجلوس إلى مائدة القائد العام، في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٩ فريمير".

وكان سرور جان فوريس عظيمًا بهذه الدعوة وراح يفكر في الشرف العظيم الذي منح له. وكيف أنه وهو ملازم بسيط في إحدى كتائب الجيش، ولم يقم في حياته بعمل ممتاز يلفت إليه الأنظار. قد حظى من دون رفاقه الضباط بهذه المجاملة التي لها قيمتها. ولو أن جان فوريس طاوع نفسه، لرفع صوته بالغناء، بل لسارع إلى رفاقه الذي لم يسعدهم الحظ بما أسعده به وتباهى أمامهم بذلك الشرف العظيم الذي حصل عليه. ولكنه من ناحية أخرى، كان ينظر إلى الدعوة كأنها حادث طبيعي لابد منه ولا سيما بعد أن أكدت له بولين أن هذه الدعوة ستصل! وعلى هذا، كتم الخبر عن الضباط الآخرين في الكتيبة. أما في بيته، فقد اكتفي بتقبيل بولين والتعبير لها عن شكره قائلا:

إذا كنا سنصبح من المقربين إلى بونابرت، فالفضل عائد إليك، كما أنك ستكونين صاحبة الفضل أيضًا في حصولي قريبا على رتبه كابتن!

فابتسمت بولين ابتسامة مبهمة وقالت له:

طبعًا يا صديقي، الفضل عائد إلي أنا.!.

ومنذ تلك الساعة، لم يتحدث الزوجان إلا عن الاستعداد لتلك المأدبة، فأرسل فوريس ثوبه العسكري إلى خياط ليصلح من شأنه مرة أخرى وعهدت بولين في إعداد ثوب المأدبة إلى خياطة بارعة خبيرة بأحدث الأزياء في باريس.

وكان ذلك بعد أن مضى على الحملة في مصر أكثر من خمسة أشهر، فأصبحت القاهرة شبيهة من وجوه كثيرة، بعاصمة أوروبية في الشرق. وبرغم الحصار الذي ضربه الأسطول البريطاني على سواحل مصر، كانت بعض السفن الفرنسية تفلت منه بين وقت وآخر. حاملة إلى الفرنسيين المحصورين في مصر بعض السلع ولفيفًا من التجار والصناع والخياطات والعاملات. كما وفد على مصر بعض التجار اليونانيين، فكثرت المتاجر في القاهرة وتكدست فيها السلع على اختلاف أنواعها وقد أوصت بولين خياطتها بصنع ثوب من الحرير الدقيق الأخضر المموه بخيوط الفضة، لأن هذا الزي ابتكرته في باريس أخيرًا المواطنة جوزفين بونابرت. وكذلك تشبهت بولين بجوزفين في شيء آخر، وهو أنها لم تدفع ثمن الثوب نقدًا، بل وعدت بدفعه فيما بعد!

وكان الوقت ضيقًا، فاجتهدت الخياطة وأنجزت الثوب في الموعد المحدد وأبدى فوريس إعجابه بهذا الثوب قائلا لزوجته:

ستكونين أجمل المدعوات إلى المأدبة!

ودخل عليهما الملازم جاكومان في هذه اللحظة، فلم يتمالك فوريس نفسه وأطلع صديقه على الأسباب التي دعته إلى العناية بهندامه وهندام زوجته. ولم يكتم جاكومان دهشته، لأنه لم يكن صاحب مصلحة في ذلك، ولهذا ظل محتفظا بصفاء ذهنه وقوة بصيرته وميله إلى الشك والظن. ثم تذكر ما أسرته إليه بولين في تلك السهرة التي قضاها معها في حديقة المنزل الصغيرة، فقال لصديقه:

فوريس، أسمح لي بأن أقول لك أنك مخطئ!

مخطئ؟ في أي شيء؟

فامتعض فوريس، ورد عليه قائلا:

إنك تضحكني! ألك أن تشرح لي لماذا أنا مخطئ؟

لأنه ليس من شأننا، نحن الضباط الصغار، أن نعاشر العظماء!

فمرتباتنا ضئيلة. ولهذا، فإما أن نقف منهم موقف الأذلاء أو أن نقدم على الإنفاق أكثر مما نستطيع، فنضطر إلى الاستدانة. وعلى كل حال، ليس في ذلك خير لنا!

وكان جاكومان حذرًا، فلم يذكر الأسباب الأخرى التي تثير مخاوفه ولكن فوريس لم يقره على رأيه وقال له:

كن مطمئنًا علي من هذا القبيل، أليست بولين بجانبي تؤازرني وهي أشد الزوجات إخلاصًا، ثم إنها ستحصل لي على الترقية اللزمة ومن يدري؟ فقد تتمكن من إيجاد علاقات بيني وبين أحد موردي الجيش. ألا تعلم أن

الاتفاق مع أحد هؤلاء الموردين قد يدر أرباحًا طائلة؟

فتمتم جاكومان قائلا:

هذا ما أخشاه!

وما الذي تخشاه؟

أن تضطر زوجتك إلى التدخل في أعمالك

وفي هذه المرة أيضا، لم يفهم فوريس! فصاح ضاحكًا:

إنك تضحكني! إن زوجتي تفوقنا جميعًا براعة ودهاء!

لم تكن بولين قد اشتركت في الحديث حتى تلك اللحظة. بل ظلت تخفي وراء ابتسامتها ما أثارته عبارات جاكومان في نفسها من امتعاض ولكنها رأت في النهاية أن لابد لها من أن تقول كلمتها، ولكن على طريقتها الخاصة، فاقتربت من جاكومان، وقالت له بصوت يغريه بالرد:

لم تحدثنا من زمن بعيد عن حبيبتك لوسيل. أما جاءتك أخبار منها؟

وهكذا استحوذت على عقل الفتى العاشق، فتنهد وقال:

وأسفاه.!. إننى منذ نزولنا بمصر، لم أتلق منها غير رسالة واحدة، ولابد أن تكون الرسائل الأخرى قد وقعت في أيدي الإنجليز خلال الطريق. وإنني لأتألم من هذا الصمت الطويل ولكن ثقتي باقية، وأملي أيضا باق. فأنا أحب لوسيل اليوم، كما أحببتها في اليوم الأول للقائنا بباريس وأعتقد أنها تحبني حبا لا يمكن معه أن تنساني!

وهكذا مضى الشاب يتحدث عن غرامه ولا شيء غير غرامه وأفلحت بولين في صرف الحديث إلى شأن آخر عن دعوة بونابرت!

وأخيرا، جاء اليوم السابق ليوم الحفلة. وكان كل شيء قد أعد على أحسن وجه لذهاب الزوجين فوريس وبولين إلى المأدبة.

وفيما هي مستلقية على أريكتها، مستسلمة لأحلامها، إذا بصيحات عالية تمزق السكون، وما هي إلا لحظة حتى دخل الحجرة جان فوريس ثائرا هائجا وألقى إلى زوجته بورقه كان يحملها، ثم قال وشفتاه ترتعشان من الغضب:

اقرئي!.. هذا أمر تلقيته الآن من القيادة العامة!

فأخذت بولين الورقة وقرأت فيها: "صدر الأمر إلى المواطن فوريس، الملازم في كتيبة القناصة الثانية والعشرين، بالذهاب في أول مركبة إلى الإسكندرية والإبحار منها على سفينة سيعينها له قائد القوات البحرية وسيحمل الملازم فوريس معه خطابات لا يسمح له بفضها إلا بعد أن يصبح في عرض البحر. ويسلم إليه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك للإنفاق منها في المهمة التي يسافر من أجلها".

وكانت هذه الورقة تحمل التوقيع الآتي: "بأمر القائد العام."

وضرب فوريس الأرض بقدميه وسأل زوجته:

ما رأيك في هذا؟

وتذكرت بولين قول بونابرت لها "لا تندهشي من شيء قد

يحدث!..". فأدركت معنى هذا الأمر الصادر إلى زوجها بوجوب الإبحار حالا: فقد أراد بونابرت بإرسال الملازم فوريس إلى فرنسا أن يتخلص من زوج مزعج!

ومرة أخرى تصنعت بولين السذاجة والبراءة وأجابت زوجها قائلة:

هذا فظيع، أواثق أنت من أنك لست مخطئا؟.. يجب أن تذهب إلى مركز القيادة العامة وتطلب مزيدًا من الشرح!

أنني ذاهب في الحال!

وانطلق إلى الخارج شاتمًا مزمجرًا واستلقت بولين من جديد على أريكتها مستسلمة لحكم القدر.

ولما عاد فوريس بعد ساعة، كان اليأس قد حل في نفسه محل الغضب، فقد استقبله في مركز القيادة الجنرال برتبة وأكد له خبر المهمة التي عهد فيها إليه وهنأه بوقوع الاختيار عليه. وبحظه السعيد بأن يرى فرنسا، ثم سلمه أمرًا صادرًا من بونابرت، وفيه التعليمات الآتية:

"إن السفينة التي ستبحر عليها ستحملك إلى جزيرة مالطة وسيضع قائد البحرية في الجزيرة تحت تصرفك سفينة أخرى تحملك إلى ميناء في إيطاليا، أوفر أمنًا من غيره. ومن هناك تذهب بطريق البر وبسرعة فائقة إلى باريس، حيث تسلم الرسائل التي تحملها على غير انتظار أثناء قيامك بمهمتك".

ودفع إليه برتبه بالأوراق المعدة لإرسالها إلى حكومة الديركتوار لو أن

بولين كانت ستبحر مع زوجها، لصار كل شيء في نظره على خير ما يرام ولكنه ما كاد يفكر في هذا ويلمح به أمام الجنرال برتبه حتى أسكته هذا معارضًا. قائلا:

إن الأمر بالإبحار صادر إلى الملازم فوريس فقط ولا يسمح بقيادة البحرية بالإسكندرية بأن تدع أي امرأة تبحر من مصر!

ولما أبدى فوريس قلقه على مصير بولين في أثناء غيابه، سارع برتبه باسم القائد العام– إلى تهدئة خاطره، قائلا له:

سافر مطمئن البال، فسوف نسهر عليها!

ونقل فوريس هذا الحديث إلى زوجته، يتجاذبه عاملا: عامل الزهو باختياره للقيام بمهمة سرية خطيرة، وعامل القلق على زوجته.

ثم تغلب الزهو في نفسه على القلق ولكنه أبى التظاهر بذلك، فتصنع لهجة البطل المقبل على التضحية بنفسه، وقال لها:

ما دام لابد من ذلك، فسأخضع للأوامر، متحملًا أشد الحزن على فراقك!

وتصنعت بولين بدورها التألم لفراقه. وقالت:

نعم، ما دام لا بد من ذلك، فيجب أن تذهب. وفضلا عن عهدي لك بأن أتحمل الفراق المؤلم صابرة، فإن مما يعزينا معا أنهم سيحفظون لك الجميل على قيامك بمهمة على جانب عظيم من الأهمية.

وحينما تعود إلى فرنسا وستعود حتما، فإن ترقيتك إلى رتبة كابتن

ستكون في انتظارك هنا!

ولم يجب فوريس وبقي هنية يفكر، ثم سألها!

وأنت؟ ماذا تصنعين أثناء غيابي؟

أنا..؟ ماذا تريد أن أصنع؟ سأرضي بحكم القدر وأعد الأيام في انتظار عودتك!

فلامس الشك ذهن الزوج الذي لم تساوره الظنون من قبل وسأل أيضا:

تنتظرين هادئة ساكنة؟

آه، جان... كيف يمكنك أن تظن عكس هذا.؟. اذهب مطمئنًا وكن على يقين من أنك ستجدني كما أنا الآن!

غير أن مخاوف فوريس جعلت تزداد ملاحظات صديقة جاكومان التي صرح بها. والتي أشار إليها من طرف خفي، فما قيمة الفضيلة عند المرأة وما قيمة الفضيلة عند زوجته بالذات، تلك الزوجة التي يثق بها ثقة كاملة. إذا تكاتفت الحوادث لتهديدها بالخطر؟

شعر فوريس بالغيرة وندب إلى نفسه، ولكنه لم يبح بذلك. فقال لزوجته:

لا يليق في غيابي أن تذهبي وحدك إلى المجتمعات والحفلات والأعياد. أما المأدبة التي تقام عند بونابرت غدا، فأفضل ألا تذهبي إليها!

فأرخت بولين ذراعها العارية التي كانت تسند بها رأسها، وأجابت

قائلة بلهجة ثابتة:

هذا ما عولت عليه وسأبحث عن عذر أتذرع به أمام القائد العام، لا أريد أن أذهب ولن أذهب!

فارتاح فوريس بعد هذا التوكيد وطبع قبلة على جبين زوجته وأسرع، عملًا بالأمر الذي تلقاه إلى إعداد لوازم السفر، تأهبًا للرحيل في اليوم ذاته!

فنجان قهوة

تناولت المواطنة زوجة الجنرال فردية قدح النبيذ الموضوع أمامها وشربته مره واحدة كما يفعل الرجال، ثم لقلقت بلسانها وقالت:

إن هذا النبيذ من أجود الأنواع ولكنه حلو أكثر مما يجب!

فمال إليها بونابرت وقال:

هذا نبيذ قبرصي وقد جاءني منه برميل كامل. هدية من تاجر يهودي وصل أخيرًا من جزيرة قبرص وفتح حانوتًا في القاهرة. وقد قبلت الهدية لكنني دفعت ثمنها وأعتقد أن هذا النبيذ سيعجب السيدات اللواتي عزمت على دعوتهن إلى مثل هذه المأدبة مرة كل عشرة أيام!

فقالت زوجة الجنرال:

أما أنا فلست من السيدات!

آه.؟!.

أردت أن أقول: إنني لست من السيدات العاديات!

وكان الجنرال فرديه زوجها جالسًا في الجهة المقابلة من المائدة فهمهم قائلا لزوجته:

بيانكا..! ماذا تقولين؟.. بيانكا!..

وكان الجنرال فرديه قد عرف زوجته هذه أثناء حروب إيطاليا، حيث كانت مغنية في مسارِح ميلانو. فرآها وأحبها وخطفها وتزوجها بسرعة فائقة. وهي طويلة ممتلئة الجسم، قوية العضلات، قاتمة الشعر. سمراء اللون، كثيفة الحاجبين والأهداب، تبدو كأنها رجل لا امرأة.

وقد رافقت زوجها فعلا كرجل منذ زواجها؛ فهي واحدة من النساء الثلاثمائة اللواتي صعدن خلسة إلى السفن التي أبحرت إلى مصر. وبعد نزول الجيش إلى البر، قطعت الطريق مشيًا على قدميها مع الفرقة التي يقودها زوجها ونامت على الأرض وأمسكت بالبندقية وأطلقت النار كلما سنحت لها فرصة لذلك.

وقد ألفت التأنيب من زوجها الجنرال، فتظاهرت بأنها لم تسمعه واستطردت تقول لبونابرت:

نعم، لست امرأة عادية، بل أنا أشبه بالجنود من رجالك يا جنرال، فأنا أفضل النبيذ الفرنسي على هذا النبيذ القبرصي. ولو كان لدينا منه شيء أثناء اجتيازنا الصحراء من الإسكندرية إلى مصر لساعدنا ذلك على تحمل المشقات!

كانت المواطنة فرديه جالسة إلى يمين الجنرال بونابرت، فالتفت إلى جارته الجالسة إلى اليسار، وسألها:

وأنت أيتها المواطنة، ما رأيك في نبيذ قبرص هذا؟

فأجابت بولين فوريس بلهجة صادقة:

حقا يا جنرال، إنه يعجبني كثيرا!

وكان زوجها الملازم فوريس قد رحل عن القاهرة في اليوم السابق، بعد وداع مؤثر في طريقه إلى الإسكندرية. وما كاد الزوج يبتعد، حتى نسيت الزوجة وعدها له ولم تعد تعبأ به. فإن الأقدار في نظرها قد أصدرت حكمها!

لقد سافر فوريس إلى فرنسا ولا يعلم غير الله متى يعود، فهي إذًا حرة، وما دامت حرة، ففي وسعها أن تصنع ما تريد وتخرج من مخبئها الحلي التي تلقتها من بونابرت، كما أن في وسعها أن تذهب إلى المأدبة في قصر الألفي بك.

وذهبت في الموعد المحدد واستقبلت كما يستقبل كبار المدعوين، بل كما تستقبل الملكات. فقد خف بونابرت إليها وأمسك بيديها وهنأها على ثوبها. دون أن يعلم أن زوجته جوزفين كانت ترتدي ثوبًا مماثلًا له، على بعد ستمائة فرسخ من القاهرة، وابتسم ابتسامة ذات مغزى، عندما وقع نظره على الخاتم في إصبع الحسناء والسوار في معصمها.

وكان المدعوون مجتمعين، فدخلوا إلى القاعة المجاورة حيث مدت المائدة، وهم: الجنرال برتيه رئيس أركان الحرب، والجنرال كفاريللي المعروف بالرجل ذي العكاز، والجنرال ديسنج، قائد حامية القاهرة والمرافقان جونو ودوروك، والمواطن فوديه من أعضاء المعهد المصري. وبوريين، أمين السر

الخاص، والجنرال فرديه وزوجته بيانكا السمراء التي ليست امرأة عادية!؟

وعلى هذا، لم يكن في المأدبة التي كان يجب أن تدعى إليها نساء كثيرات، غير امرأتين اثنتين، وما أعظم الفارق بينهما، فإحداهما شديدة السمرة أشبه بالرجل منها بالمرأة، والأخرى شقراء، بضة الجسم لعوب، وافرة الأنوثة!

وبيانكا لا تهتم بغير زوجها من الرجال. والرجال، من ناحيتهم يعاملونها كأنها واحد منهم! وفي اللحظة التي نحن فيها، كأن الرجال يصغون إليها لأنها كانت تتكلم وتتكلم بصوت مرتفع وهي تستعيد ذكرياتها في الحملة الأخيرة وتتحدث عن نزول الفرقة التي يقودها زوجها على شاطئ الإسكندرية وعن الليلة الأولى التي قضتها في العراء والمناوشات التي وقعت في الصحراء والزحف على القاهرة، في جو حالق، بلا ماء ولا زاد، إلى أن قالت:

لن أنسى العدس أبدا، العدس الذي كنت أغليه في الماء وأكله مع الخبز العفن ومع ذلك لم أدع للوهن منفذًا إلى نفسي أن النساء الأخريات فضلن البقاء في الإسكندرية في انتظار تطور الحوادث. أما أنا فكنت أعاني المشقة مثل جنودك يا جنرال وكنت أتعذب مثلهم. وأقاتل مثلهم، فأنت ترى إذًا أنني لست "سيدة" كما تقول. وعلى كل حال أظن أنني المرأة الوحيدة التي رافقت الجيش في الصحراء!

فقاطعها صوت رقيق، هو صوت بولين قائلة:

عفوا أيتها المواطنة، فأنا أيضًا رافقت الجيش في الصحراء؛ فقد سرت

مع الفرقة الخفيفة التي قطعت الطريق بلا خيل مشيا على الأقدام إذا كنت لم أشترك في القتال، فقد شقيت على كل حال وتعذبت!

فأبدت بيانكا فجأة اهتمامًا كبيرًا بهذه المرأة الشابة التي تبدو هزيلة ضعيفة وقالت مستغربة: "أنتِ؟"

وصاح بونابرت أيضًا وهو يميل إلى جارته:

أنتِ؟ أصحيح هذا؟

صحيح، نعم صحيح!

إذًا. قصي علي في الحال قصة زحفك على القاهرة!

سمعا وطاعة:

وراحت بولين تروي ذكريات شهر مسيدجور في الصحراء ولكن دون أن ترفع صوتها أو أن تفرض على المدعوين الإصغاء إليها كأنها تتكلم لكي يسمعها بونابرت وحده، ونسي بونابرت بقية مدعويه بلا استثناء المواطنة فرديه، فحصر أنظاره في بولين، لا يصغي لغيرها ولا يحيا إلا من أجلها!

وابتسمت بيانكا؛ لأنها أدركت لعبة بولين فوريس وجارها وجعلت النظر إليهما مسرورة متسامحة وتكهنت بما سوف يحدث، فإن بونابرت العاشق لم يجد أمامه امرأة عاصية، وفي انتظار ذلك، على المدعوين أن يسهلوا للعاشقين الاسترسال في المغازلة، لا أن يفسدوها عليهما. وكان العشاء قد أشرف على نهايته وأخذ الخدم يطوفون بالفاكهة وأنواع الحلوى

المعطرة. وأرادت بيانكا أن تلفت الأنظار إلى نفسها وتترك بولين ماضية في حديثها بصوت خافت، فاستطردت بصوت قوي:

إنني أذكر أيضًا معركة الأهرام؛ فقد اشتركت فيها ضد مماليك مراد وإبراهيم، كنت بجانب زوجي، فانتزعت بندقية جندي جريح...

ولم يصغ بونابرت إلى بيانكا، فقد محيت من ذهنه معركة الأهرام ولم يعد هذا الاسم نفسه يحرك فيه الذكريات. فإن انتباهه منصرف إلى اللحظة التي هو فيها، إلى ما يمكن أن يحصل عليه اليوم، اليوم بالذات، من جارته الشقراء!

وبدا عليه نفاذ الصبر، فقطب جبينه وجعل يضرب بإصبعه على المائدة.

وطاف الخدم بفناجين القهوة، قهوة سوداء جدا ساخنة جدا، معطرة جدا، وبولين لا تزال تتكلم، بصوتها الناعم ذي النبرات المؤثرة. فقد رجعت بالحديث إلى الوراء إلى الماضي وتجنبت ذكر زوجها أو الإشارة إلى وجوده وراحت تقص قصة طفولتها في بامبير وصباها في كركاسون وحياتها في حانوت "الوردة الفضية"، ثم قالت في الختام:

في ذلك الوقت، كانت صاحبة الحانوت، وصديقاتى وغيرهن أيضا، يطلقون علي اسم "بليلوت".

وهنا استفسر بونابرت قائلا:

بليلوت؟ ولماذا اختاروا لك هذا الاسم؟

لأن اسم أسرتي "بليل".

أو لأنك جميلة.[1] بل أكثر من جميلة، ساحرة. إن هذا الاسم ينطبق عليك، فأنا أيضًا من الآن فصاعدا، سأناديك "بليلوت".

والتقطت بيانكا اعتراف الحسناء ورد بونابرت، فتوقفت عن سرد ذكرياتها ومالت نحو بولين وخاطبتها قائلة:

نعم بليلوت اسم جميل بلا شك، ولكن، ثقي يا عزيزتي أنهم سيطلقون عليك هنا، وقريبًا، اسمًا آخر!

والتفت بيانكا من جديد إلى المدعوين الذين كانوا يصغون إليها متعمدين واستأنفت حديثها عن معركة الأهرام وعن الدور الذي قامت به فيها.

ولكن بولين سألت جارها:

ماذا تعني المواطنة فرديه بقولها هذا؟

فأجاب بونابرت بلهجة جافة:

لا أدري! إنها امرأة طيبة وشجاعة ولكنها حمقاء، فلا تهتمي بها، بل اهتمي بي أنا!

---

(١)"بيل" بالفرنسية "جميلة".

وفي هذه اللحظة، أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد؟ بدرت من بونابرت حركة عنيفة، فلمست يده اليسرى فنجان القهوة الموضوع أمامه وانقلب الفنجان وانسكب السائل الأسود على ركبة بولين، فلطخ الثوب الأخضر الجميل، المموه بخيوط الفضة وانطلقت من فم الحسناء صرخة ناعمة:

آه!..

ونهض بونابرت عن مقعده معتذرًا:

عفوا أيتها المواطنة!

وبدا عليه الخجل والأسى، فأحاط بضحيته قائلا:

لا تأسفي على شيء تافه؛ فالضرر يمكن إصلاحه إذا لم نضيع الوقت، فتعالي معي.. اتبعيني.. فسوف نزيل بالماء هذه البقعة البشعة!

فأطاعت وتبعت القائد إلى خارج القاعة، ثم في الممرات المظلمة المتشابكة.

وكانت قد شربت كثيرا من نبيذ قبرص ومن غيره أيضًا، وأحست بدوار في رأسها، فتعثرت قدماها وأحاط بونابرت خصرها بذراعيه ليسندها ويساعدها على السير ووجدت في نفسها بقية من قوة لتسأله:

إلى أين تذهب بي؟

فأجاب بصراحة لم يعد في وسعه كتمانها:

إلى حجرتي!

ولما عاد بونابرت والحسناء، بعد ساعة، لموافاة المدعوين الذين ظلوا جالسين حول المائدة، أمام فناجينهم الفارغة، كانت بيانكا قد انتهت من حديثها وكان الخطيب في تلك اللحظة المواطن فوريه، عضو المعهد المصري، الذي كان يشرح بلهجة رصينة، منشأ الأهرام ويقدر تاريخ بنائها ومساحة جوانبها، ويذكر أرقامًا لم يفكر أحد في المناقشة في صحتها.

وتظاهر الجميع بأنهم يصغون إليه باهتمام عظيم ولم يبد على أحد منهم أنه تنبه إلى غياب بونابرت وبولين الطويل، ولا إلى عودتهما!

أسد يأسر الصياد

مركبه البريد مسرعة في طريق الإسكندرية والملازم فوريس في مقعده مستسلم للنعاس وقد ضم إلى صدره الحافظة التي تحوي الأوراق الخاصة بمهمته والوثائق التي سلمها إليه الجنرال برتبة. ليسلمها إلى حكومة الديركتوار والمركبة ترتج في الطريق المرصوف بالحصى منذ عهد قريب.

وجعل الضابط يغمض عينيه ثم يفتحهما وينظر إلى كثبان الرمال المتتابعة وأشجار النخيل المتباعدة ومياه النيل القاتمة ولم تعد إلى ذهنه ذكريات الأيام الحارة والليالي الباردة، خلال الزحف على القاهرة. ولكنه كان يذكر بولين زوجته ويتنهد.

نعم، كان فوريس يفكر في منزله الصغير بحي الحسين وفي وداع زوجته الشابة له حين فارقها وفي القبلة الأخيرة التي تبادلها معها. وهو يعد الأيام والعشريات والشهور التي سوف تنقضي قبل أن يتمكن من الوصول إلى فرنسا وإنجاز مهمته والعودة إلى مصر ولقاء زوجته! وبدت له هذه المدة طويلة جدًّا، فتنهد من جديد!

إن شجاعته تخونه من وقت إلى آخر، فيستعيدها بالتفكير في الوعود التي قطعت له ورتبة الكابتن التي سيفوز بها بعد عودته!

وصل فوريس إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أيام من رحيله عن القاهرة،

فذهب مباشرة إلى مركز القيادة في المدينة، حيث استقبله الجنرال مارمون نفسه، قائد الحامية، وأطلع على الأمر الصادر إليه، ثم قال:

ما دام لابد من إبحارك، فستبحر في الحال، فالسفينة "شاسور" في الميناء الآن وتوشك أن ترفع مراسيها، وهذه السفينة من السفن الباقية تحت تصرفي. وسأعطيك كلمة إلى الربان لورنس الذي يقودها وسيسافر في أقرب وقت!

فانحنى فوريس ومد إليه مارمون يده مصافحًا وهو يقول:

أرجو لك التوفيق، أيها المواطن!

ولم تكن هناك غرابة في أن يتمنى قائد من قواد الجيش توفيق ضابط الجيش يضطلع بمهمة محفوفة بالخطر، ولكن زوج بولين تضايق من تلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على فم مارمون وهو يفضي إليه ابتساماته، على أنه سارع إلى الميناء، حيث كانت السفينة "شاسور" رأسية بجانب الرصيف. وهى سفينة صغيرة مسلحة تسليحًا ناقصًا، فاستقبل الربان لورنس الراكب الجديد بدوره واطلع على الأمر الذي سلمه إليه فوريس، ولم يناقشه في شيء، بل قال:

سنبحر عند مقتبل الليل، بحيث نستطيع الابتعاد عن الساحل تحت ستر الظلام، فهذه الوسيلة الوحيدة لتجنب السفن الإنجليزية، فكن مستعدًا!

لم يكن أمام فوريس شيء يصنعه في الإسكندرية، فبقي على ظهر السفينة، حيث عرض عليه الربان أن يقتسم معه حجرته وطعامه.

وصعد إلى السفينة في بحر النهار فريق من المرضى والجرحى والمشوهين وجميعهم فرحون بالعودة إلى فرنسا. ولما أقبل الليل، نشرت القلوع وخرجت السفينة من الميناء واتجهت إلى عرض البحر.

ومر الليل دون أن يحدث أي حادث. ولما طلع النهار، كانت سواحل مصر قد اختفت عن الأنظار ولم تعد العين تقع إلا على مياه البحر المتوسط الزرقاء.

وفض فوريس الظرف الخاص الذي يحمله وكان من بين التعليمات التي في داخله، أنه في حالة وقوع الرسول في قبضة الإنجليز، يجب عليه أن يعدم التقارير المرسلة إلى الديركتوار وتمنى فوريس ألا تضطره الظروف إلى تنفيذ هذا الأمر. أما الآن، فلا شيء يشغل باله وليس عليه إلا أن يطوف على ظهر السفينة ويرقب الأفق البعيد.

وتذكر رحلته السابقة على ظهر السفينة "لافرنجانت" والآمال الحلوة التي كانت تداعب نفسه في ذلك الوقت وما كان أسعده وهو يهبط إلى جوف السفينة لملاقاة بولين في مخبئها! إنه كان عاشقًا ومعشوقًا!

وهدأت الرياح في المساء ولم تعد السفينة تتقدم إلا ببطء على صفحة الماء. وبعد تناول العشاء، صعد فوريس إلى سطح السفينة وتمشي بعض الوقت ثم آوى إلى الفراش الذي وضعه الربان تحت تصرفه.

وكان الضابط نائمًا ملء جفنيه، حين استيقظ فجأة على أصوات غير مألوفة ونداءات مصحوبة بالضجيج. ولم يكن الربان لورنس في حجرته، فأسرع فوريس إلى موافاته على سطح السفينة، وسأل بلهفة:

ماذا حدث؟

فكان جواب الربان:

حدث أن مهمتك قد انتهت، على ما أظن!

كيف ذلك؟

لقد وقعنا.. وقعنا في الفخ مثل الفئران!

وقعنا؟

نعم، في قبضة الإنجليز، فالليل حالك الظلام لا نجوم فيه ولم نتمكن من رؤية السفينة الحربية الإنجليزية التي قطعت علينا الطريق، وها قد وضعنا أنفسنا في متناول مدافعها.

ولكن، في وسعنا أن نقاوم!

نحن؟ بالمدافع الستة الصغيرة، مقابل سفينة حربية فيها ثمانون مدفعًا على الأقل؟ كلا! إن الشرف العسكري لا يحتم الإقدام على مثل هذا العمل الجنوني. فعلينا أن نرضى بما لا بد من وقوعه. أنا فيما يتعلق بك أنت، أيها الملازم المواطن، إذا كان لديك وثائق سيجب إعدامها؛ فإن الوقت قد حان.

أبى فوريس أي بادئ الأمر أن يصدق ما حل به من مصير مشؤوم ولكنه اضطر إلى الاعتراف بالواقع، عندما رأى السفينة "شاسور" والسفينة الحربية الإنجليزية، أصبحنا جنبًا إلى جنب وأن البحارة الإنجليز بدأوا

يداهمون السفينة الفرنسية، حاملين الفؤوس والغدارات!

وصاح بحار على مقربة من فوريس، قائلًا:

ما أغرب هذا وما أسوأ حظنا. فإننا على سفينة تدعى "شاسور" وقع في أسر سفينة إنجليزية تدعى "ليون"، فالآية تنقلب إذًا والأسد يبدو أمكر من الصياد[1].

أسير! فوريس أسير! حقًّا، إن الشؤم يلاحق زوج بولين، فبالأمس كان يتنهد ويعد الشهور الطويلة التي ستنقضي قبل أن يعود إلى زوجته. والآن يرى مصيره أشد وطأة وأبعد فظاعة؛ الأسر في إنجلترا والأشغال الشاقة في بورتسموث أو شاثام وقد يستغرق ذلك سنوات عديدة!

غير أنه لم ينس في غمرة يأسه الأوامر الصادرة إليه، بل سارع إلى حجرة الربان وأخذ الأوراق من الحافظة ومزقها وألقى أجزاءها في البحر من النافذة وما كاد ينتهي من عمله، حتى فتح الباب، ودخل الضابط الإنجليزى قائد السفينة المعادية، ورجا منه بكل أدب أن يتبعه!

ونقل الملازم مع ضابط السفينة "شاسور" والبحارة الفرنسيين إلى ظهر السفينة "ليون"، حيث حشدوا جميعًا في مكان واحد. وأدرك الأسرى، مما رأوه وسمعوه، أن آسريهم تركوا السفينة الفرنسية في عهدة البحارة الذين استولوا عليها وابتعدوا بالسفينة الإنجليزية في ظلام الليل، فإلى أين تتجه؟ إلى أي شاطئ وإلى أي ميناء تقصد؟

---

(1) "شاسوار" بالفرنسية "صياد" و "ليون" بالإنجليزية والفرنسية "أسد".

إنهم يجهلون! ولما طلع فجر اليوم التالي، كانت العين لا تقع أيضًا إلا على الفضاء الأزرق الخالي!

وبعد قليل، حدث ما توقعه الأسرى، فجئ بهم واحدًا بعد آخر، الضباط ثم البحارة والجنود، إلى حجرة الربان المساعد لسؤالهم. وجاء دور فوريس، وقد وطد العزم على عدم ذكر شيء عن مهمته والادعاء بأنه عائد إلى فرنسا في إجازة عادية، ولكنه لم يجد نفسه في حاجة إلى الرد على أسئلة محرجة، فما كاد يدلي باسمه، حتى بدأ الاهتمام على وجه الضابط الإنجليزي الذي كان يجيد التحدث بالفرنسية إجادة تامة، فسأله قائلا:

أنت هو الملازم فوريس، من كتيبة القناصة الثانية والعشرين؟

نعم، أنا فوريس، جان نويل، من مواليد كركاسون.

وبعد سكوت قصير، عاد الضباط يسأل:

ألست متزوجًا؟

نعم، متزوج، منذ أقل من عام واحد. ولكنني أخطأت فرضيت بأن تصحبني زوجتي إلى مصر. أليس الوقوع في الأسر فظيعًا، متى كان الأسير شابًا ومتزوجًا؟ وإذا كنتم ترسلونني إلى إنجلترا، كم من الأعوام سوف تنقضي قبل أن أعود إلى رؤية المرأة التي أحبها؟

شجعه الضابط الإنجليزي على الكلام، بما كان يبديه من إشاراته إيجابية، وسر فوريس أن يتحدث عن بولين ويتجنب الرد على الزمن الذي يفرق بين زوجين متحابين وظل الضابط الإنجليزي يوافق بإشارة. ولم يفطن

فوريس، وهو مندفع في ثرثرته، إلى اللمعان المنبعث من عيني خصمه الماكرتين!

وأخيرا، قال الإنجليزى المهذب:

لم أعد في حاجة إلى معرفة شيء منك، علاوة على ما عرفت، فعد إلى رفاقك، وسأعرض أمرك على رئيسي، وأبلغك القرار الذي سيتخذه بشأنك!

فعلق فوريس نفسه بأمل جنوني لم يفهم مبعثه وشكر الضابط الإنجليزى بحرارة على ما أبداه نحوه من عطف وخرج من الحجرة وهو يكاد يشعر بالفرح.

وأدرك من مركز الشمس أن السفينة تسير جهة الشرق. إذًا فهي لا تتجه إلى إنجلترا.

وبعد ساعة، جاء بحار يدعوه إلى حجرة الضابط البريطاني الذي حقق معه. وما كاد يدخل عليه حتى بادره قائلًا:

يا سيدي، لدي خبر سار كلفت بالإفضاء به إليك، فالسفينة "ليون" ستقوم برحلة على سواحل الشرق قبل أن تعود إلى قاعدتها وقائدها لا يريد أن يربك نفسه بالأسرى إلا إلى حد معين. وقد اتضح له أن مركزك جدير بالعطف. فإذا كنت تتعهد لنا بشرفك العسكري، بأنك في خلال هذه الحرب، لن تعود إلى حمل السلاح ضد إنجلترا، أطلقنا سراحك في الحال.

فأجاب فوريس ذاهلا:

وكيف يطلق سراحي في عرض البحر؟

في الليلة القادمة، سنمر أمام السواحل المصرية وسيحملك زورق في الظلام وينزلك في جهة خالية من الشاطئ.

وكانت مفاجأة أخرى لفوريس. فكيف يتردد بعد ذلك، سيعود إلى زوجته بعد أيام.. حقًّاً إن هذا الحلم جميل.

وعلى هذه كان جوابه أن قال:

إنني أعطيك عهد الشرف كضباط وأنا مستعد لأن أعطيك هذا العهد كتابة إذا شئت!

لا لزوم لذلك يا سيدي، فإن هذا التعهد الشفهي يكفينا، والليلة ستكون حرا طليقًا.

ولما عاد فوريس إلى الاجتماع بالربان لورنس والأسرى الآخرين، رأى من الحكمة إلا يباهى أمامهم بالمعاملة الاستثنائية التي عومل بها ولكنه، في قرارة نفسه، جعل يمجد البحرية البريطانية وضباط صاحب الجلالة الملك، على ما يبدونه من عطف كريم على الأزواج الشبان.

وهل كان في استطاعة فوريس أن يدرك العوامل الحقيقية التي جعلت الإنجليز يتخذون هذا القرار العجيب؟

إن الإنجليز كانت تبث جواسيسها في مصر كما تفعل في معظم أنحاء العالم. وكان الأميرال نلسون، من ناحية أخرى، يحصل على كثير من

المعلومات باستيلائه على ٧٥% من السفن الفرنسية كانت تقع في قبضته. وهكذا علم الإنجليز من البريد الفرنسي المصادر ومن الجواسيس بخبر، غرام بونابرت وتعلقه ببولين فوريس الحسناء، وها هو ذا عدو له المزعج، زوج الحسناء يقع في قبضتهم بعد أن نفاه إلى فرنسا.

وما كاد قائد السفينة "ليون" يعلم بوجود فوريس بين الأسرى، حتى قال مبتهجًا:

يجب أن يعاد هذا الغبي إلى زوجته، فسوف يعطينا فرصة للتسلية. وعلى كل حال، إنها لعبة جميلة نلعبها على بونابرت.

وتم كل شيء حسب قول الضابط الإنجليزى، فإن السفن البريطانية منذ تدمير أسطول الأميرال بروي في معركة أبي قير، لم تعد تخشى شيئًا، بل صارت تروح وتجئ على مقربة من السواحل المصرية في الليل وفي النهار على السواء.

وعلى هذا، لا تكون السفينة "ليون" قد أظهرت شجاعة فائقة فيما أقدمت عليه، يوم اقتربت من الإسكندرية في ظلام الليل وألقت مراسيها ثم أنزل منها زورق يقل جان فوريس.

ووصل الزورق إلى رمال الشاطئ في المكان ذاته الذي نزلت فيه الحملة الفرنسية إلى البر. ولم يكن على زوج بولين إلا أن يقفز قفزة واحدة لكي يقف على اليابسة.

وأصبح فوريس حرًا طليقًا.

عصفور أفلت

أخذ جان فوريس يروح ويجئ على الشاطئ ريثما يطلع النهار، فقد حال برد الليل دون نومه هناك وخشي أن يبتعد عن الشاطئ في مكان لا يعرفه. ولكنه عند الفجر تبين أسوار الإسكندرية وسطوحها ومآذنها اللامعة تحت أشعة الشمس المشرقة. فمضي في الطريق مشيا على قدميه نحو المدينة، من الوجهة العسكرية، فأي أمل له في الترقية، إذا لم يستأنف الخدمة في الجيش؟

إن فوريس لم يفكر في غير الناحية المفرحة من الحادث الذي أسفر عن إطلاق سراحه، فها هو ذا يعود إلى بولين. ليفاجئها ويرتمي في أحضانها.

ولما وصل إلى الإسكندرية توجه مباشرة إلى مركز القيادة، فلم يجد هناك غير بعض الموظفين والكتاب، ولم يخف هؤلاء دهشتهم لرؤية الراكب الذي استقل السفينة "شاسور" داخلا عليهم، بعد أن مضت به السفينة بعيدًا في عرض البحر!. وسأله أحدهم عما يريد، فأجاب فوريس قائلا:

أريد العودة إلى القاهرة في أول مركبة.

وكان الرد أن السماح بهذا من اختصاص الجنرال مارمون وحده. وإذًا لابد لفوريس من الانتظار حتى يأتي الجنرال إلى مكتبه، وجاء الجنرال

أخيرًا، فما وقع نظره على فوريس حتى رفع ذراعيه مندهشاً وصاح قائلا:

أنت؟ كيف هذا؟.. أي شيطان أعادك إلى هنا؟

فقال فوريس هادئًا:

لم يكن شيطانا واحدا يا جنرال بل شياطين، إن الإنجليز هم الذين أعادوني إلى هنا.

ثم أخذ يروي قصته بلهجة الزوج العاشق الذي ابتسم له الحظ والذي لا يقدر العواقب. ولكن مارمون لم يشاطره شعوره، بل كان يهز رأسه من وقت إلى آخر، ثم قال:

هذا حادث مزعج، فقد كلفت القيام بمهمة لم تنجزها بعد وما دمت لم تنجز مهمتك، فإنه لا يسعني أن أسمح لك بالعودة إلى القاهرة. أما الأوراق التي أعدمتها، فسوف نعطيك غيرها. ولا بد أن تبحر سفينة أخرى، آجلا أو عاجلا، محاولة الوصول إلى فرنسا، فعليك أن تبقى في الإسكندرية في انتظار الأوراق والسفينة.

وعارض فوريس قائلا:

إذا لم يكن علي بعد الآن غير الانتظار، فسأنتظر في القاهرة بدلا من الإسكندرية.

ولكن الجنرال لم يعبأ بمعارضته واستطرد قائلا:

هذا غير ممكن أيضًا.

فلجأ فوريس إلى الوسيلة التي ظنها لا تخيب وقال:

إذًا، أسمح لي بأن أعود إلى زوجتي يومًا أو يومين.

فجاءه الرد قاطعا: "كلا.. ولا هذا أيضًا".

فقال فوريس في سذاجة:

كيف؟ أتكون يا جنرال أكثر قسوة من الإنجليز؟

والواقع أن الجنرال مارمون لم يكن في حاجة إلى الجواسيس ولا إلى مصادرة البريد ليعلم الحقيقة. فهو لا يجهل شيئا من الأسباب التي أبعد من أجلها زوج بولين عن القاهرة. ولهذا أنهى الحديث بلهجة لا تقبل الجدل قائلا:

لقد تلقيت أوامر لأنفذها بلا مناقشة وعليك أن تفعل مثلي. ثم إنك بتعهدك للإنجليز بألا تعود إلى حمل السلاح ضدهم، قد وضعت نفسك في موقف حرج. والآن لك أن تنصرف وتنطلق إلى أي مكان شئت، على شرط ألا تغادر الإسكندرية.

وانصرف فوريس ولكنه صمم على عدم الطاعة، فسارع إلى مركز البريد ولم يجد مركبة على أهبة السفر إلى العاصمة، لأن المواصلات بين الإسكندرية والقاهرة كانت مضطربة غير منتظمة، غير أن الصدف ساعدته، فالتقى بأحد موظفي مصلحة التموين وعلم منه أن مجموعة من المراكب الصغيرة ستقلع في اليوم التالي إلى القاهرة، ولم يكن ذلك الموظف يعرف الأسباب التي جعلت فوريس غير مرغوب فيه. وعلى هذا وعده بأن يجد له مكانًا في أحد تلك المراكب.

وفي اليوم التالي، كان فوريس مع ذلك الموظف الطيب القلب في المكان الذي تواعدا اللقاء فيه. وتم كل شيء وفق ما كان يشتهي. ولم يمض قليل حتى كان مرة أخرى فوق سفينة صغيرة تنقله إلى القاهرة في النيل، كما فعل من قبل في شهر مسيدور، وكان مجلسه بها بين أكوام من المعدات الحربية والمواد الغذائية. ثم أدرك بعد حين أن المراكب تسير ببطء وأن الرحلة ستطول كثيراً.

وبعد ستة أيام، رست المراكب في بولاق، ميناء القاهرة النهري وكان ذلك في التاسع عشر من شهر نيفوز، أي في الثامن من يناير سنة ١٧٩٩، وقد انقضى اثنان وعشرون يومًا على مفارقته لزوجته.

وكان الليل قد أقبل حينما هبط إلى البر فاقد الصبر. والقاهرة ترقد تحت سماء تتلألأ فيها النجوم، فانطلق في طريق حي الحسين بين المنازل والحدائق، وخيل إليه وهو مسرع إلى بيته أنه يشتم في الجو رائحة بولين.

وأخيراً، وصل إلى البيت الصغير، فإذا به مغلق الأبواب والنوافذ كأنه مستغرق، هو أيضًا، في يوم برئ هادئ، فطرق الباب الخارجي ثم أعاد الطرق بشدة حتى دوت طرقاته في الفضاء، فأطل الجيران مذعورين من نوافذهم وجعل الضابط ينادي:

أمينة! أمينة! بولين! بولين!

ولما لم يجد غير الصدى، عيل صبره وأعتزم دخول المنزل بأي وسيلة، فأخذ يعالج بسيفه مزلاج إحدى النوافذ حتى فتحها ثم قفز منها إلى الحجرة واتضح له أن بعض قطع الأثاث باقية، وما عدا ذلك، فكل شيء

قد نقل من مكانه.

وساوره شعور فظيع، فانطلق يفتح الأبواب والنوافذ ويطرف في الغرف والسلالم، فإذا بها كلها خاوية خالية.

أما حجرة فوريس بذهول تام، فمضى يروح ويجئ ويضرب الجدران بقبضة سيفه كأنه يريد أن ينتزع منها ردًّا على أسئلته المحيرة.

إنه في ساعة متأخرة من الليل. فإلى من يتوجه بالسؤال، ليطلب عونًا أو نصحًا أو تفسيرًا لهذا السر؟

فكر في صديقه جاكومان وهو يسكن في الحي نفسه في بيت أصغر من بيته وأكثر تواضعًا منه. فسارع إليه وأيقظه بطرقاته العنيفة على الباب وبصياحه وضجيجه، فنهض جاكومان مذعورًا مثل غيره وهالته رؤية ذلك الشبح العائد، فأدخله إلى البيت وانهال عليه بالأسئلة.

وأعاد فوريس سرد قصته وما حدث له في عرض البحر ولكنه فعل ذلك في هذه المرة دون مباهاة، وفي صوت حزين يدعو إلى الشفقة. ثم ختم حديثه قائلا:

تصور مبلغ دهشتي وقلقي!.. كنت أمني النفس بلقاء زوجتي، فإذا بي أجد القفص خاليًا والعصفور قد أفلت.

فاكتفى جاكومان بأن تنهد متأثرًا مشفقًا وأدرك فوريس معنى تنهده، وصاح قائلا:

كيف؟.. أكنت تعلم أن بليلوت ذهبت؟ وهل تعلم أين هي الآن؟

ولم يكن جاكومان على استعداد للقيام بالمهمة التي ألقيت فجأة على عاتقه، فتمتم قائلا:

وأسفاه.. أما حذرتك من قبل؟.. ليس لنا نحن المساكين أن ننتظر خيرًا من عشرة العظماء.

ثم ساد سكون طويل. تذرع جاكومان بعده بالحزم ومضى يردد على مسامع صديقه تلك الإشاعات التي يتناقلها جنود الحامية في القاهرة كما ردد على مسامعه أيضًا الإشاعات التي راجت على إثر المأدبة في قصر الألفي بك وهى في الواقع أقرب إلى الحقائق منها إلى الإشاعات.

فإن زوج جوزفين، بونابرت الطاهر الذليل، قد عزم على خيانة زوجته. وتحقيقًا لهذه الرغبة، وقع اختياره على خليلة أحلها في دار قريبة من قصره، دار عربية، تم إعدادها وتجميلها بأمر منه ولا تزال الأعمال جارية فيها..

فارتعشت شفتا فوريس، وسأل:

وتلك الخليلة هي؟

فاكتفى جاكومان بإشارة جعلت صديقه يفهم كل شيء.

وصعق فوريس وظل لحظة مترنحًا بين الثورة والقنوط ثم تغلب القنوط على الثورة. فألقى بنفسه على مقعد واعتمد رأسه بين يديه وجحظت عيناه وجعل يحدق في رسوم السجادة والمنبسطة على الأرض. وتبين له بوضوح أنه كان زوجًا أعمى البصر والبصيرة، مبالغًا في حسن ظنه، مخدوعًا

وانبعثت من بين شفتيه هذه الكلمات.

كنت أعتقد أنني تزوجت فتاة شريفة.. آه.. إنني لغبي حقًّا وللمرة الأولى، كان فوريس صادقًا في إصدار هذا الحكم على نفسه.

أنطونيوس وكليوباترا

صحت بولين من نومها مبتسمة كعادتها وألقت نظرة من خلال الستائر، فإذا بالنور في الخارج بهيج وضاح، وقالت الحسناء في نفسها: "إن المواطنين في فرنسا وفي هذا اليوم من أيام الشتاء، لا تقع أنظارهم إلا على سماء قائمة، فهم لا يشعرون بما نشعر به من غبطة".

وانعكست صورة بولين في المرآة المعلقة على الحائط أمام السرير، في إطار من خشب الورد ولم تكن المرأة كاذبة، فإن بولين بهية الطلعة ببشرتها الزاهية وشعرها الأشقر البديع وشفتيها القانيتين وذراعيها العبلاوين العاريتين وكتفيها وصدرها الذي يكتف عنه قميص شفاف وهي مسرورة معجبة بنفسها.

ولكنها ألقت نظرة على أنحاء المخدع وراحت تفكر في شيء آخر.

إن هذا المخدع بعكس بقية الحجرات المعدة على الطراز الشرقي، يضم بين جوانبه قطعًا من الأثاث الفرنسي الحديث، فهو مخدع باريسية متأنقة من أبيات الإبداع أرادها وحققها رجل واحد، تمتمت بولين باسمه بين شفتيها:

حقًّا، إن بونابرت هذا لطيف جدا.

قالت بولين هذه الكلمات باللهجة ذاتها التي قالت بها جوزفين بعد

زواجها ببونابرت: "إنني أحبه برغم عيوبه الصغيرة".

ولم تكن بولين مخطئة؛ فإن بونابرت الآن يحب حبا صادقا عميقا وقد ملك قياد الحسناء التي أحبها ومانعته المرأة في بادئ الأمر كانت عاملًا أذكى في صدره نيران الرغبة فيها. ولما فاز بها، لم يسفر فوزه عن خيبة أمل أو عن ميل هجرها بعد، بل إنه رأى آماله تتحقق بواسطتها، فقد أشبعت بحبها ومشاعرها المرهفة ظمأه إلى الحب وقد أنسته زوجته جوزفين الخائنة، فهو الآن منصرف إلى عاطفته الجديدة التي تملكت حواسه ويريد أن يوثق بقيود متينة هذا الحب الذي يربطه الآن بامرأة لم يكن ليأمل الحصول عليها!

وكان أول ما فرضه عليها، أن تقيم على مقربة منه وتكون في متناول يده، في أي ساعة وفي أي لحظة أرادها. وقد نفذ رغبته هذه على طريقته بسرعة وعنف، فأخضع لإرادته الناس والأشياء.

في تلك الليلة التي أقيمت فيها المأدبة واستسلمت فيها بولين لبونابرت، كان القائد يتأهب لرحلة في برزخ السويس ليدرس بنفسه مشروع حفر قناة خلال الرمال، فأصدر تعليماته إلى دوروك وبوريين، مؤتمنيه على أسراره وإلى خادمه الخاص هيبير، قائلًا:

حينما أعود من رحلتي، أريد أن تكون المواطنة فوريس قد استقرت في دار جديرة بها وتكون هذه الدار قريبة من القصر بقدر الإمكان، بحيث يتيسر لي الذهاب إليها دون أن أجتاز شوارع المدينة.

وسافر بونابرت في الرابع من شهر نيفوز، أي في الرابع والعشرين من

ديسمبر، مع فريق من المهندسين، فوصل إلى السويس في السادس من نيفوز وطاف في تلك الجهات ووجد آثار القناة القديمة وعاد إلى القاهرة في الثالث من شهر يناير التالي[1]. وفي أثناء ذلك كان دوروك وبورين وهيبير قد نفذوا التعليمات التي صدرت إليهم. فأعدوا لخليلة القائد بيتًا عربيًّا بديعًا، تلاصق حديقة قصر الألفي بك ويوصل بينهما باب خفي. وأثث البيت بأفخر أنواع السجاد والنجف والأرائك والتحف والأواني الخزفية. وأبدت بولين رغبتها في أن يعد مخدعها على الطراز الباريسي الحديث، فجيء بجماعة من التجار اليهود واليونانيين سلموا الأثاث المطلوب وتقاضوا ثمنه ذهبًا كثيرًا. وعاد بونابرت من رحلته للقاء خليلته، فأبدى ارتياحه لما صنع في غيبته، ولم تكن الخليلة أقل ارتياحًا منه، وهكذا بدأت حياة جديدة سعيدة لكل منهما.

لقد نقلها بونابرت من منزلها المتواضع في الحسين إلى ذلك المسكن الفخم الأنيق الملاصق لقصر الألفي بك. ولكنه في الوقت نفسه، جعلها أسيرة خاضعة مطيعة.

أنه لا يوليها أي اهتمام في الساعات الأولى من النهار؛ فهو في حاجة إلى هذه الساعات لتصريف أعماله والقيام بأعباء منصبه. ولكنه بعد الساعة الثالثة مساء، يطرح مشاغله جانبًا ويهبط إلى الحديقة، فيجتاز الباب الخفي ويدخل إلى البيت الذي تنتظره فيه أسيرته الحسناء، مبتسمة

[1] من بين التصميمات التي وضعت لمشروع قناة السويس تصميم وضعه العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية إلى مصر، بناء على رغبة بونابرت. وكان القائد الفرنسي شديد الإعجاب بفرعون سنوسرت، وهو ممن حققوا ذلك المشروع في العصور القديمة.

دائمًا مرحبة دائمًا، حسب رغبته.

ولم يكن يفارقها قبل الساعة التاسعة مساء، فيتناول العشاء معها ويدعو أحيانا إلى مائدته أحد المقربين الذي ينسحب في الوقت المناسب. ويقوم بالخدمة على المائدة المملوك الأمين "يوسف" الذي جعله خادمًا خاصًّا للحسناء وحارسًا يقظًا عليها.

وكان بونابرت يطلق العنان لعواطفه كلما خلا إلى بولين، فيتحدث معها طويلا ويضحك أحيانا ضحكة عالية بريئة كضحكة الأطفال. وحينما يقبل الليل، تقف أمام الباب مركبة جاء بها بونابرت من فرنسا، فيصعد إليها العاشقان ويجرها جوادان عربيان أصيلان، ثم تمضي بهما العربة إلى نزهة على ضفاف النيل ويسير إلى جانبيها اثنان من الضباط المرافقين: الكابتن مرلان، وجوليان أوكروا زيه.

أما أوجين دى بوهارنيه ابن جوزفين، فقد أنف القيام بهذا الدور ورفض مرافقة زوج أمه في نزهته الغرامية.

وكان الناس يعرفون المركبة أحيانًا، فيقفون إلى جانب الطريق ويحيون القائد وينظرون بإعجاب إلى المرأة الجميلة الجالسة معه، وقد يسأل أحد الجنود ممن يجهلون الحقيقة:

من هذه المرأة؟

فيوجد دائما على مقربة منه جندي ممن يعرفون، فيجيبه قائلا:

هذه هي الجنرالة!

وكان ضباط الحامية، حسب نبوءة بيانكا فرديه، قد وجدوا أسماء أخرى يطلقونها على الخليلة المحظوظة. فكان بعضهم يسمونها: "سيدة الشرق" وكان آخرون من المثقفين يشيرون إلى غرام أنطونيوس القائد الروماني وملكة مصر الشهيرة، فيسمون الحسناء بولين "كليوباترا!". ولم تكن تلك العلاقة الغرامية بين أنطونيوس الفرنسي الجمهوري وكليوباترا الآتية من كركاسون، لتثير الامتعاض بين رجال الحامية، بل كانوا يقرون الجنرال على سلوكه ويقولون إن ذوقه سليم وأنه يحق له الانتقام من زوجته الطائشة التي تخونه هناك في فرنسا. وكان هؤلاء يغتبطون بما حدث وكل منهم يتمنى أن تستقبله الخليلة ويسعى في سبيل التحبب إليها[١].

وكان ذلك كله يجعل الناس يعتقدون خطأ أن الحالة في مصر قد استقرت وأن أيام المحن قد ولت والوقت قد حان لكي يتمتع الجميع بزهو الحياة.

أما بونابرت، فلم يكن هذا شعوره. إنه الآن سعيد، ولكنه سعيد بأن يظهر للناس سعادته، ثم هو غيور شديد الغيرة، وحينما يفارق بولين في المساء عائدًا إلى قصره حيث يعمل إلى ساعة متأخرة من الليل، كان يكرر لها بلا انقطاع الأوامر ذاتها.

لا أريد أن تستقبلي أحدًا، ما عدا الذين أوفدهم بنفسي إليك ولا

---

[١] لم يكن بونابرت يخفي شيئا من مغامراته الغرامية، وكان لا يبالى بما يقوله الناس عنه ن هذا القبيل. ولم يتذرع قط بالحذر في علاقاته بالنساء، وكان ضباط جيشه مثله. وانحلال الفرنسيين الخلقي من هذه الناحية، كان من الأسباب التي أثارت عليهم الشعب المصري، فضلا عن العوامل الأخرى السياسية والإدارية، مضافاً إليها عامل الشعور الوطني القومي.

أريد أن تخرجي إلا معي. وإذا أردت مني شيئًا، فأعهدي في ذلك إلى الخادم المملوك وسوف أضع تحت تصرفك خدمًا آخرين أيضا، لأنني أريد أن تكوني مخدومة مثلما تخدم الملكات ومحروسة مثلما تحرس الكنوز. وحتى يطلع فجر الغد، ستفكرين في.. في وحدي دون سواي... أريد أن أكون لك كل شيء!

وكانت بولين الحسناء تعده بتنفيذ كل ما يريد وقد تملكها الفرح بالنصر الذي أحرزته. وكانت مخلصة بارة في وعودها غير أنها، في هذا الصباح، تشعر بميل إلى الخروج من خمولها المعتاد. فالشمس وهاجة والجو ضاحك وقد تضايقت من البقاء في هذا السجن بلا عمل منذ شهر كامل، أي منذ أصبحت خليلة بونابرت.

فقفزت بخفة من سريرها وبدأت ترتدي ثيابها، بمساعدة أمينة، الخادمة المصرية التي شاركتها مصيرها الجديد. ولم تكثر من العطور لأن بونابرت لا يحبها كثيرًا ولم تستعمل من حليها غير حلية واحدة، هي صورة بونابرت في إطار من أحجار الماس، صنعها خصيصًا لها الرسام ريدوتي الذي رافق الحملة إلى مصر.

وبعد تناول إفطار خفيف، قدمه لها يوسف[1] قالت الحسناء للمملوك:

---

[1] يوسف: واحد من عشرات الجنود والخدم الذين جعل منهم بونابرت حراسا لشخصه، وكانوا من المصريين والشراكسة والسوريين وإلونانيين وبعضهم من الفرنسيين أنفسهم. وقد أطلق عليهم أسم (المماليك) على سبيل الزهو فقط. وبعضهم سافروا فيما بعد إلى فرنسا واشتركوا في حروب نابليون بعد أن أصبح إمبراطورا.

إنني في حاجة إلى استنشاق الهواء في الخارج اليوم، فأنا ذاهبة في نزهة قصيرة.

ولكن يوسف، الأمين على تنفيذ الأوامر الصادرة إليه، عارض قائلا:

لا ينبغي أن تخرجي وحدك إلى النزهة، أيتها المواطنة، فسيدي لا يسمح بهذا.

لا بأس، أنه لن يعلم شيئًا إذا لزمت الصمت أنت.

لا أعرف أحدًا سواه، من حقه أن يصدر إلي الأوامر، فلن ألزم الصمت.

افعل ما يحلو لك، قل له كل شيء، فأنا خارجة على كل حال.

لكنه سيغضب!

إنني أعرف كيف أحمله على الصفح.

إذًا، سأسير خلفك أيتها المواطنة ولن أرفع نظري عنك.

فبدرت من بولين حركة استنكار. كيف؟ إنها سلمت نفسها لبونابرت، ستعامل في المستقبل معاملة الرقيق؟ وهل هذه هي المكافأة التي يقابل بها استسلامها طوال المدة التي ستستغرقها هذه العلاقة الغرامية التي لا يعلم أحدًا متى تنتهي؟ إن دم بولين يفور في عروقها ويدفعها إلى فضيحة، ولكن الهدوء عاودها، فجعلت تفكر:

إليست هذه الغيرة القصوى من جانب العاشق المتحكم، أكبر برهان على الحب الذي يختلج به صدر القائد، صدر الرجل القابض على زمام

الأمور في مصر والذي لن ترفض له امرأة طلبًا، ومع ذلك فهو لا يحب غيرها؟! آه، ما أعظم الفارق بين هذا العاشق وذلك الزوجِ التافه الغبي الذي رضيت به في الماضي، ذلك الزوجِ المخدوعِ، المغرور، الذي سافر ولن يعود من رحلته الطويلة.

وقالت بولين بعد التفكير في ذلك كله، مخاطبة المملوك:

حسن إذًا، ما دمت تريد ذلك، فستذهب معي.. ستحرسني.. وأقسم لك أننا سنعود بعد نصف ساعة أو بعد ساعة على أكثر تقدير..

وخرجت وتبعها المملوك واتجهت مباشرة إلى الشوارِع المحيطة بميدان الأزبكية، حيث تشتد حركة البيع والشراء وكانت تحمل بيدها مظلة وردية اللون وتسير بخطى بطيئة، فتقف أمام كل حانوت وكان يوسف يسير خلفها على مسافة كافية وبالخطى البطيئة ذاتها ويقف مثلها كلما وقفت.

إن كل شيء يسترعى نظر الحسناء وكل شيء يثير اهتمامها. وهي تعلم أنه ليس عليها إلا أن تقول كلمة لكي يحقق بونابرت كل رغبة من رغباتها، ولكن أليس أحب للمرأة أن تتردد وتبحث وتختار على مهل؟

وأخيرا، وقفت بولين أمام مخزن صائغ وجعلت تنظر باهتمام إلى الحلي المعروضة فيه، إلى الخواتم والأساور والعقود الملقاة على لوحة من القطيفة السوداء، وفيما هي كذلك شعرت بأن خيالها على الأرض قد اقترب منه خيال آخر حتى حاذاه ثم التصق به، فالتفت لترى ما شأن هذا الخيال الجديد الجرئ. وإذا بها تجد نفسها وجها لوجه أمام زوجها فوريس.

طلاق بولين:

منذ عاد الملازم فوريس إلى القاهرة، في الثامن من شهر يناير ١٧٩٩، بقي خمسة عشر يومًا يعيش كثعلب يطارده الصيادون، مختبئًا عند صديقه جاكومان.

والواقع أن أحدًا لم يكن يطارده، فإن الجنرال مارمون أرسل عنه إلى الجنرال برنيه تقريرًا ضمنه كيف أطلق الإنجليز سراحه بعد أسره، وكيف أنزلوه على شاطئ الإسكندرية، ثم غادرها خلسة برغم أمره إياه بالبقاء فيها؟ وقد أبلغ برنيه هذا النبأ إلى القائد العام، فلم يزد بونابرت على أن قال هازئًا مشفقًا في وقت واحد:

لندعه يأكل غيظه وما دام قد تعهد للإنجليز بأنه لن يحمل السلاح ضدهم بعد الآن، فماذا بقي علينا أن نطلب منه؟ إنه سوف يمل الاختفاء وسيخرج من مخبئه يومًا ليطلب بنفسه نقله إلى فرنسا.

وهكذا تجاهلت السلطات المختصة، في مركز قيادة القاهرة وفي مركز قيادة الفرقة الخفيفة، وجود الملازم فوريس في مصر، لكنه هو نفسه كان يجهل هذا القرار، فظل مختبئًا، خشية إلقاء القبض عليه.

على أنه كان دائم التفكير في زوجته، يتميز غيظًا من خيانتها. وفي كل مساء كان جاكومان يحاول أن يعيد إليه شجاعته وثباته، قائلا له:

لا تيأس، فلكل عقدة حل ولسوف ترى صحة ذلك..

وحرص جاكومان على ألا يحدثه عن بولين قط أو يذكر اسمها أمامه، وكان بدلا من ذلك يكثر من الحديث. كلما سنحت الفرص، عن حبيبته لوسيل، فقد تلقى رسالة منها، كررت له فيها عهود الوفاء وعبرت عن

آمالها البعيدة في المستقبل، وكان فوريس يصغي إليه ثم يقول متنهدًا:

ما أسعدك! فليس في جيش مصر غير رجل يملك مثل هذا الكنز، وهذا الرجل هو أنت.

واطمأن جاكومان إلى أن صديقه هد اليأس كيانه أن يقدم على عمل من شأنه أن يؤدي إلى فضيحة. ولهذا، بقي ينتظر، واثقًا من أن لكل مشكلة تسوية يأتي بها الزمن.

وذات صباح، بعد أن ذهب جاكومان إلى مقر عمله، شعر فوريس للمرة الأولى منذ اختبائه، بأنه يكاد يختنق بين جدران ذلك البيت وسور الحديقة الضيقة، حيث حبس نفسه مختارًا وساورته رغبة ملحة في استنشاق الهواء الطلق في الشوارع ورؤية وجوه جديدة وسماع أصوات جديدة، فقال لنفسه مدفوعا بقوة مفاجئة:

سأخرج الآن، وليكن ما يكون.

وسرعان ما وضع قبعته على رأسه وتقلد سيفه وأخذ سوطه في يده، ثم غادر منزل داكومان في حي الحسين وأخذ يطوف بأنحاء الحي، حتى قادته قدماه من حيث لا يشعر إلى البيت الذي كان يسكنه مع بولين، فوقف ذاهلًا متنهدًا إذ وجده ما زال مغلق الأبواب والنوافذ، كما وجده ليلة عودته إلى القاهرة. فهل تراه كان يأمل أن تكون الزوجة الهاربة قد عادت إلى رشدها ورجعت إلى بيت الزوجية؟.

على أنه ما لبث قليلا حتى أفاق من ذهوله، فأخذ ينظر إلى تلك الجدران التي عاش بينها زمنًا تحالفه السعادة وخيل إليه أنه أمام قبر من

جديد وصعد الدم إلى وجهه وخفقت عروق صدغيه كأن نوبة من الحمى قد انتابته، ثم قال متمتمًا:

آه، الخائنة.

وكأنما تصورها أمامه، فراح يصب عليها وابلا من الكلمات النابية وهو ينتفض من شدة الغيظ، ثم أراد أن يهدئ من روعة، فغادر موقفه هناك وانطلق في خطوات واسعة نحو قلب المدينة.

ومضى فوريس في طريقه وهو لا يكاد يرى أو يسمع شيئًا. وكان الفرنسيون والفرنسيات من المارة يتأملونه في دهشة ممزوجة بالرثاء. أما المارة من الأهلين، فكانوا يتنحون من طرقه وهم يحسبونه ثملا أو مخبولا، إذ كان يترنح في مشيته ويصدم بكتفيه من يصادفهم أو يضرب بسوطه ظهور الحمير الكثيرة التي تزدحم بها الشوارع الضيقة.

وهناك في أحد شوارع حي الأزبكية، وقف الملازم الزوج الهائج فجأة، جامدًا في مكانه وقد جحظت عيناه وارتعشت ركبتاه، فقد وقعت عيناه على زوجته بولين وهي واقفة في ثوبها الزاهي أمام حانوت الصائغ، مشغولة بالنظر إلى الحلي المعروضة في واجهته.

ولم يصدق عينيه أول الأمر، لكنه سرعان ما تحقق أنها هي بلحمها ودمها، فجن جنونه وكاد يصرخ بأعلى صوته، لكنه تمالك نفسه واجتاز المسافة القصيرة التي كانت تفصله عنها في خطوات ثابتة، حتى وصل إلى جوارها وكاد يلتصق بها. وفي الوقت الذي لمحت خياله فيه، قال بصوت خافت قائلا: "بولين".

وما كادت تلتفت خلفها وتقع عيناها عليه، حتى انطلقت من فمها صرخة كلها دهشة وذعر لهذه المفاجأة، وقبل أن ينطلق لسانها بأي كلمة، كان فوريس قد رفع يمناه بالسوط الذي كان يضرب به الحمير المذعورة. وقد حاولت أن تتراجع لتتفادى الضربة، ولكن طرف السوط كان قد استقر على خدها، فترك عليه خطأ أحمر ثم رفع فوريس يده بالسوط مرة أخرى، لكنه لم يستطيع تكرار الضربة في هذه المرة، فإن يوسف المملوك سرعان ما وثب عليه وأمسك ذراعيه وضمهما خلف ظهره بكل قوته، فأخذه فوريس يحاول الإفلات من يدي المملوك القويتين وتحول الموقف إلى مصارعة عنيفة بينهما وتجمع الناس حولهما دون أن يجرؤ أحد على التدخل. وأخيراً جاء بعض الجنود المارين من هناك، فأعانوا الضابط على التخلص من قبضة المملوك وفرقوا بينهما، وكان التعب قد نال من فوريس، فلم يستطع إلا أن يقذف بالشتائم المنكرة في وجه زوجته.

وبقيت هي رافعة الرأس، تنظر إليه متكلفة الهدوء والابتسام، ثم أشارت إليه بإصبعها مهددة، وردت على شتائمه المنكرة بقولها:

شكرًا لك يا زوجي العزيز.. إن سلوكك النبيل سيخدمني خدمة عظيمة وسترى عما قليل.

ثم سارعت إلى العودة من حيث أتت ومشى المملوك يوسف خلفها وفي الوقت نفسه كان اثنان من الضباط يبتعدان من مكان الحادث بالملازم فوريس، قاصدين به إلى مقر قيادة الكتيبة الثانية والعشرين التي يتبعها لأن أمره، بعد هذه الفضيحة العلنية، لم يعد يحتمل التجاهل والإغضاء كما كان

من قبل.

وكان الكولونيل لاسال، قائد الكتيبة الثانية والعشرين، معروفًا إلى شجاعته، بإدمانه الشراب وبمغامراته الغرامية الجريئة، فلم يعجبه تصرف فوريس على هذه الصورة الحمقاء، وقال له مؤنبًا:

إن من يفقد امرأة بدلا منها عشر نساء، وإنه لغبي ولا شك كل رجل يحمل نفسه مشقة الجري وراء امرأة هربت منه وفي وسع الزوج الذي تخونه زوجته أن ينتقم لنفسه بخيانة الأزواج الآخرين، وإذًا أيها المواطن فوريس، أجد نفسي الآن مضطرًا إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بألا تعود إلى مثل هذه الحماقة، وما دمت مقيمًا عند صديقك الملازم جاكومان كما علمت، فعليك الآن أن تعود إلى هناك في انتظار أوامر جديدة هذا ما أريد أن أقوله لك، ففكر فيه جيدًا. على أننى إذا علمت بأنك خرجت ليلا للترويج عن نفسك بالبحث عن حب جديد سعيد، سأتظاهر بأني لم أعلم شيئًا، ولكن إذا حاولت مرة أخرى أن تضايق تلك الحسناء التي تسميها الجنرالة، فأنت الجاني على نفسك.

وانهارت أعصاب الملازم فوريس، تحت هذا السيل من العبارات العجيبة، فخضع كرهًا للأمر الواقع ووعد بأن يحترم التعليمات الصادرة إليه.

وهكذا، أعيد فوريس إلى بيت صديقه جاكومان ووضع حارس على بابه لمراقبة تنفيذ تلك التعليمات.

عادت بولين إلى بيتها عقب ذلك الحادث وذهنها مشغول بالتفكير

في عواقبه، وكان أهم ما يشغلها هو موقف بونابرت منها بعد أن يعلم بما حدث وبأنها خالفت أمره، فغادرت المنزل في غير صحبته.

على أنها ما لبثت أن شغلت عن ذلك بأمر الخط الأحمر الذي تركه على خدها سوط فوريس. ولاح لها أن تبعث في طلب الطبيب دجينت. رئيس أطباء الجيش الذي اشتهر بأنه يأتي بالمعجزات في العلاج.

غير أنها ترددت ثم عدلت عن استقدامه حتى لا تضطر إلى الإفضاء إليه بتفاصيل ما حدث، واكتفت بأن تعالج جرحها بنفسها، مستعينة بخادمتها أمينة، وقضت الخادمة ساعات عديدة، وهي تغسل خد سيدتها الناعم وترشه بالعطور وتدهنه بالمساحيق.

وبعد الساعة الثالثة بقليل، فاجأ بونابرت خليلته وهي منهمكة في ذلك العلاج، فسارعت إلى استقباله وقالت له قبل أن يسألها:

تعال يا صديقي! تعال انظر ماذا صنعوا بي. أهكذا يترك المجانين يعيشون في شوارع القاهرة؟ إنك إن لم تبادر بوضع حد لهذه الفوضى، فسيتعذر على النساء أن يخرجن للنزهة مطمئنات.

قالت هذا، وقدمت للجنرال خدها المتورد، حيث ارتسم خط أكثر توردًا منه، هو الأثر المشؤوم الذي تركته لفحة السوط في وجهها، ولم يفكر بونابرت في تأنيبها على مخالفة أوامره والخروج على إرادته أو معرفة السبب الذي حملها على ذلك، بل فكر فقط في الجرح الذي أصابها والإهانة التي لحقت بها، فسألها:

ألم تعرفي المجرم الأثيم الذي فعل هذا.

فغيرت لهجتها، وقالت وهي تضحك ضحكتها الرنانة:

كيف لا أعرفه؛ إنه زوجي.

فصاح الجنرال مندهشًا.

هو أيضًا؟ هل عول على أن يجعل حياتك لا تطاق؟

هذا ما أظنه.

لقد طفح الكيل في هذه المرة ولابد من العمل سريعًا.

نعم، ولكن كيف؟ وما العمل؟ وماذا أستطيع أن أصنع، أنا المرأة الضعيفة، لأدافع عن نفسي ضد هذا المجنون الهائج؟.

فانطلقت من فم بونابرت الكلمة التي تحل المشكلة:

طلقي..

فتظاهرت الحسناء بالدهشة. واستطرد بونابرت قائلا:

نعم، سأفعل كل شيء في سبيل طلاقك، وسوف يتم الطلاق بسرعة فائقة، إنني أعدك بذلك.

وارتاحت بولين لهذا الوعد وارتاح له بونابرت أيضًا؛ لأنه كان يرغب في أن تصبح عشيقته في مأمن من كل حادث جديد.

ومن حسن حظهما أن القانون السائد كان يسهل طلب الطلاق ويتجنب التطويل والتعقيد في إجراءاته.

وبعد ثلاثة أيام، دعي الزوجان: فوريس وبولين، إلى المثول أمام

المواطن سارتلون قاضي الأحوال الشخصية الذي استمع إلى شكاية الزوجة وسجل شهادة الضابطين اللذين تدخلا في المشاجرة، ثم قضى بالطلاق لمصلحة بولين؛ لأن جان نويل فوريس زوجها ثبتت عليه تهمة أهانتها وضربها.

وكان فوريس في حالة ذهول، فلم يدافع عن نفسه ولم يرفع صوته بالاحتجاج، بل التزم جانب الصمت ثم مرض ونقل في الأيام التالية إلى مستشفى القاهرة، فبقي فيه إلى شهر مايو سنة ١٧٩٩. وفي ذلك الوقت، كانت إحدى السفن الحربية على أهبة الإبحار من الإسكندرية إلى فرنسا، فنقل إليها زوج بولين السابق وساعده الحظ في هذه المرة، فلم تعترضه في الطريق سفينة بريطانية.

وهكذا تمت تسوية المسألة، ولكن على غير ما تنبأ به الملازم الثاني جاكومان.

إلى سوريا

كانت الأيام التي تلت حادث طلاق بولين أيامًا هنيئة لها ولخليلها بونابرت الذي شعر بسعادة معها لم يعرف مثلها من قبل.

وكانت سعادته صافية لا يعكر صفاءها ظن ولا تعتوره غيره ولا يخالطه خوف من مفاجأة تقلب الحالة رأسًا على عقب. وهكذا عاد الهدوء إلى نفس بونابرت واطمأن قلبه، فتجلى نبوغه لذلك في كل عمل أقدم عليه، مما ضاعف من تقديره وحبه لبولين؛ اعترافًا منه بأنها صاحبة الفضل الأول فيما ينعم به من صفاء.

ودهش بوريين وجونز وغيرهم من المقربين لهذا الانقلاب في حياة بونابرت، وكان بوريين أكثرهم دهشة، لأن صداقة متينة كانت ترتبطه بجوزفين الزوجة التي احتقرها بونابرت وأهملها! وحدث في ذات يوم أن صرح القائد الأمين بمكنونات قلبه، قائلاً:

هناك أشياء لا يمكنك أن تفهمها. فأنا مثل بقية الرجال، في حاجة إلى من يبادلني الحب ولكنني أيضا في حاجة إلى أن تكون المرأة التي تحبني معجبة بي أيضًا، وبولين هي أول امرأة. هذا ما أؤكده لك، بل هي المرأة الوحيدة التي تشعر نحوي بهذه العاطفة المزدوجة، فهي تحبني وتعجب بي والإعجاب هو الذي دفعها إلى الحب. نعم، الإعجاب هو العاطفة التي

حملتها على خيانة زوجها الذي كانت من قبل وفية له والارتماء بين ذراعي، وليس هذا كل شيء. فإن بولين لم تطلب مني شيئًا، وهي تعلم أنني، إذا اضطررت يومًا ما إلى فراقها، فإنني سأضحي بها في سبيل مصالحي السياسية. ومع ذلك، فهي لا تثور لهذا الاحتمال ولا تضايقني بمطالبها، بل ترضى مقدما بوقوع ما لابد من وقوعه. وأخيرًا، إن بولين تمتاز بأجمل الصفات التي يجب أن تتحلى بها العشيقة؛ فهي مرحة وخبيرة في فن الضحك والمزاح، مما يبدد المتاعب ويشرح النفس. ثم إنها تعرف أيضا كيف تلزم الصمت عند الضرورة، فأنا أحب ضحكتها وأحب صمتها.!.

ولم يجد بوريين جوابًا في ذلك اليوم. وبرغم صداقته لجوزفين والذكريات التي تربطه بها، كان فيما بينه وبين نفسه، يعترف بأن بونابرت محق فيما قاله، وكذلك كان جميع الذين يعرفون بولين يرون رأي بوريين، ولم يكن واحد منهم يجهل الحقيقة ويخادع نفسه.

إن بونابرت يعرف ما انطوت عليه نفس بولين عاملة الأزياء السابقة في كركاسون، فهي تعجب به وتحبه، وهي مرهفة الإحساس، مجردة من الأغراض، فرحة مرحة، خاضعة لحكم الأقدار. وقد تضاعف نشاطه في العمل بعد أن اطمأن إلى سعادته معها وأصبح لا يخشى مفاجأة ما، فانصرف إلى تنظيم الإدارة في مصر.

غير أن بونابرت اضطر بعد ذلك بقليل إلى اتخاذ قرار معين على جانب عظيم من الأهمية، وقد اتخذه بلا تردد، ذلك أن البلاد التي فتحها أصبحت في مأمن من كل غارة من الخارج تهددها بالخطر، فقد تشتت شمل

قوات إبراهيم ومراد بعد معركة الأهرام وثورة القاهرة أخمدت بالقوة. والقوات الفرنسية الخفيفة تغلبت على العصابات غير النظامية في الوجهين القبلي والبحرية. ولكن أخبارًا مقلقة وردت على القائد العام بعد أن ظن نفسه مستقرًا في مصر، فإن الباب العالي الذي لم يكن من قبل قد اهتم بنزول الفرنسيين في مصر، يتخوف من وجودهم فيها والسلطان يعد العدة، بدافع من إنجلترا، لحشد جيشين كبيرين، أحدهما في رودس، والثاني في سوريا، للزحف على جيش بونابرت وإلقائه في البحر.(١)

وكان على بونابرت، لكي يتلافى الخطر، أن يكون السابق فيضرب ضربته. ولما كان الوصول إلى جزيرة رودس متعذرًا، فيجب إذًا اجتياز الصحراء والانقضاض على سوريا فجأة والاستيلاء على غزة ويافا وعكا والاستعانة بالدروز والموازنة في لبنان، بعد حملهم على الثورة وتسليحهم تسليحًا وافرًا، لإقامة سد منيع يحمي مصر من الغزو من تلك الجهة.

وربما كان بونابرت يرمي إلى أبعد من ذلك، فقد قيل: إنه فكر في أن يزحف بجيشه بعد القضاء على القوات التركية ويواصل السير، فيجتاز أوروبا ويعود إلى فرنسا بطريق البر، وقيل أيضًا: إنه فكر في الاستيلاء على دمشق وحلب وجبال طوروس ومواصلة الزحف على الهند لفتحها وإنشاء

---

(١) في ثورة القاهرة الأولى على بونابرت، قتل المصريون ثلاثمائة جندي فرنسي، وثورات الأقاليم أنزلت بالفرنسيين خسائر فادحة. وكان بونابرت يحاول جاهدا أن يقنع المصريين بأنه جاء إلى بلادهم ليحارب المماليك والأتراك لا ليحارب الشعب المصرى، ولكنه أخفق في النهاية. وقد ذرع الحقد وحب الثأر في نفوس المصريين بما اتخذه قواد جيشه من إجراءات عنيفة مشبعة بالقسوة، في مطاردة الجماعات المسلحة في الأقاليم المصرية وفي أحياء القاهرة على السواء.

إمبراطورية عظيمة في آسيا.

ومهما يكن من أمر، فإن الخطر الداهم الذي كان على بونابرت أن يغزو سوريا[1]، فأعد لهذا الغزو عدته بدقة فائقة وعول على أن يتولى بنفسه قيادة قوات الغزو المؤلفة من ثلاثة عشر ألف جندي قرر أن تتحرك في ٢٢ بلوفيوز (١٠ فبراير سنة ١٧٩٩).

وقبل الرحيل بعشرة أيام فقط، عزم الجنرال بعد أن كتم خبر مشروعه عن الناس على إبلاغ بولين خبر الرحيل القريب على أن الإشاعات عن تلك الحملة الجديدة تسربت إلى داخل الدار الفخمة، حيث تعيش بولين عيشة الملكات، خاضعة لعشيقها، غير عابئة بما يجري حولها، فإن الخدم الذين في الدار والمماليك الذين يتولون الحراسة والزائرين الذين يترددون على الحسناء ويتوددون إليها، كانوا يشيرون إلى الاستعدادات القائمة على قدم وساق. ولكن بولين لم تأبه لذلك كله. فإن ما يتعلق بالمسائل العسكرية لا يهمها وعنايتها كلها منصرفة إلى شخصيتها وإلى بيتها، وجل ما ترجوه، أن يظل القائد العام عشيقها راضيًا عنها.

وما كاد بونابرت يفوه ببضع عبارات واضحة جلية، في هذا الصدد، حتى ارتسمت على وجه المرأة الشابة أمارات الدهشة والقلق. وكان ذلك بعد الغداء، أثناء شرب القهوة، وكثيرا ما كانت بولين، في مثل هذه

---

(١) قال بونابرت فيما بعد: لو نجحت في الاستيلاء على عكا واجتياح سورية، لتمكنت من فتح الشرق كله بجيش يضم الفلاحين من مصر، وسكان الجبال من لبنان، وفرسان البادية الشامية. ولكن هذه الآمال تبددت بما أصابني من خيبة أمام أسوار عكا التي حاصرتها من ٢٠ مارس إلى ٢٠ مايو ١٧٩٩ وعجزت عن اقتحامها.

الساعة، وفي مثل هذا الظرف، وانسكاب السائل الأسود على الثوب الأخضر المموه بخيوط الفضة، أما في ذلك اليوم، فإنها لم تفكر في ذلك الحادث، بل تنهدت طويلا، ثم قالت لبونابرت:

كيف هذا يا صديقي؟.. أعازم أنت حقًّا على فراقي؟

لابد من ذلك!

ومتى تعود؟

لا أدري. فهذا لا يتوقف على إرادتي، بل على هزيمة الذين سأذهب لقهرهم!

حسنا، ليكن ما تريد، فليس لي الحق في أن أستبقيك بجانبي. ولكن، أيسمح لي بأن أكون مطمئنة إلى أنك لن تنساني في أثناء هذه الحملة الجديدة؟

لن أنساك...

ولن تعدل عن حبي بعد عودتك؟

لا يا بولين، سأظل أحبك بعد عودتي، كما أحببتك بالأمس.

وكما أحبك اليوم، لتكن ثقتك في ثابتة، فأنا عالم بواجبي نحوك وقد أعود بأسرع مما تظنين وأريد أن أجدك هنا كما أنت الآن، أما أنا فبعد عودتي...

ثم توقف بونابرت عن الكلام، كأنه يتردد في الإفصاح عن فكرته كاملة، فرددت بولين قائلة:

بعد عودتك .. ماذا يكون؟

فتظاهر بأنه لم يسمع السؤال ودفع مقعده بعنف إلى الوراء، ثم هب ناهضا، فإن الفكرة الجديدة التي نبتت في رأسه وبقيت غامضة مبهمة، تتجلى اليوم بوضوح، لكنه يريد أن يمعن في درسها، قبل أن يعبر عنها، فأخذ يروح ويجئ صامتا في الحجرة الصغيرة وبولين تنظر إليه دون أن يراها، كأنه قد انتقل إلى عالم آخر!

ما يراه الآن، هو وجه جوزفين الساحر، هناك بعيدا وراء البحار، في بيته بشارع النصر بباريس. وجه جوزفين وحدقتا عينيها بلونهما الأزرق القاتم وفمها بشفتيه الحمراوين، ومنذ ثلاث سنوات كلما فكر في الحب، تمثلت أمام عينيه تلك المرأة بإغرائها الذي لا يقاوم. وقبل جوزفين، لم يعرف بونابرت الحب على حقيقته ولولاها لظل جاهلًا لا يعرف ما هو الحب المقرون بالرغبة العنيفة لقد عرف ذلك كله بفضل جوزفين ولكنه دفع ثمن المعرفة غالبًا وأصبح فريسة للغيرة القاتلة!

صرخت بولين لأن بونابرت دفع بقدمه مقعدًا كان يضايقه، فسقط المقعد على الأرض!

لا.. لن يتألم بونابرت بعد الآن، فقد عزم على ذلك وسينسى المرأة الخائنة وهذا ما كتبه إلى أخيه جوزيف، وكتبه أيضًا إلى أخيه لوسيان: "تمزق الحجاب!".

شيء واحد كان يمكن أن يمنعه من اجتياز طريق الفراق إلى نهايته؛ وهو أن تلد له جوزفين ابنًا.

أنه يريد أن يكون أبًا ودمه الكورسيكي يتطلب أن يكون له ابن يرثه والمطمع الوحيد الذي لم تحققه له الأقدار بعد، هو أن يكون له ابن! ولكن جوزفين التي ولدت لزوجها الأول بوهارنيه ابنه أوجين وابنته أورتانس لم تحقق أمنية زوجها الثاني بونابرت. إذًا، فليس هناك أي عامل يمكن أن يقف في طريقه إلى الفراق، هذا الزوج الذي خدعته جوزفين وخيبت آماله ولم تتمكن من جعله أبًا...

وانطلقت آهة أخرى من فم بولين، فقد صدم بونابرت في هذه المرة منضدة صغيرة بما عليها من الأواني الفضية.

وانحنت المرأة لالتقاط القطع المبعثرة على الأرض وإذا بونابرت يضع يده على كتفها ويبقيها جامدة في مقعدها، ويقول بصوت جاف وقد حدق فيها ببصره الحاد:

بولين!.. الآن وقد حكم لك بالطلاق، فإنك حرة التصرف بشخصك...

فارتعشت أهداب عينيها من الدهشة لهذه المفاجأة في الحديث، فاستطرد بونابرت قائلًا:

وأنا، من ناحيتي، سأطلق زوجتي ولي أسباب كثيرة تحملني على هذا والشهود متوافرون لدي وستكون إجراءات الطلاق سهلة! وبدأت بولين تفهم، غير أنها لم تصدق معنى الكلمات التي سمعتها ولكن ها هو ذا بونابرت يردد هذه الكلمات بلا أي مواربة، فيقول لها:

بعد عودتي من سوريا، سأتزوجك!

وهمت بولين بالنهوض لتفتح ذراعيها وتقدم شفتيها ممتنة شاكرة لذلك الذي أثبت لها فجأة أنه أوفى العشاق وأكرمهم. ولكن بونابرت لا يحب هذا النوع من الاندفاع، فأفلت منها بسرعة وعاد إلى المقعد الذي كان يحتله من الناحية الأخرى للمنضدة.

إن بونابرت رجل عملي دقيق في جميع أعماله، وها هو قد رسم مستقبل حياته الزوجية بعد أن رسم خطة حملته المقبلة على سوريا وهما الأمران اللذان كانا يهمانه في ذلك الوقت.

وشعر بالهدوء يغمر نفسه وبأن القلق قد زال عنه، فنادى بصوت مرح:

يوسف! يوسف!

ولما دخل المملوك، قال له:

القهوة باردة. هات لنا فناجين ثانيين ولتكن القهوة ساخنة تغلي!

قراءات تاريخية

"على مقربة من البلدة التي يسميها المصريون "الجيزة". وفي وسط الرمال المتناهية حيث لا ينبت غير النخيل الضامر، تقوم تلك الأهرام العجيبة التي خلفتها لنا العصور الغابرة الغارقة في القدم. والواقع، أنه يستطيع الزوار أن يصلوا إليها بسهولة، هي أكبرها وأهمها وكان الأقدمون يعدونها إحدى عجائب الدنيا السبع، وهي ثلاثة، أكبرها هرم خوفو.."

كان المواطن فوريه، أمين المعهد المصري، هو الذي يقرأ هذا الوصف التاريخي لأهرام الجيزة، وكانت بولين هي التي تسمع، فقطعت قراءته فجأة قائلة:

يا عزيزى فوريه، أرجو أن تتكرم...

ثم سكتت ريثما التفت إليها واستطردت قائلة:

أرجو أن تتكرم بإسدال الستار على النافذة قليلا؛ فإن شعاعًا من الشمس يتلهى بمداعبة طرف أنفي ويمنعني من التمتع بالإصغاء إلى قراءاتك.

وخف أمين المعهد المصري إلى تنفيذ رغبة المواطنة بولين، ثم عاد فجلس على قيد خطوات من الأريكة التي كانت متكئة عليها طلبًا

للراحة.

وقبل أن يستأنف القراءة، ألقى نظرة خاطفة على المواطنة الحسناء المستلقية أمامه في ثيابها الشرقية الفضفاضة والدمال الذهبية تسطع على ذراعها العاريتين وقد أرخت على كتفيها جدائلها الطويلة الشقراء واستندت بمرفقها إلى الوسادة الحريرية معتمدة رأسها بيدها البضة الغضة وأرهفت سمعها إليه وعيناها الزرقاوان ساجيتان وعاد صوته يرن في سكون الحجرة الأنيقة الفخمة، وهو يقرأ:

"ويبلغ ارتفاع هرم خوفو حوالي ١٣٨ مترًا وطول جانبه ٢٢٧ مترًا. وكل زاوية من زواياه تقابل إحدى الجهات الأربع وأحصيت الدرجات المؤدية إلى قمته، فكانت مائتي درجة وخمس درجات.."

ومرة أخرى قطعت عليه بولين القراءة لكي تسأله مثبتة:

كم من الدرجات قلت، فحول نظره من الكتاب إليها، وقال: "٢٠٥"، فقالت بصوتها المغرد:

آه! ظننت أنك قلت ٢٢٠ درجة. إنني أريد أن أرتب هذه الأرقام في ذاكرتي كيلا أنساها. ولكن هذا ليس سهلًا!

كان شهر كامل قد مر، منذ رحل بونابرت عن القاهرة، على رأس الحملة الزاحفة إلى سوريا.

وكانت هذه الأيام الثلاثون من الطول والثقل والفراغ بحيث لم يعد في مقدور الحسناء المرحة الطروب أن تقاوم الملل والقلق وهي قابعة في عزلتها

كالملكة السجينة. وقد بدأ الشك يساورها، برغم التوكيدات التي تلقتها، وبرغم أن بونابرت بر بوعوده لها، فكان يبعث إليها برسالة حب وحرارة، رسالة رغبة وأمل، رسالة كل مرة تمنيها بالعود القريب. وتلك الرسائل جميعها تحمل أيضًا أخبارًا عن الحملة. فقد سار بجيشه على طول الساحل واستولى أولا على غزة بسهولة وسرعة وقاومت يافا بعض المقاومة. ولكنها أخذت عنوة في السابع من شهر مارس. وبعد قليل، سيطرد الترك على أرض فلسطين كلها ثم يحل السلام النهائي. هذا ما يؤكده بونابرت، وستعود الحياة في القاهرة إلى مجراها المعتاد، مجراها السعيد بالنسبة للقائد المنتصر وحبيبته الحسناء الفاتنة. غير أن بولين كانت دائما تسائل نفسها: إذا كان بونابرت عازمًا حقًّا على اتخاذها زوجة له، فلماذا لم يصدر أوامره، قبل رحيله، لمباشرة القيام بالإجراءات اللازمة في فرنسا، لاستصدار حكم بالطلاق بينه وبين جوزفين؟!

وكان فوريه يواصل قراءة التقرير الذي وضعه واحد من المستشرقين زملائه في المعهد المصري، فيسرد الأرقام بدقة الرياضي المتلذذ بها:

"يقول هيرودوتس إن مائة ألف عامل ظلوا يعملون ثلاثين سنة في تشييد هذا الهرم وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف سنة..."

وقاطعته بولين أيضا:

ثلاثة آلاف سنة؟ ما أسرع مرور الزمن!. إنني الآن لماذا خاطب الجنرال جنوده، يوم معركة الأهرام، قائلا لهم...

فأتم فوريه عبارتها:

إن أربعين قرنًا تنظر إليكم من أعلى هذه الأهرام!.. هل قال هذا حقا؟ أم أرادوا أن يكون قد قاله؟.. فالإشاعة الرائجة التي يتناقلها الناس، أن أحد زملائي في المعهد هو الذي ابتكر هذه العبارة البليغة بعد حدوث المعركة!

ولكنه أراد أن يعتذر بلا إبطاء، فأضاف قائلا:

على كل حال، هذا ما يشاع!

إن فوريه يحاول دائما أن تكون أحاديثه مطبوعة بطابع الحذر وقد يكون هذا نتيجة تربيته الأولى. فقد كان أهله يعدونه للكهنوت، ولكن الثورة حالت دون دخوله الدير، فانصرف إلى العلوم الرياضية وذاعت شهرته ووقع عليه اختيار بونابرت ليرافق الحملة إلى مصر مع من رافقها من علماء فرنسا البارزين. وهو الآن ومنذ ثمانية أشهر يواصل الدرس والبحث والتفكير..[1]

وشاءت الظروف أن تجعله واحدًا من المقربين إلى بونابرت في قصر الألفي بك. ولهذا، فهو مطلع على حياة القائد العام الخاصة وخباياها ومطلع خاصة منذ مأدبة شهر فريمير، على ميوله الغرامية.

وبونابرت يثق بأن فوريه في وسعه أن يؤثر تأثيرا طيبا في نفس بولين، فعهد إليه في بأن يتولى تثقيفها ومساعدتها في توسيع معارفها وأظهرت هي ميلًا إلى الدرس والمطالعة، فقد أدركت أن ما هي عليه عن جهل لا يتفق

([1]) فوريه: بقى في مصر منذ اليوم الذي وصلت فيه إليها الحملة الفرنسية إلى أن رحل عنها آخر جندي. له أبحاث قيمة في تاريخ مصر وآثارها. مات في سنة ١٨٣٠

ومركزها الجديد وأنه لا بد لها من الارتفاع إلى المستوى الثقافي اللائق بهذا المركز.

وسمعت بولين أن المرأة الراقية يجب أن تجيد فنًّا من الفنون الجميلة، فاستعانت بالمواطن دينون لأخذ دروس في الرسم! وبعد مدة وجيزة، كانت نتائج دروسها الأولى مدعاة للإعجاب وقد واصلت فيما بعد التمرين على الرسم وتركت بعد موتها طائفة ممن الرسوم واللوحات الزيتية الجيدة، وبينها لوحة تمثلها هي نفسها وتعد من أحسن ما جادت بها أناملها.

أما فوريه، فإنه يعطيها دروسًا في التاريخ والجغرافيا والعلوم المختلفة وكان يضع بين يديها كتبًا تقرؤها ثم تناقشه في محتوياتها وأشد اهتمامها بكل ما يتعلق بتاريخ مصر القديم، أليست في الواقع ملكة حقيقية في هذا البلد الغارق في القدم، والذي يحوله بونابرت إلى دولة حديثة؟!

وكان فوريه يشجع ميلها إلى الدراسات المصرية ويقرأ لها بصوته الجمهوري كل ما يعتقد الآن فيه فائدة لها وزيادة في معارفها. وقد أدى تردد العالم الشاب على بولين باستمرار وقضاؤه أوقاتًا طويلة معها، إلى توثيق عرى الألفة بينه وبينها، فأصبح في نظرها الصديق الصدوق والمرشد الأمين.

ومضى فوريه يواصل قراءة التقرير الخاص بأهرام الجيزة:

"ولا يزال العلماء يتجادلون لمعرفة العوامل التي جعلت الفراعنة يقيمون هذه الأكوام الهائلة من الحجارة. ولكن يغلب على الظن أنها أعدت لتكون مقابر لهم، وقد يمكن التثبت من ذلك، لو تيسر الدخول إلى

جوف هذه الآثار الجبارة، ومما يؤسف له أنه لم يتم العثور بعد فجوة يمكن النفاذ منها إلى الداخل.."

عزيزي فوريه...

ورفع فوريه، أتعرف المواطنة بونابرت؟

ففوجئ العالم بهذا السؤال، وأجاب متمتما؟

المواطنة بونابرت؟ زوجة الجنرال؟

نعم

ليس لي شرف معرفتها، أعترف لك بذلك

ولكن، عندما كنت مقيمًا بباريس، أما سمعت الناس يتحدثون عنها؟

نعم.. مثل غيري

وماذا كانوا يقولون؟

آه... الناس يقولون أشياء كثيرة عن النساء البارزات

ماذا يقولون... مثلا؟

يظهر أنها جميلة جدًا، برغم أنها لم تعد في مقتبل العمر..

ويظهر أن فيها جاذبية لا تقاوم وأزياءها على جانب عظيم من

الأناقة وطريقتها في التبرج فيها شيء من المغالاة...

ليس هذا ما أريد معرفته، أصحيح أن سلوكها فيه ما تؤاخذه عليه؟ أصحيح أن لدى الجنرال أسبابًا كثيرة تدعوه إلى الشكاية منها وأن الناس الآن يذكرون اسم شخص معين من عشاقها؟

وهنا ارتبك فوريه ولم يدر كيف يجيب عن هذه الأسئلة. ليس ذلك لأنه لا يعلم مثل بقية الناس، إن جوزفين استأنفت علاقاتها الأثيمة بالمواطن هيبوليت شارل، غير عابئة بإنقاذ المظاهر على الأقل. ولكن العالم كان يجهل العوامل التي تحمل خليلة بونابرت على إلقاء هذه الأسئلة وخشي أن يقول أكثر مما يجب أن يقول، فيؤاخذ فيما بعد على أقواله. ولهذا تذرع بالحذر وأجاب بقوله:

إنك لا تجهلين أيتها المواطنة، أن سمعة النساء معرضة للقيل والقال. ولهذا ينبغي ألا نصدق دائما ما يشاع عنهن من أخبار سيئة وقد تكون هذه الحقيقة فيما يختص بالمواطنة بونابرت. وممكن أيضًا ألا يكون هناك دخان بلا نار!.

لنتكلم بصراحة يا عزيزي فوريه، إذا كان لدى بونابرت حقًا برهان قاطع على خيانة زوجته، أتظن أنها سترضى بسهولة أن يفترقا بالطلاق؟

وهنا بدأ العالم يدرك ما تريد بولين أن تصل إليه، فقال:

أكرر لك أنني لا أعرف المواطنة بونابرت ولكنني أعرف الجنرال، فهو إذا أراد شيئًا، أراده بشدة، ولابد أن يخضع كل شيء لإرادته!

فعاودتها ابتسامتها وتنهدت واستعد فوريه لاستئناف القراءة، ولكنها فاجأته بسؤال آخر:

ما دمت تعرف الجنرال جيدًا.. إذًا: ما رأيك الصحيح في مشروعاته القادمة؟

وتمنع فوريه عن الرد، ولكنها ألحَّت قائلة:

إنه لن يقضي العمر كله في مصر، فسوف يجد وسيلة للعودة إلى فرنسا، آجلا أو عاجلا، وموافاة باريس.. وهناك ماذا عساه يصنع، وماذا يكون مصيره؟

فكان جواب فوريه:

لقد ولد بونابرت في ساعة سعد وسيكون مستقبله أوفر حظًّا من حاضره. أما إلى أي مدى سيرتقي في صعوده، فهذا ما لا يمكنني التنبؤ به، ومع ذلك فلن يدهشني أن أراه ذات يوم عضوا في حكومة الديركتوار جالسًا في مقعده بجانب باراس، ومولان، وجوهيه...

فصاحت بولين مهللة!

بونابرت مدير في حكومة الديركتوار؟ يا له من حلم جميل.. فوريه، يا عزيزي فوريه، هيا استأنف القراءة؛ فبجانب رجل عظيم مثل هذا، لا أريد أن أبقى غبية جاهلة!

عودٌ بلا مجد

في سكون الحانوت الذي لا يعكره غير طنين الذباب، ظهر فجأة صوت المواطنة فوريس صاحبة "الوردة الفضية"، وهي تقول:

سيزارين.. هيا.. عجلى.. إنك تعلمين جيدًا أنني وعدت بتسليم هذه القبعة غدًا!

ولم تأبه العاملة ذات العينين الماكرتين بصراخ صاحبة الحانوت، بل واصلت عملها في بطء، ملقية من وقت إلى آخر نظرة إلى الخارج من خلال الزجاج، حيث تغرق الشمس بأشعتها في شهر يونيو لسطح المنازل في كركاسون.

إن المواطنة فوريس ما زالت محتفظة بنشاطها، برغم فرط سمنتها، ومازال صوتها الجهوري يملأ أرجاء الحانوت وهي تعود إلى تأنيب سيزارين قائلة:

لا أدري كيف تحملتك سنة كاملة ورضيت بأن تظلي في مكانك هذا!.. إننا نعيش في عهد عجيب، فالفتيات يأنفن العمل وكل واحدة منهن تحلم بأن تتزوج ضابطًا جميلًا، يغريها ثوبه الزاهي، أو تاجرا غنيًا يغريها ماله!

وتنهدت ثم استطردت قائلة في شيء من الأسى:

إنني أدرك، على مر الأيام، أي خسارة بذهاب بولين من هذا الحانوت، لقد كانت عاملة نشطة، تنجز عملها بسرعة فائقة ولا تأبه بالرجال المارين في الشارع.. ماذا حل بها يا ترى هناك في تلك البلاد النائية التي ذهبت إليها؟ ولماذا لم تكتب لي؟ بل لماذا لم يوافيني جان الكسول بأخبارها؟

قالت هذا لا عن قلق على بولين، بل لكي تقول شيئًا، ففي ذلك العهد الذي تتابعت فيه الحروب والمغامرات، لم يكن الناس يزعجون أنفسهم بالقلق على الغائبين الذين لا يوافون ذويهم بالرسائل، أما جملة مصر، فالجميع كانوا يعرفون أن البريد لا يصل منها إلا نادراً منذ تدمير الأسطول الفرنسي في أبي قير. وعلى كل حال، فإن الأسئلة التي التقطها المواطنة فوريس في الهواء كان يجب أن تبقى بلا جواب. ولكن، في هذه اللحظة بالذات، سمع وقع أقدام في الخارج وفتح باب "الوردة الفضية" فرفعت سيزارين رأسها، وإذا بصرخة تنبعث من فم صاحبة الحانوت!

وكان جان نوبل فوريس قد ظهر بالباب! فاندفعت المرأة البدنية فاتحة ذراعها لابن أخيها:

أنت؟.. جان؟.. حبيبي جان؟.. أممكن هذا؟.. كنت أتحدث عنك وها أنت ذا أمامي الآن!

ووقفت على أطراف قدميها لتطبع قبلة على خد الضابط العائد، فتركها تقبله، مرتبكًا، منزعجًا، فتضايقت وصاحت به:

تكلم؟.. ماذا حدث لك؟.. لماذا رجعت؟

فتمتم قائلا:

عدت إلى فرنسا منذ أيام قليلة، فمررت أولا بباريس ثم جئت اليوم بالمركبة إلى كركاسون وتركت أمتعتي في مركز البريد بميدان الأعشاب.

وبولين؟

آه.. بولين؟!

نعم، بولين؟.. إنها ترافقك بلا شك؟

فتضاعف ارتباكه، وقال متلعثمًا:

كلا!..

ماذا صنعت بها؟ أين تركتها؟

بقيت هناك!

نعم، وسأشرح لك هذا...

أدركت المواطنة فوريس من النظرة التي وجهها ابن أخيها إلى سيزارين، أنه يحمل في صدره سرا لا يريد أن يبوح به أمام فتاة غريبة، ولكنها كانت شديدة الرغبة في معرفة كل شيء، فلم تستطع صبرا ريثما تنصرف عاملتها، فأخذت بيد ابن أخيها ومضت به من الباب المؤدي إلى الداخل، حتى بلغا الحديقة الصغيرة التي خلف الحانوت وهناك أجلسته بجانبها على مقعد خشبي في خلوة تعلوها أزهار الياسمين، وقالت له:

هيا.. تكلم الآن، فلا أحد يسمعك غيري هنا!

وبدأ جان يتكلم وكان حديثه مؤلمًا. فإن فوريس كان يعلم لابد من إعلان الحقيقة في يوم من الأيام... وبعد أن تردد قليلا، تشجع وانطلق يسرد قصة زوجته بليلوت منذ أبحرت معه من طولون متنكرة في ثوب جندي، حتى أقامت معه في حي الحسين بالقاهرة وبعد شهور لاحت الغيوم فجأة في سماء حياتهما الزوجية الصافية، فكانت تلك الخيانة الكبرى التي اكتشفها بعد عودته فجأة من أسر الأسطول البريطاني، ثم كان الطلاق على يد قاضي الأحوال الشخصية للجيش الفرنسي في مصر!

وأصغت المرأة البدينة إلى هذا الاعتراف وجعلت تضرب الأرض بقدميها وترغى وتزيد. أما هو، فقد ذكرته أزهار حديقة الحانوت بحديقة منزله في القاهرة وبالليالي الصافية التي أمضاها هناك مع تلك الزوجة الخائنة في ذلك الجو العبق بعطر النعناع والرياحين!

فضم قبضة يده وختم كلامه بلهجة مفعمة بالغيظ قائلا:

لا تظني أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد، فقد استقصيت الأخبار في أثناء مروري بباريس وعلمت أن حكم الطلاق الذي صدر في مصر لم يسجل بعد في مكاتب الأحوال الشخصية في باريس، وعلى ذلك فهذا الحكم لا يعد حكمًا نافذًا حتى الآن، وسأطلب بحقوقي وأطعن في صحة ذلك الحكم!

واضطرت المواطنة فوريس إلى مقاطعته، فهي أوفر تعقلًا من ابن أخيها وأبعد تفهمًا لدخائل الأمور، وقد أدركت ألا فائدة من مقاومة الحوادث التي لا يمكن تفاديها؛ ففي رأيها أن من يتحدى الأقوياء في هذا

العالم، يخسر كل شيء ولا يربح شيئا، فقامت لابن أخيها:

يا عزيزي جان، لقد كنت ضحية في هذه الحادثة، أعني أنك كنت غبيًا!.. ولكن، دعني أصرح لك بأنك ستكون أكثر غباء مما كنت، إذا لم تنس ما حدث. إنك لن تستطيع أن تغير شيئا مما حدث. وقد كنت أنا أعتقد مثلك أن بولين فتاة شريفة وزوجة صالحة.. ولكن، ها قد ثبت لك أنها ليست كما كنا نظن، فدعها مقادة إلى مصيرها، فسوف يدفعها هذا المصير إلى حيث لا يدري أحد. أما أنت، فانطلق نحو مصيرك.. إنك جميل وسوف تجد مائة امرأة بدل المرأة الواحدة التي فقدتها. أما مستقبلك، فأبوابه مازالت مفتحة أمامك وأنت في هذا الثوب العسكري!

وتألم الضابط مرة أخرى لاضطراره إلى الإفضاء بما حدث له من الناحية العسكرية أيضًا؛ فقد أطلق الإنجليز سراحه بعد أن أسروه مقابل تعهده لهم بألا يحمل السلاح ضدهم فيما بعد. فمستقبله كجندي انتهى وقد أبلغوه ذلك على إثر رجوعه إلى فرنسا وأرسل إليه وزير الحربية أمرا بإعفائه من الخدمة.

ثم تنهد واختتم كلامه قائلًا:

لن أجد تسامحًا في الدوائر العسكرية ولم يبق لي ما أنتظره من الجيش. ولما رأيت نفسي أمام مصير مجهول، جئت إلى كركاسون ملتجئًا إليك!

فقالت عمته متأثرة:

أحسنت، فإنك ستجد هنا الحجرة التي كنت فيها قبل زواجك ومكانك على المائدة والراحة والبعد عن المتاعب. أما الآن، فخفف عنك

ولا تفكر في شيء. يجب أن تنسى الماضي وفيما بعد، سوف ننظر في أمرك!

كان بود جان لو يمكث طويلًا مع عمته على هذا المقعد في ظلال هذه الحديقة، ولكن المواطنة فوريس تذكرت مقتضيات عملها، فنهضت معتذرة بقولها:

لا أستطيع أن أبقى معك الآن أكثر مما بقيت. فأنا عائدة إلى الحانوت، لأن سيزارين لا تصنع شيئا إذا لم أحثها على العمل.

وأوشكت أن تضيف قائلة، جريا على عادتها:

إن سيزارين هذه لا تشبه بليلوت..

ولكنها عرفت كيف توقف هذه الكلمات على أطراف شفتيها.

ونهض جان بدوره وتبع عمته. ولما دخلا إلى الحانوت، وجدا فيه رجلا طويل القامة يرتدى ثوبًا أسود وحول عنقه رباط أبيض وقد أسند قبضته على المنضدة وجعل يتحدث مع سيزارين. وكانت العاملة تبتسم وتتدلل واعتدل الاثنان لما فتح الباب وعرفت المواطنة فوريس الزائر الغريب الأطوار، فخاطبته قائلة:

لم تشرفني بزيارتك منذ وقت طويل، أيها المواطن ديسال وأراهن أن المواطنة ديسال في حاجة إلى..

فأجاب المحامي في كثير من التصنع قائلا:

لقد أصبت أيتها المواطنة، فإن زوجتي ترغب إليك في أن تصلحي لها

قبعة قديمة يرجع طرازها إلى بضعة أعوام. وقد جئت لأرجوك..

إن المواطن ديسال يتحدث دائما عن قبعات قديمة يطلب إصلاحها. وفي كل مرة، تشاء الصدف أن تكون المواطنة زوجته غير قادرة على المجئ إلى حانوت "الوردة الفضية" فتعهد إليه في القيام بهذه المهمة بالنيابة عنها. ولم يكن في هذا ما يدهش المواطنة فوريس، التي تعد دائما بأنها ذاهبة إلى بيت المواطنة ديسال لتضع نفسها تحت تصرفها. ولكنها في هذه المرة لم تعد، لأن المحامي لم يترك لها الوقت الكافي لترد عليه، فقد وقع نظره على جان فوريس، مقبلا وراء عمته، فأتى بحركة مسرحية وصاح قائلا:

هذا ابن أخيك على ما أظن. إن نظري لا يخدعني وإنها حقا لفرصة سعيدة أهنئ نفسي عليها.. فهي تسمح لي بأن أصافح جنديًا شجاعًا من جنود الجمهورية!

وسكت لحظة ثم استطرد:

ولكن، أيها المحارب الشاب، ما جاء بك إلى كركاسون؟..

كنت أظن أنك في مصر تشترك في القتال مع الجنرال بونابرت الشهير!

فاضطرب فوريس وأجاب قائلا:

عدت إلى فرنسا أخيرًا..

كيف؟.. ألا تزال في رتبة ملازم؟ إن أكاليل الغاز هناك كثيرة وكيف

أعتقد أنني سأجدك على الأقل في رتبة كولونيل. ولكنني أذكر الآن، لقد تزوجت قبل رحيلك العاملة الحسناء التي كانت هنا والتى يذكرها الناس جميعًا ويأسفون على فراقها وكانوا يسمونها "بليلوت". وأن بليلوت هذه، بإصغائها إلى صوت الحب, اختيارك زوجًا دون غيرك، قد مزقت قلوبًا كثيرة، فهل لي أن أسالك عنها؟

فتطوعت المواطنة فوريس للرد على هذا السؤال الخطر، ولكن ابن أخيها سبقها، وأجاب بصوت أجش:

أرجو ألا تحدثني عنها بعد الآن، إن بولين امرأة شقية!

لم يتحرك المحامي ولكن القسوة ارتسمت على وجهه، وقال وفي نظراته بريق غريب:

آه.. لا أريد أن أعكر عليكما صفو الأحاديث العائلية، إلى اللقاء أيها المواطن الملازم!.. وتقبلي احتراماتي أيتها المواطنة فوريس!.. ولا تنسي أن زوجتي تنتظر أن تزوريها في أقرب وقت..

يا بني، إنك ترتكب غلطة بعد أخرى! وبسبب غباوتك، سوف تعرف مدينة كركاسون كلها ما حدث لك.

فقاطعها غاضبا:

كركاسون كلها، وماذا يهم؟ ألا تعلم فرنسا بأسرها الآن أنني..

ولكن عمته وضعت يدها على فمه ومنعته من التفوه بالكلمة التي كاد ينطق بها، ثم أشارت إلى سيزارين التي كانت تحاول أن تسترق السمع،

وهمست في أذناه:

اسكت!

عشاء في الصحراء:

في ١٤ يونيو سنة ١٧٩٩، عاد بونابرت إلى القاهرة مع القوات التي زحف بها على سوريا. ولم يكن أحد في القاهرة يعلم حقيقة ما حدث لتلك القوات العائدة، ولكن ما سمعوه من الإشاعات أو قراءة الصحف عن الانتصارات العظيمة التي أحرزتها في فلسطين، جعلهم يعتقدون أن حملتها على سوريا انتهت كغيرها من الحملات السابقة، بفوز باهر مبين. ومن هنا اندفع الناس لاستقبال بونابرت وتألفت لذلك وفود من مختلف الهيئات وتبعتها جماهير لا يحصى عددها، كما حرص على الاشتراك في الاستقبال جميع الضباط والجنود الخالين من الخدمة.

وهناك أمام "باب النصر" ظهر بونابرت على رأس جيشه أو بالأحرى على رأس البقية الباقية من ذلك الجيش ويبلغ عددها تسعة آلاف رجل، إذ كانت فرقة الجنرال كليبر قد اتجهت رأسًا إلى دمياط.

وكان الجيش يسوق عددا كبيرا من الأسرى تمتد صفوفهم حتى الكثبان الرملية خارج المدينة ووقف القائد العام وألقيت الخطب للترحيب به. باللغتين الفرنسية والعربية وقدمت إليه.

وتلقى بونابرت مظاهر التكريم هذه بجموده المعتاد ولكنه رد على هتافات الهاتفين بتحية من يده البيضاء التي كان يكثر من العناية بها

وابتسم للنساء اللاتي ابتسمن له وكان يجد الكلمة اللازمة للرد على كل تحية توجه إليه.

وفي اليوم التالي، وزع في المدينة منشورًا أكد فيه بونابرت احترامه للعقائد الدينية، وفيه عبارات مبهمة يفهم منها أن القائد الفرنسي يميل إلى اعتناق الإسلام.

والواقع أن هذا المنشور بكل ما اشتمل عليه وما سبقه من المظاهر الحماسية التي أحيطت بعودة بونابرت، من هتافات وهدايا وعرض للأسرى وللأعلام المأخوذة في الميادين. كل هذه لم يكن سوى لعبة قام بها ذلك الممثل البارع، بعد أن أعدها بعناية لخدمة سياسته. أما الحقيقة التي اختفت وراء تلك المظاهر؛ أن حملة سوريا لم تحرز إلا القليل من الانتصارات العظيمة التي أسندت إليها، وحتى تلك الانتصارات القليلة التي أحرزتها الحملة، ما لبثت قليلا حتى طغت عليها الخسائر التي منيت بها.

لقد ساد الاعتقاد بعد سقوط غزة ويافا في يد جيش الجمهورية، بأنه سيجتاح جميع العقبات التي سوف تعترضه. وفي ١٨ مارس ضرب بونابرت الحصار حول عكا وظن أنها ستقتحم مثل غيرها من المدن. ولكن الدفاع عن عكا كان يتولاه في آن واحد القائد التركي الصلب أحمد الجزار باشا، والإنجليزي العنيد سيدني سميث والفرنسي المهاجر فيليبو، رفيق بونابرت القديم في المدرسة الحربية. ودام الحصار شهرين دون أن تسقط عكا وحصد الرصاص المهاجرين وفتك بهم الطاعون، ذلك الوباء الفظيع الذي تفشى في الجيش منذ سقوط يافا وعجز جيش الجمهورية عن القضاء على

مقاومة الحامية ونقص عدد الجنود بكثرة وأصبح المستقبل يزداد خطراً يوما بعد يوم. ثم لمس شعاع من المجد أعلام الفرنسيين، يوم انتصر الجنرال كليبر في معركة جبل الطور، ولكن الأمر انتهى بأن أدرك بونابرت التقهقر والعودة إلى مصر بأسرعِ ما يمكن، وإلا عرض قواته أو ما بقي منها للفناء التام!

وتحرك الجيش عائدا إلى الجنوب واجتاز الصحراء مرة أخرى ونقصت المؤن وجعل الجنود يلهثون من العطش ولكم يبق من الخيول عدد كاف، فاضطر الجنود إلى أن يجروا المدافع ومشى الضباط في الصحراء على الأقدام واستخدمت الخيول الباقية في نقل الجرحى والمرضى والمصابين بالطاعون!

وأعطى بونابرت لرجاله مثلا رائعا بأن سار هو نفسه على قدميه وكانت جماعات البدو والترك تفتك بكل من يتخلف عن الصفوف ويبتعد عنها. وهكذا عاد الجيش المنتصر وهو أشبه بالمهزوم. وتبدد الحلم الذي راود ذهن بونابرت من قبل وكان يعلق على تحقيقه أمله الوحيد في تحطيم القيد الحديدي الذي حبسه في مصر بعد تحطيم أسطوله وسد في وجهه السبيل إلى فرنسا برا من طريق تركيا!

نجح بونابرت في تمثيل دوره إلى حد بعيد واستطاع أن يظهر جيشه المحطم منذ أشرف على القاهرة، بمظهر الجيش الغالب القهار.

وكان موفقًا في الظهور بمظهر الفاتح الذي ازدهاه النصر وبدا في وجهه البشر والارتياح وبقي محافظًا على هذا المظهر حتى دخل القاهرة من

باب "النصر" ومضى في موكبه على رأس أركان حربه والجماهير الحاشدة على جانبي الطريق في الشوارِع التي اخترقها تهتف له وتحييه.

ومرن بونابرت نفسه على الابتسام وكان اليوم يومًا باسمًا رائعًا أو هكذا شاءت له السياسة أن يكون. وحينما أطل الموكب على قصر الألفي بك في حي الأزبكية ومر بونابرت بالمنزل الذي تقطنه بولين، لم يسعه إلا أن يمد عينيه متطلعًا ثم لم يسعه إلا أن يبتسم للمرة الأولى من كل قلبه، حين لمحها هناك وحدها في إحدى نوافذ الطابق الأول وكانت أشعة الشمس قد حولت جدائلها الشقراء إلى مشعل نيران وسطعت في ذراعيها البضة العارية تلك الحلية الذهبية التي كانت هديته الأولى لها.

وكان القواد والمرافقون وفرسان الحرس يسيرون خلف القائد العام، فرفعوا مثله أنظارهم إلى النافذة المحظوظة ورفعوا أيضًا سيوفهم بالتحية وتلقت بليلون مظهر التبجيل هذا كأنها سلطانة حقيقية وقد سكرت بنشوة الكبرياء والحبور!

وفي المساء، استأنف بونابرت العادة التي درج عليها قبل زحفه على سوريا، فذهب لتناول العشاء مع خليلته وقضاء الليل عندها. ومنذ الغد، عادت الأيام تنقضي في رغد وهناء وكان الصيف شديد الوطأة، فصار العاشقان يلازمان الدار نهارًا حتى إذا أقبل الغروب وهب النسيم المنعش عبقًا بعطور البساتين، كما كانا يفعلان في الأيام الأولى من علاقتهما الغرامية.

واستيقظت بولين ذات صباح وفي نفسها رغبة من نوعٍ جديد، فقد

أرادت أن تمتطي صهوة فرس بيضاء من الأفراس التي أهديت إلى الجنرال، فأهداها بدوره إليها.

وكانت تريد أن تركب الفرس، لا كما تركب الفارسات، بل كما يركب الفرسان! ورأت لابد لذلك من ثوب خاص، فأوصت بصنع ثوب عسكري مزركش بالذهب، مؤلف من سروال ضيق أبيض وسترة فرنسية زرقاء وحذاء طويل يبلغ الركبة وقبعة مثلثة الجوانب يعلوها ريش مثلث الألوان.

لقد كانت جنديًّا بسيطًا في كتيبة القناصة أثناء اختبائها في السفينة "لافرنجانت". ولكنها الآن قد ارتفعت إلى مدارج الرتب العسكرية وقفزت فجأة إلى رتبة جنرال!

وتم لها ما أرادت وخرجت على فرسها بذلك الزي الرائع، تخترق شوارع القاهرة وبجانبها القائد العام نفسه على جواده وهو فرح فخور يرد تحيات الجماهير بارتياح وسرور!

والحق أن بولين الحسناء كانت في هذا الزي لا تقل أناقة عنها في زيها الأول وقد أضفى على جمالها روعة جديدة، خلبت لب بونابرت وأطلقت هتافات الإعجاب من حناجر كل الذين شاهدوها في الزي الجديد من رجال الحاشية المقربين.

ولم يدهش الناس كثيرا لمشاهدة عشيقة القائد تسير بجانبه على متن فرسها، ففي ذلك العهد كان الناس قد ألفوا رؤية النساء يقمن بأدوار البطولة. وبعد أيام، داعبت نفسها رغبة غريبة أخرى، فأفضت بها إلى

عشيقها، قائلة:

مادام الخروج نهارًا يتيسر لنا بسبب الحر، فلماذا لا نذهب نتناول العشاء ليلا خارج المدينة في الخلاء عند سفح الأهرام مثلا؟ وبدت الفكرة غريبة لبونابرت، لكنه أعجب بها وسرعان ما أصدر أمره إلى سائسه فيكونى ليعد العدة للنزهة المنشودة ودعا بونابرت إليها الجنرال فرديه وزوجته ودعت بولين العالم فوريه. وفي اليوم المحدد، تحرك الركب الصغير قبل غروب الشمس وكان الجميع يمتطون الجياد وخلفهم مركبة من مركبات النقل في الجيش، فيها جميع ما تحتاج إليه مأدبة العشاء من أطيب ألوان الطعام والشراب والأدوات والمقاعد وغيرها.

ورافقهم بعض فرسان الحرس، وظلت بولين طول الطريق تتحدث وتضحك وبيانكا فرديه تنشد الأناشيد التي اشتهرت بغنائها في ميلانو يوم كانت ممثلة ومغنية. وهكذا ساد المرح جميع من في الركب، ما عدا العالم فوريه، إذ كان متضايقًا لأنه لم يألف ركوب الخيل.

ووصل الركب إلى الأهرام ونسيم المساء يرفرف بأجنحته على الرمال المحتشدة هناك على مدى الأفق والنجوم تتلألأ في الفضاء الصافي، كأنها مصابيح قريبة ليس على المرء إلا أن يمد يده فينالها، والقمر قد اكتمل وتوسط السماء وألقى أشعته الفضية على الأهرام الثلاثة وما حولها، فكان مشهدًا ساحرًا يوحي إلى الناظرين بأنهم قد عادوا حقًا أربعين قرنًا إلى الوراء.

ومدت المائدة بين الهرم الأكبر وأبي الهول وجلس إليها بونابرت

ومدعووه وابتعد الفرسان والمماليك إلى مسافة قصيرة وأشعلوا النيران. وخلال العشاء، كانت بولين تتحدث بلا انقطاع وبونابرت يشاركها الحديث وفرديه يكرع الخمر كأسًا بعد كأس ونسي فوريه ما عاناه من تعب في الطريق وما يشغل باله من أعمال المعهد المصري ومضت بيانكا تروي من وقت لآخر شيئا مما وقع لها في الحروب السابقة وذكرت في حديثها تلك الليلة التي قضتها في ذلك المكان نفسه، يوم وصول الحملة إلى القاهرة وخروج كتائبها المطاردة فرسان المماليك، إلى أن قالت:

تصوروا أن المعركة دارت في النهار وتحت أشعة الشمس المحرقة، فكنت أشعر بأن لساني قد لصق بحلقي من شدة الظمأ!

وهنا التفت إليها بونابرت وقال مازحًا:

عليك الآن أيتها المواطنة أن تعوضي ما فات، فزجاجات الخمر متوافرة بقدر ما تريدين!

وبعد تناول الفاكهة، عادت بولين فاقترحت على المواطنة فرديه أن تنشد بعض أغانيها بصوتها الجميل في ذلك الجو الساحر. ولم تكن بيانكا في حاجة إلى الإلحاح في الرجاء، بل نهضت وارتفع صوتها الأخاذ بمجامع القلوب بأناشيد من أشهر روائع الغناء المسرحي. فكانت نبرات ذلك الصوت القوية تنطلق في الفضاء عنيفة جامحة ثم تهدأ وتخفت لكي تنطلق من جديد جامحة عنيفة. وبعد أن انتهت من الإنشاد، بقي المستمعون لحظات جامدين صامتين قبل أن يستأنفوا أحاديثهم حول المائدة

وإن بونابرت من هواة الأغاني المسرحية، فشكر بيانكا فرديه على

إجادتها الغناء قائلا:

هذا بديع. لقد شعرت بفرح عظيم، أشكرك!

وردد الآخرين: "هذا بديع.. بديع.."

أما بولين، فقد اعتقدت أن الوقت مناسب لإظهار معارفها والإفضاء على مسمع من رفاقها بما تعلمته على يد المواطن فوريه فقالت:

أما كنت على حق أيتها المواطنة في دعوتك إلى إنشادنا شيئًا من أغانيك؟ فإن هذا الجو المدهش ليليق بأن يرتفع فيه صوتك العجيب وما أعظم هذه الأهرام التي شيدها جبروت الفراعنة، فإن هرم خوفو هذا قد بنى في ثلاثين سنة، على قول هيرودتس، وعمل في بنائه مائة ألف عامل!

فدهش بونابرت ومال على المرأة الشابة وهمس في أذنها:

يبدو لي أنك واسعة الاطلاع جدًّا...

فلم تتحرك واحتفظت بتواضعها واستطردت تقول:

ومن الذي لا يعرف هذه التفاصيل؟ لا أحد يجهل ذلك يا جنرال، خصوصًا بين الأشخاص الذين تهمهم أعمالك المجيدة في مصر!

وهل تعرفين أكثر من هذا؟

نعم، أعرف أن ارتفاع الهرم الأكبر ١٣٨ مترًا وطول جانبه ٢٢٧ مترًا وكل زاوية من زواياه تقابل جهة من الجهات الأربع، كما أنهم أحصوا مائتي درجة وخمس درجات من قاعدته إلى قمته..

وأثناء ذلك، كان المواطن فوريه يرقب تلميذاته وهي تردد الدرس ويتأهب لنجدتها لو تلعثمت أو أخطأت. ولكنها لم تنس شيئًا مما تلقنته، بل ظلت تسرد التفاصيل بثبات وبساطة وبونابرت يرمقها، بل ظلت تسرد التفاصيل بثبات وبساطة، وبونابرت يرمقها بنظراته معجبا بها وقد اكتشف فيها فجأة امرأة جديدة، أوفر كمالًا مما كان يظن وأبعد سحرا أيضًا. ولكنه تنهد ولم يدرك رفاقه سبب تنهده.

وعاد الركب إلى القاهرة بعد منتصف الليل. وفي أثناء الطريق، سار بونابرت بجانب عشيقته وقد تلاصق جوادهما ومد القائد يده ووضعها على كتف الحسناء، كأنه أراد بهذه الحركة أن يستولي عليها استيلاء تامًا!

صديق قديم

لم يكن احتلال مصر خاليا من المتاعب كما طن بونابرت في بادئ الأمر، فما مر شهر على عودة الحملة الفاشلة من سوريا، حتى لاح خطر جديد أقرب من الخطر السابق.

كان الجيش التركي في سوريا قد هزم ولم يعد يهدد الفرنسيين في مصر ولكن الجيش الذي حشد في جزيرة رودس ما زال سليمًا، وقد اجتاز البحر بسلام في حماية الأسطول البريطاني ونزل إلى الشاطئ المصري في أبي قير بجوار الخليج الذي دمر فيه الأسطول الفرنسي منذ عام.

وهذا الجيش مؤلف من ثمانية عشر ألف مقاتل ولا شك في أنه سيحاول الاتصال بعصابات إبراهيم ومراد المسلحة التي كانت لا تكاد تهزم وتشتت حتى تعود إلى الظهور وبالأوساط الشعبية المصرية الناقمة.

ثم جاءت الأنباء بأن فرقة الجنرال ديزي اضطرت أمام القوات الغازية التي تفوقها عددًا إلى الانسحاب من الوجه البحري كله.

وسارع بونابرت لدرأ الخطر، فحشد فرقتي الجنرال رامبون وجميع الفرسان بقيادة الجنرال مورا وزحف على رأس هذا الجيش إلى الشمال، في السابع عشر من شهر يونيو.

وخيم الهدوء والسكون على القاهرة بعد رحيل أركان الحرب ومعظم قوات الحامية ووجدت بولين نفسها للمرة الثانية وحيدة في دارها، فعاودها

الضجر والملل. ومع ذلك، فهي ترى بعد أن بلغت الشأن الذي بلغته، أن قسمتها من هذا القبيل يجب أن تكون غير قسمة النساء الأخريات، فإن ما تتمتع به من مزايا، بوصفها خليلة القائد العام. جعلها لا تطيق صبرًا على أي نوعٍ من أنواع الحرمان، فهى متعطشة دائمًا إلى وجود بونابرت معها وأن تراه غيورا عليها، متأهبًا لإجابة رغباتها، كما أنها كانت متعطشة إلى اللهو وجميع مظاهر التكريم والتبجيل!

لقد عادت سجينة في دارها، يراقبها يوسف، ذلك المملوك الشديد الولاء لسيده، وأصبح نشاطها كله مقصورًا على التنقل من حجرة إلى حجرة وإبدال ثيابها بضع مرات في اليوم وقضاء الساعات مستلقية على الأرائك أو جالسة إلى النافذة.

وفي ذات صباح، جلست إلى النافذة كعادتها، ترقب المارة في الشارع بين بائع بسوق أمامه حمارا وسيدة مصرية تسرع الخطى بقدميها المطوقتين بالخلاخل وجنود أكثرهم من العجزة التافهين الذين تخلفوا عن الميدان مضطرين، فخرجوا يتنزهون.

واسترعى انتباها من بين هؤلاء جميعا، ضابط في زي القناصة الأخضر، كان يسير في الطريق وهو يجر قدميه جرا، فتذكرت جان فوريس زوجها السابق وعرفت أن هذا الضابط القناص هو زميله وصديقه، الملازم الثاني جاكومان.

وعادت بها الذاكرة إلى تلك السهرات الهادئة في البيت المتواضع الصغير بحي الحسين، ثم نادت خادمتها أمينة وأشارت إلى جاكومان وهو ما

زال يجر قدميه في الطريق، وقالت لها:

أترين هذا الضابط؟ أسرعي خلفه وعودي معه إلى هنا، قولي له: إنني أريد رؤيته!

فأطاعت أمينة أمر سيدتها. وبعد دقائق، دخل جاكومان وقد ارتسم الذهول على وجهه، وما قع نظره على بولين، حتى صاح قائلا: أنت؟!"

قالت في صوت هادئ رزين: "نعم، أنا! أكنت تظنني ميتة؟."

ولم تخفف عبارتها شيئًا من ذهوله وواصل الإعراب عن دهشته قائلا:

أنت؟ زوجة...

وقطعت عبارته قائلة باللهجة نفسها والهدوء نفسه:

أظن أنني لا أخيفك!.. وأظن أنك لا تزال تكرهني!..

وكان جاكومان يذكرها ولا شك، لكنه لم يكن يتوقع هذا اللقاء المفاجئ وقد أزعجه أن يجد نفسه وجهًا لوجه، وعلى غير انتظار، أمام بولين، زوجة صديقه المسكين فوريس.

ولم يكن جاكومان قد نسى بعد سلوكها الطائش وكيف تنكرت لزوجها الضابط الشاب وحطمت مستقبله وحياته بغدرها وخيانتها!

وفطنت هي إلى الشعور الذي يخامره، فمزقت السكون سائلة:

لماذا بقيت في القاهرة، بينما كتيبتك في أبي قير؟

وثاب إليه بعض رشده، فصعد فيها نظرة فاحصة، ثم أجاب عن

سؤالها بقوله:

ألا تعلمين؟.. ولكن... أنى لكِ أن تعلمي. لقد جرحت في حرب سوريا؛ أصبت بضربة سيف في فخذي وقد شفيت من الجرح لكنني لم أعد أستطيع الركوب.

وفي صوت هادئ حنون عميق، قالت له وهي تقدم له مقعدًا ليجلس عليه:

أنا شديدة الأسف يا صديقي المسكين.. اجلس هناك. لا تقف.. اجلس...

وما كاد يجلس بعد تردد لم يطل، حتى واصلت كلامها وهي تجلس على المقعد الملاصق لمقعده:

كيف حال صديقتك لوسيل، هل تلقيت منها أخبارًا حديثة؟

فابتسم الشاب وأبرقت عيناه وقال:

نعم... تلقيت في البريد الأخير رسالة منها. رسالة تشبه الرسائل السابقة كلها، أعني أنها مفعمة بالعواطف النبيلة!

فتنهدت وهي تنظر متفرسة في وجهه الذي تورد وانطلقت أساريره وزايلته صفرة الدهشة والذهول، ثم قالت:

العواطف النبيلة؟ ما أسعدك بين الرجال!

ومضى هو في حديثه قائلا:

إن لوسيل امرأة ممتازة، ليست كبقية النساء!

لم تنتفض بولين بل صكت هذه العبارة الجارحة سمعها، فإن نظرة خاطفة إلى وجه الضابط المتقاعد الشاب، جعلتها تدرك أنه أبعد ما يكون عن تعمد جرحها وأن قلبه الخافق لذكر حبيبته الوفية النبيلة، سيطر على كل حواسه، فانطلق لسانه بالحديث عنها، لاهيا عن كل ماعداها ولم يسعها إلا أن تبتسم وتنظر إليه ملاطفة، ثم تواصل الإصغاء إليه، وهو يقول:

إن لوسيل تكرر لي، في رسالتها الأخيرة، ما طالما قالته من قبل، وهو أنها تحبني وترقب عودتي. وقد روت ما تعانيه حكومة الديركتوار من متاعب مالية وعسكرية أيضًا! فجيوشنا في إيطاليا، وعلى نهر الرين، منيت بهزائم متلاحقة والشعب في الأقاليم لا يكاد يخفي تذمره والقلق ساد باريس. وبدأ الناس يحسون اليأس والقنوط بعد أن عللوا أنفسهم بحلو الآمال. وذكرت لي لوسيل أيضا أن الناس يتهامسون فيما بينهم قائلين: آه لو كان بونابرت هنا! إن الشعب الفرنسي لا يتمنى غير شيء واحد؛ هو أن يعود بونابرت وجيشه إلى فرنسا..

ووقف ذهنها عند هذه العبارة الأخيرة، عند عودة بونابرت وجيشه إلى فرنسا، ولم يكن في احتمال هذه العودة ما يضايقها، بل إنها لترجو أن يعود بونابرت وأن تعود معه. وهكذا عقبت على عبارة جاكومان قائلة:

هذا معقول.. وينبغي أن نعود جميعا إلى فرنسا!

وفوجئت برد جاكومان عليها قائلا:

أما أنا، فليس أحب إلي من ذلك، فهناك ألقى حبيبتي لوسيل وأتزوجها.. ولكنك أنت، أيتها المواطنة؟ أي مصير ينتظرك أنت؟!

وبعد أن وجمت هنية، حاولت التجاهل وسألت:

أنا؟.

ولم يسعها إلا أن تعجب بصراحته وجرأته، إذ أجاب ببساطة:

نعم، أنت!. ألا تخشين نهاية الحلم الذي تعيشين فيه؟

وفي مثل صراحته، أجابت على سؤاله بقولها:

ماذا تعني؟ أتعتقد أن بونابرت لا يصحبني معه، إذا عاد بالجيش إلى فرنسا؟

ثم تولت هي الإجابة بطريقتها الخاصة، فضحكت ضحكة الواثقة من نفسها، وأضافت قائلة:

لا.. لا أخشى الآن أن يهجرني بونابرت!

ثم مالت على جاكومان وقالت له هامسة:

اعلم يا صديقي أن بونابرت، قبل رحيله إلى سوريا، وعدني بأنه سيتزوجني!

وفغر الضابط العاشق فاه دهشة قبل أن يقول:

يتزوجك؟ الجنرال وعد بذلك؟.

نعم.. وبونابرت من الرجال الذين يمكن الاعتماد على وعودهم!

هذا يدهشني!. وأنا أصدقك، لكن: ماذا ينتظر بونابرت لينفذ هذا الوعد؟

فسكتت هنيهة قبل أن تجيب قائلة:

على ما أظن ينتظر صدور الحكم بطلاق جوزفين!

وبدا عليها شيء من الارتياح أو الاطمئنان إلى جواب مقنع، لكنه عاد يسأل:

وماذا ينتظر لإعلان هذا الطلاق؟

فسكتت بولين مرة أخرى تبحث عن جواب جديد. والواقع أن هذا السؤال لم يكن جديدًا عليها، فطالما ألقته على نفسها، بل ألقته أكثر من مرة على القائد العام نفسه. غير أنه كان دائمًا يتهرب من الإجابة أو ينتحل أعذارًا مبهمة. كضيق وكثرة المشاغل وعدم وصول البريد بانتظام.

وكانت ترضى بهذه المعاذير المبهمة؛ لأنها كانت راضية عن الحياة التي تحياها وكان ما تلمسه من حب بونابرت وازدياد إعجابه وتقديره يومًا بعد يوم، يطغى على جانب الشك والقلق في نفسها المرحة الطروب. أما الآن فهذه هي تواجه الحقيقة الواقعة المرة! وهي شكوكها القديمة الكامنة تثور مرة واحدة!

واستطاعت أن تتجلد بعد قليل، فقطعت سكوتها الحائر قائلة للضابط الشاب:

سيتزوجني بونابرت حينما تسمح له الظروف بذلك. هذا ما لا أشك

فيه. لن تمنعه عن ذلك ذكرى المرأة العجوز التي تركها في باريس، فهي تخونه بلا حياء! أما أنا فإنني مخلصة وفية له! إنني أحبه ولا زال في مقتبل العمر!

إنني محافظ على صداقتي لك، أيتها المواطنة، ولا يسعني إلا أن أتمنى لك ما تتمنيه لنفسك.

وفيما هي تهم بالكلام، استرعى انتباهًا قدوم فارس إلى باب الدار ورأت خادمتها أمينة تسارع إليه، فصاحت:

رسالة من بونابرت!

ولم تكن مخطئة، فقد دخلت أمينة بعد دقائق وبيدها الرسالة، فتناولتها منها وفضتها بحركة عصبية وطالعتها لنفسها، ثم أعادت قراءتها بصوت مرتفع:

"كانت ساعة واحدة كافية لإحراز النصر. إن الجيش التركي لم يعد له وجود، فقد أهلكناه بمدافعنا وسيوفنا وألقينا به إلى البحر حيث غرق عدد كبير من جنوده وأسرنا ألفا ومائتي رجل وغنمنا ثمانية عشر مدفعًا وخمسين راية. وبعد لحظات، سأركب جوادي، يا عزيزتي بولين، وأسرع إلى لقائك بلا إبطاء".

في كلمات قليلة، أنبأها بونابرت بانتصاره في معركة أبي قير البرية

على الجيش التركي القادم من رودس، في ٢٥ يوليو[١]، فتنهد جاكومان وهز رأسه آسفًا، وقال:

لم أشترك في هذا النصر!

أما بولين، فجعلت تصفق كالطفلة ونهضت ترقص من الفرح. ثم استعادت هدوءها فجأة لتقول لصديقها القديم:

أسمعت يا صديقي.. ما كاد الجنرال يحرز النصر حتى فكر في وكتب إلي، وها هو عائد إلى القاهرة وسيجتاز قريبًا هذا الباب.

ثم ازداد صوتها رقة وعذوبة حين أردفت تقول:

يا عزيزي جاكومان، أرجو أن أراك فيما بعد. إن بونابرت قادم ولم يبق إلا أن أتجمل وأستعد للقائه!

---

[١] كان يقود الجيش التركي في هذه المعركة مصطفي باشا الرومللي الذي وقع في الأسر، واشترك فيها ضابط من قوله يدعى "مُحَمَّد علي" وهو الذي تمكن من الاستيلاء على السلطة بعد رحيل الحملة الفرنسية وانشأ لنفسه ولأسرته عرشاً في مصر.

في كفة القدر

لم يعد الاطمئنان إلى نفس بونابرت، برغم الانتصار الذي أحرزه على الجيش التركي في معركة أبي قير وعودة المياه إلى مجاريها في مصر.

ولم تكن عشيقته الحسناء أقل منه قلقًا، فإنها برغم عودة بونابرت إليها وتفانيه في إرضائها وتحقيق جميع رغباتها، عدا إيثارها بساعات طويلة من وقته الثمين، كانت في حاجة إلى أن يطمئن قلبها إلى ما بعد ذلك.. إلى مصيرها!

وهي تذكر الآن عبارات جاكومان وما أثارته في نفسها من شكوك، فراحت تسائل نفسها: حقا.. ماذا منع بونابرت أن يطلق جوزفين؟ لماذا يؤجل زواجنا؟!

وهمت أكثر من مرة باستطلاع نواياه ولكنها كانت تحجم دائمًا في آخر لحظة، كانت تنسى نفسها أمام شخصيته الجبارة وعينيه الغامضتين!

وصح عزمها أخيرًا على أن تكون أكثر حزمًا واهتمامًا بالأمر بنفسها.

وفي صباح ذات يوم. بعد أيام من عودة بونابرت، نهضت وارتدت ثيابها على عجل، ثم تجملت وأخذت طريقها إلى قصر الألفي بك، حيث كان الجنرال منهمكًا في استقبال الضابط والموظفين وممثلي الهيئات الدينية

وغيرهم من المدنيين والعسكريين.

ولم يكن بونابرت، في هذه المشاغل، يسمح لأي أحد بأن يزعجه ويضايقه بزيارته، دون أي استثناء!

ولهذا، لم يخف الحرس والمماليك الواقفون ببابه دهشتهم، حين رأوها تدخل القصر في تلك الساعة، لكنها ابتسمت لهم وطمأنتهم قائلة:

لن أزعج الجنرال في عمله. إني أعلم أن زيارته ممنوعة في مثل هذه الساعة وقد جئت لمقابلة المواطن بوريين. وأرجو أن تسألوه: هل يسمح لي بالدخول؟

لقد فكرت في أن تقابل أمين سر بونابرت؛ فهي تعلم أن بوريين زميل قديم له منذ عهد المدرسة الحربية، وقد أولاه ثقته ولا يخفي عليه شيئًا من نواياه!

وعاد إليها المملوك الذي انطلق إلى بوريين، وقال لها:

إن المواطن بوريين يسره أن يقابل المواطنة الزائرة!

ثم قادها خلال الممرات والردهات إلى حجرة انتظار تشبه تلك الحجرة التي جلست فيها بولين، يوم زيارتها الأولى لبونابرت.

وكان يجلس هناك، أمام النافذة، قائد برتبة جنرال، يرتدي ثوبًا بسيطًا، لا شرائط عليه ولا زركشة فيه، وكان الناظر إليه يدرك أنه طويل القامة كما هو ضخم الجسم، ويدرك في الوقت نفسه أن رأسه صغير بالنسبة لجسمه وأشبه برؤوس الزنوج حتى في شعره ولونه، فابتسمت له

متلطفة، ولكنه قطب جبينه، وهمهم قائلا:

لست غير ضابط فقير، لا مركز لي يذكر، ولا مستقبل أمامي باهر، فماذا تنتظرين مني أيتها المواطنة؟

ولم تجرحها هذه العبارات بقدر ما أدهشتها، فسألته:

كيف؟.. أتعرفني أيها المواطن الجنرال؟

ومن ذا الذي لا يعرفك في مصر. منذ أن أطلق عليك الجنود اسم "الجنرالة" ومنذ تعيشين هنا عيشة ملكة.. ملكة جمهورية؟!

كانت لهجة القائد مشبعة بالتهكم، بل بالاحتقار، ولكنها تجلدت وعادت تقول:

أشكرك يا جنرال!.. ولكن، هل لي أن أعرف اسمك؟

فأجابها بلهجة ملؤها التحدي:

أنا الجنرال دوماس، ألكسندر دوماس، من مواليد جزيرة سان دومنكو، كانت أمي سوداء، ولهذا تريني أشبه بالزنوج!

آه، يا جنرال! طالما سمعت الناس يتحدثون عنك. وأي أهمية للون البشرة، متى كان الجندي مشهورًا ببطولته؟ وهذا ينطبق عليك. فشهرتك واسعة: ألست أنت الذي دافعت وحدك عن جسر في مضايق تيرول ضد

كتيبة كاملة من كتائب العدو؟[1]

ولم يؤثر هذا الثناء في القائد الأسود وظل ينظر إليها مقطب الجبين؛ فهو جندي من جنود الجمهورية، شديد التحمس لآرائه ومبادئه، دائم الاحتجاج على ما كان يراه حوله من استهتار بالمبادئ الجمهورية وعودة إلى حياة البذخ كما كانت في عهد الملكية البائد. وهذا الجمهوري العنيد الذي أصبح ابنه فيما بعد من أشهر الكتاب الروائيين في فرنسا، يشمئز من أقدام قائد من قواد الديركتوار، هو الجنرال بونابرت، على اتخاذ خليلة له، جهارًا وعلى مرأى من لناس، بقدر ما كان يشمئز من قبل، من أعمال النبلاء والتجار الاستغلاليين، فقال للحسناء:

كان البطل الذي تتحدثين إليه، والماثل أمامك، ألا يبقى على قيد الحياة بعد معاركه السابقة، كيلا يشاهد المخازي التي يقع عليها نظره الآن!

ولو لم يفتح الباب ويظهر فيه بوريين، لانتهت هذه المحادثة على صورة أخرى...

وبدت على بوريين الدهشة، عندما رأي بولين، ولكنه التفت إلى الجنرال دوماس قائلا:

جنرال، اسمح لي أن أستقبل المواطنة بولين قبلك. فلا ينبغي أن نترك النساء الجميلات ينتظرن طويلًا!

---

(1) ابن الجنرال الكسندر دوماس هو الكاتب الروائى الشهير الكسندر دوماس الأب. وحفيد الجنرال هو أيضا الكاتب الروائى والمؤلف المسرحى الكسندر دوماس الابن. وهكذا حمل الثلاثة: الابن، والأب والجد، اسما واحدا.

كان الجنرال دوماس قد نهض تأهبًا للدخول إلى مكتب بورين.

ولكنه عاد فألقى بنفسه على المقعد مزمجرًا...

ودخلت هي مع أمين سر عشيقها.

كان بورين في حوالي الثلاثين من عمره ومن أكثر ضابط الحملة الفرنسية رصانة واتزانًا، فأبدى عناية ملحوظة بخليلة القائد العام الذي وضع فيه ثقته ودعاها إلى الجلوس وألقى بوسادة تحت قدميها وجعل يستفسر عن صحتها. ثم قال:

أظن أن المواطنة تشرفني بزيارتها لأن لها رغبة ما تريد تحقيقها، فتأكدي أنني دائمًا على أهبة العمل لإرضائك.

فقالت بولين، وعلى شفتيها ابتسامة اطمئنان:

نعم. في وسعك الآن أن تخدمني خدمة عظيمة. هذا ما آمله على كل حال.

إنني مصغٍ إليك.

ربما كنت تعلم أن الجنرال وعدني.. كان ذلك قبيل رحيله إلى سوريا...

الجنرال وعدك.. بماذا؟

وعدني بأن يتزوجني!

تظاهر بوربين بأنه يفكر لحظة، ثم قال:

أعلم ذلك!

إذًا، ما دمت تعلم ذلك، فإنك لا تجهل أيضًا أن لا شيء يمنع بونابرت من البر بوعده. إن زواجه بأرملة بوهارنيه من السهل فسخه. وهو لا يعدم أسبابًا لبلوغ ذلك. فماذا ينتظر ليطلب الطلاق أمام محاكم فرنسا، واتخاذي زوجة شرعية له؟

أسئلة طالما طفت على شفتي العشيقة الحسناء من قبل، دون أن تفوه بها إلا الآن، أمام بوريين!

وحاول هذا أن يتجاهل تهربًا من الرد. ولكنها قطعت عليه سبيل التهرب قائلة بإلحاح:

تكلم... تكلم... إنك تعرف هذا أيضًا!

فاضطر إلى أن يهز رأسه موافقًا، ومضت هي فقالت:

إذًا: قل لي.. أرجوك: لماذا لا يفعل؟ اشرح لي مسلك الجنرال معي. أليس لي حق في أن أعلم أنا أيضا؟ إن الأمر يتعلق بمستقبلي، بل بحياتي كلها. فماذا أسر إليك بونابرت؟ تكلم!..

كان لنظرات بولين وقلقها واضطرابها وإلحاحها أثر عميق في نفس بوريين. وبرغم تعلقه بجوزفين، لم يستطع إلا أن يستسلم لها وقال:

أتريدين الحقيقة؟ اسمعي إذًا وافهمي. إن جميع الأعمال التي اضطلع بها بونابرت كللت بالنجاح وجميع رغباته تحققت ما عدا رغبة واحدة!.

وما هي تلك الرغبة؟

لم يرزق بونابرت أبناء. إنني أعرف جيدا ما تنطبع عليه نفس زميلي القديم في المدرسة الحربية. إن الدم الكورسيكي الذي يجري في عروقه يجعله يغار على سمعته بوصفه رجلا وعلى قدرته على تذليل المصاعب. وهو يحب النظام والتقاليد والحياة العائلية كما تريدها الطبيعة البشرية أن تكون. ثم يعتقد أن الرجل الذي لا يرزق أبناء ليس جديرًا بأن يسمى رجلا والزوجة الحقيقية الوحيدة في نظره هي التي تستطيع أن تلد له ابنًا!.

كان بوريين يتكلم بملء رصانته واتزانه، فلم تشك الخليلة الحسناء في صدقه، بل أدركت من قبل تلك الرغبة القوية في نفس بونابرت، فنظرت إلى بوريين ساهمة بعض الوقت، ثم قالت:

إذًا... أنا...

ولم يدعها بوريين تتم عبارتها، بل واصل كلامه، فقال:

أنت أيتها المواطنة؟.. إن الجنرال يحمل لك في صدره عاطفة قوية مخلصة. ولكن هذه العاطفة لم تخرج حتى الآن عن كونها عاطفة حب، تتطلب إشباع الحواس وإرضاء القلب. أما إعطاؤك أكثر مما أعطاك، فمتوقف على إشارة من القدر، حاولي أن تلدي له ابنًا، فسوف يكون فرحه بالمولود عظيمًا إلى حد أنه لن يتردد في الاقتران بك!

آه... إذا كنت لم ألد له ابنا بعد، فما يدريك أنني أنا السبب؟.

ولم يتكلم بوريين بعد ذلك واكتفى بأن أودع نظراته إليها تأكيد المعاني التي صرح بها، فنهضت وقالت دون أن تضحك في هذه المرة:

أشكرك على هذه الصراحة التي خاطبتني بها إجابة لطلبي.

وسيبقى هذا الحديث طبعا سرا بيننا. الوداع!

أخبار حديثة:

في إحدى أمسيات شهر ترميدور، خرج بونابرت في الساعة التاسعة مساء من دار المواطنة بولين وكان يفكر في الرسائل التي تنتظره في مكتبه والعمل الذي لابد له من إنجازه في تلك الليلة قبل أن يأوى إلى فراشه طلبًا للراحة، فرفعت الحسناء إليه عينيها الساحرتين قائلة:

اسمح لي أن أرافقك حتى باب الحديقة.

تعالي إذا شئت!

وتأبط ذراعها ونزلا معًا إلى الباحة العربية الممتدة خلف البيت وفطن أنها تضغط ذراعه أكثر من المعتاد، ولم يكن قد فاته مبالغتها منذ أيام في التودد والتحبب والتدلل. وانتهى العاشقان إلى البستان القائم في أقصى الباحة، حيث تكثر أشجار البرتقال ويبدو خلالها سور البستان المرتفع وفيه الباب الصغير المؤدي إلى حديقة قصر الألفي بك.

وفتح بونابرت الباب وطبع قبلة على ثغر حبيبته، وقال مودعا:

إلى الغد!

فرددت كالصدى:

إلى الغد

وكان في وداعها، في هذه المرة، شيء من الحسرة والكآبة. ولكن بونابرت لم يفطن إلى ذلك، بل أغلق الباب وانصرف وقفلت هي إلى بيتها في خطوات بطيئة.

ومر بونابرت أمام مركز الحرس ولكنه لم يواصل السير كعادته، بل وقف فجأة وسأل أحد المماليك الواقفين هناك.

ما اسمك؟

كان جميع المماليك الذين يتألف منهم الحرس الخاص للقائد العام من أجمل الرجال وكان المملوك الذي خاطبه بونابرت أجملهم على الإطلاق قامة معتدلة وقسمات متناسبة وعينان واسعتان براقتان وشخصية نبيلة قوية توحي لناظره بأنه أمام أمير من أمراء ألف ليلة وليلة.

ونظر المملوك إلى بونابرت وجهًا لوجه، وأجاب قائلا:

اسمي يحيى

أتركي أنت؟

لا... ولدت في قرية من بلاد الكرج ووقعت أسيرًا في إحدى الغزوات وعرضت للبيع خمس مرات في أسواق الرقيق، قبل أن أصبح من عبيدك يا جنرال.

أنت لست عبد، بل رجل حر. أنت واحد من جنودي، واحد ممن أثق بهم ثقة لا حد لها وأفاخر بهم أيضًا!.

وأنا أيضا أفاخر بهذا. وأعلم أنني، في بلاد الكرج، كنت أدعى

رستم!.

رستم؟.. لن تحمل بعد الآن اسمًا غير هذا!

هذا ما أفضله أيضًا!

وبما أنك تعجبني، فسألحقك بخدمتي. لن تفارقني بعد الآن بل تتبعني مثل ظلي. أتريد؟.

أريد؟ إنني منذ هذه اللحظة ملك لك، قلبًا وقالبًا!

وأشار المملوك إلى سيفه، واستطرد يقول:

وبفضل هذا الرفيق الأمين، لن يجرؤ أحد أن يمس شعرة في رأسك!

أعرف أنك لا تكذب. إن السيف سلاح جميل ولكن سأعطيك سيفًا آخر غير هذا وأجمل منه وأعطيك أيضا غدارات جميلة. يجب أن تبدأ بالخدمة منذ الآن. اتبعني![١]

ومشى المملوك خلف بونابرت، فدخل الاثنان إلى القصر ووصلا إلى ردهة كان الضباط المرافقون ينتظرون فيها. فألقى نحوهم بونابرت نظرة استفهام وقال أحدهم، وهو الكابتن مرلان:

لا شيء جديد!

وقال الكابتن كراوزيه:

---

[١] رستم: كان نابليون يناديه "روستان" وقد تبعه إلى فرنسا وظل في خدمته ملازما له كظله ولكنه تخلى عنه بعد سقوطه فاحتقره الناس وانتهت حياته في يؤس.

كل شيء هادئ في القاهرة.

أما الثالث، وهو أوجين دى بوهارنيه، فسكت ولم يقل شيئاً!

كان الضابط الشاب ما زال آسفًا على الدور الذي قام به في حديقة تيفولي، يوم قدم المواطنة فوريس إلى بونابرت زوج أمه. وأن قلبه ليتمزق لهذه الذكرى وكيف لا يتألم من أجل أمه، وبخاصة وهو خالي الذهن من كل ما يتعلق بخياناتها ويعتقد أن بونابرت زوجها هو الذي يخونها.

بل الواقع أنه كان يتألم أيضًا من أجل الجنرال، فهو معجب به إلى حد العبادة؛ لأنه الرجل الذي حل محل أبيه وقد أخلص له أوجين إخلاصًا لا تشوبه شائبة!

وأشاح أوجين بوجهه متفاديا نظرة بونابرت إليه، فناداه هذا قائلا:

وأنت؟ ألا تقول شيئًا؟

فظل أوجين صامتًا وشعر بونابرت بوخز الضمير أمام هذا الشاب الجميل، ابن جوزفين، الذي لا يزال يحبه مثل ولده.

فاقترب منه وهو يقول متمتمًا: "مسكين!"

وكانت تلك الحركة دليلًا على حب بونابرت للشاب، فابتسم أوجين وأردف القائد قائلًا:

أفضلك هكذا مبتسمًا!

وأسرع بونابرت إلى مكتبه، فألقى نظرة فاحصة على الأوراق المكدسة فوق المنضدة ومن بينها رزمة من الصحف. قرأ بونابرت بينها

اسم جريدة فرانكفورت الفرنسية.

وكانت الصحف الفرنسية وغيرها من صحف أوروبا تصل إلى مصر من وقت لآخر، برغم الحصار الإنجليزي، فانحنى بونابرت وبحث عن تاريخ صدور الجريدة، فإذا به ١٠ يونيو سنة ١٧٩٩.

وقال لنفسه: "لا أخبار حديثة إذًا، تلك التي تحملها هذه الجريدة التي وصلت إلى مصر في شهر أغسطس!"

وجعل بونابرت يقلب صفحات تلك الجرائد بسرعة ويلقيها جانبًا واحدة بعد أخرى، ثم انتصب واقفًا فجأة وقد فار دمه في عروقه وارتعشت شفتاه من الغضب، وقال يحدث نفسه:

لم يخطئ ظني!.. إن أعضاء حكومة الديركتوار وقوادهم كلهم حمقى وأغبياء! لقد خسرنا إيطاليا وضاعت ثمرة الانتصارات التي أحرزتها فيها!

ثم انطلق هائجًا في القاعة يضرب الأرض بقدميه ويرسل من فمه صرخات الغضب الممزوجة بالشتائم! ورويدا رويدا، أخذ الهدوء يعاوده وهو يذرع أرض القاعة مفكرًا ثم انفرجت أساريره فجأة، فقد وجد الحل واتخذ القرار اللازم. ويا له من قرار، قد يكون أعظم قرار أقدم عليه في حياته!

ونادى بونابرت أمين سره بوريين، فلما دخل عليه سأله:

بوريين: أنت وضعت هذه الجرائد على مكتبي؟

نعم..

ومن أين جئت بها؟

من عند سيدني سميث، بعث بها مع أحد رجالنا الذين يتولون المفاوضة معه في مسألة تبادل الأسرى الذين كانوا مع الجيش التركي في معركة أبي قير البرية، مقابل إطلاق عكا حين حاصرها بونابرت، وقد تولى المفاوضات الرسمية بعد ذلك مع قواد بونابرت، للاتفاق على إطلاق الأسرى من الضباط البريطانيين الذين كانوا مع الجيش التركي في معركة أبي قير البرية، مقابل إطلاق مثل عددهم من الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا في قبضة الإنجليز.

وقال بونابرت لبوريين وهو يشير إلى تلك الصحف:

أقرأت هذه الأخبار؟

فأجاب بأنه لم يطلع على شيء منها بعد، فأشار بونابرت إلى الصحف مرة أخرى وقال: "إذًا.. اقرأها!"

كانت هذه الجرائد تحوي أهم أنباء الأحداث التي وقعت في أوروبا خلال الشهور الأخيرة. وهي أنباء جاءت مبررة لمخاوف بونابرت، فإن تحالفًا عُقد بين إنجلترا وروسيا والنمسا وتركيا ومملكة نابولي وهذا التحالف موجه ضد فرنسا! ثم إن الفتوحات الفرنسية الأخيرة تنكمش يومًا بعد يوم.. فالجنرال جوبير هزم في ألمانيا والجنرال مورا هزم في إيطاليا وجيوش الحلفاء تهدد حدود فرنسا. أما الحالة داخل فرنسا، فتزداد سوءًا على مر الأيام والفساد يعم البلاد والفوضى تنتشر فيها والحكومة عاجزة عن الإصلاح!

وانتهى بوريين من القراءة، فقال له بونابرت:

منذ أبحرنا من طولون، وحالة فرنسا تسوء وتنذر بالانهيار. وقد حان الوقت لكي نذهب ونرى ماذا يحدث، سوف أبحر في أقرب فرصة وسأفلت من حصار الأسطول البريطاني وأبلغ سواحل فرنسا. وهناك، سأعيد النظام إلى نصابه في أقصر وقت وستصحبني يا بوريين مع بعض الرفاق الذين سأختارهم، ولكن..

اكتم هذا الخبر عن الجميع الآن. وغدًا، أبلغ برتبه أنني أريد الاجتماع به هنا.

وليكن كتوما، هو أيضا. فيجب أن نحذر الجواسيس!

وقال بريين بلهجته الرصينة الهادئة:

سأكون صامتًا كالقبر، وكذلك برتبه، ولكن..

تردد بوريين لحظة، ولكن صوت الواجب تغلب على كل اعتبار، فواصل كلامه قائلا:

ولكن، ألا يخشى أن تصدر من البيت المجاور للقصر، كلمة تفسد علينا تدابيرنا وتنبئ الناس بمشروعاتك السرية؟

وأدرك بونابرت ما يشير إليه أمين سره، فبقي لحظة جامدا في مكانه وتجلت أمام ناظريه مناظر سعادته خلال الشهور المفعمة بالهناء التي قضاها مع عشيقته الحسناء المرحة الطيعة. وتذكر ما وعدها به منذ الاستعداد لحملة سوريا، ولكن خاطرًا آخر برز فجأة من بين الخواطر التي ازدحم بها

ذهنه.. لماذا لم تنجب له ولدًا حتى الآن؟ وسرعان ما غطى هذا الخاطر كل ما عداه من ذكريات بونابرت.

فقال لوريين:

أنت تعلم أنني لا أفضي إلى النساء أبدا بما أعتزم القيام به من مشروعات، فالمواطنة بولين لن تعلم شيئًا!

ثم انصرف بوريين وبقي بونابرت وحده، يروح ويجئ في القاعة وقد أطلق لخياله العنان، فرأى نفسه على ظهر سفينة تقله إلى فرنسا ثم مضى في خياله، فرأى نفسه يقتحم حصار الأسطول البريطاني ويصل إلى الشاطئ الفرنسي. ومن هناك يسارع إلى باريس، حيث تنتظره مهمة أخطر وأهم من مهمته في مصر، حقا.. إن الدولة الجديدة التي أنشأها لم تعد تهمه كثيرًا، وهو يطمح الآن إلى فتوحات جديدة وإنشاء إمبراطورية أخرى، وإنما يهمه أولا وقبل كل شيء، أن يضع هناك في باريس الأساس الثابت الذي يشيد عليه فيما بعد ما شاء من صروح الآمال، يجب أن ينتزع السلطة من حكومة الديركتوار ويستأثر هو بتلك السلطة!

إن الشعب في باريس ينتظر عودته نافذ الصبر. وقد جاءته الأنباء مؤكدة ذلك منذ حين.

لكن هناك في باريس أيضًا، شيئًا آخر ينتظره. هناك زوجته جوزفين! فهل ترى صدق أخواه، وجونو، وبيرتيه، فيما ألصقوه بها من اتهامات شنعاء؟

وأتى بونابرت بحركة عصبية، كأنما أراد بها طرد تلك الهواجس الأخيرة

من مخيلته، وقال لنفسه: "سألقاها هناك على أي حال. وسأقف بنفسي على كل شيء".

ثم هم بالذهاب إلى مخدعه وفتح الباب المؤدي إلى حجرة الانتظار، فإذا به يرى المملوك رستم جالسًا وراء الباب وكله يقظة وانتباه، وسيفه على ركبتيه فسأله:

ماذا تصنع هنا؟

ثم تذكر، أنه كلفه ملازمته، فاستدرك وأردف قائلا:

لقد بدأت مهمتك منذ الليلة.. حسنا. حسنا يا رستم!

رحلة في الظلام

ألقت بليلوت مروحتها بجانبها على الأريكة التي كانت ممددة عليها، ثم تنهدت ومضت سابحة في الأقدار التي تلاطمت في رأسها كالأمواج!

كانت تشعر بأنها متعبة، خائرة العزيمة، وقد حاولت عقب الغداء أن تجد سبيلًا إلى النوم؛ بسبب تلك الأفكار القاتمة المتلاحقة.

دقت الساعة الرابعة، فاشتد خفقان قلبها وتنبهت كل حواسها. فهذه هي الساعة التي عودها بونابرت أن يوافيها بمنزلها فيها كل يوم. لكنه لم يجئ إليها منذ ثمانية أيام وأكبر الظن أنه لن يجئ اليوم أيضا، فليس هناك ما يدل على ذلك.

لقد مضى في رحلة تفتيشية منذ أول شهر فروكتيدور، أي في ١٨ أغسطس.

وكانت تعلم أن الرحلة قد تمتد إلى أيام وقد فارقها بونابرت قبل أيام طويلة في حملته للزحف على سوريا، ثم في حملته لمقاتلة العدو في أبي قير، فتحملت ذلك الفراق في شجاعة وثبات واطمئنان. أما هذه المرة، فقد تولاها القلق منذ علمت بأمر الرحلة الجديدة وكان قلقها يزداد كلما شعرت باقتراب الفراق بسبب هذه الرحلة الغامضة التي سبقها استعداد خفي كبير وبالغ بونابرت وكل المحيطين به في كتمان أمرها!

وقد أتيح لها أن تعلم بأن القواد: مورا، ولان، واندريوسى، صحبوا بونابرت في رحلته هذه، فلم يدهشها ذلك قط. ولكن لماذا رافقه أيضا العالمان: مونج وبرتولى؟ والرسام دينون؟ والشاعر بارسفال؟

ولماذا زارها، قبل الرحيل بيومين، الرسام كونتي، وقال لها:

أيتها المواطنة، تلقيت أمرًا من بونابرت بأن أرسم صورتك بسرعة ولابد من إنجاز الرسم غدًا.

وكانت تمني نفسها بالحصول على معلومات أكثر، من بونابرت نفسه، حين يوافيها كعادته في اليوم السابق للرحيل. لكنه لم يحضر إلى منزلها عصر ذلك اليوم، واكتفى بأن دعاها إلى العشاء معه في قصر الألفي بك. وكان معهما على المائدة: برتيه وبوريين، وآخرين من المقربين من القائد العام، فلم تتمكن من التحدث معه كما تريد. وما أن انتهى العشاء وشربوا القهوة جميعا في حديقة القصر، حتى أخذ بونابرت بيدها وابتعد بها قائلا: يحسن أن تنصرفي الآن؛ لدي مشاكل عدة لابد من إنجازها قبل الرحيل!

وحينما حاولت أن تحدثه بهواجسها، لم يترك لها فرصة لذلك، وابتدرها قائلا:

كوني شجاعة، كما كنت حتى الآن.. إن ثمانية أيام تمر دون أن يشعر بها المرء.. هيا.. زوديني بقبلة قبل الرحيل!.

وتبادلا قبلتين في صمت وبكت بولين. أما هو، فقد أبى أن يدع للتأثر منفذًا إلى نفسه، فشيعها إلى باب الحديقة الصغير ثم أغلق الباب

وراءها، فعادت إلى دارها متخاذلة وارتمت على سريرها مسهدة قلقة حتى إذا انتصف الليل، سمعت وقع حوافر الخيل، فغادرت فراشها ووقفت إلى نافذتها وراحت تحدق بعينيها لعلها أن تقف على ما يوضح ذلك الغموض الذي يكتنف رحلة عشيقها العبقري العنيد، ولكن الظلام كان يغشى الأفق بسحابه المتراكم في تلك الليلة، فلم تستطع أن ترى سوى أشباح تتحرك، ثم ما لبثت هذه الأشباح أن ابتلعها الظلام وساد السكون!

ومنذ تلك اللحظة، لم تفارق الأشباح مخيلة السلطانة السجينة، القابعة في منزلها في انتظار عودة "السلطان الكبير!"

أمينة. أمينة!

وأقبلت الخادمة مسرعة، ملبية نداء سيدتها التي ابتدرتها سائلة:

أواثقة أنت من أن الجنرال لم يعد أمس إلى القاهرة؟

ولم تدهش أمينة لسؤال سيدتها العجيب، وأجابت قائلة:

نعم، لا شك في أن الجنرال لم يعد، ولو أنه عاد لعلمت المدينة كلها بعودته منذ الصباح!

فتنهدت الحسناء عشيقة الجنرال الغائب، وأردفت قائلة:

صدقت. ولكن، أما سمعت الناس يتحدثون عن هذه الرحلة في روحاتك وغدواتك بينهم؟

إن الناس يرونها رحلة غريبة ولكنهم لا يقولون شيئًا!

كيف؟ ألا يعلم أحد أين ذهب بونابرت، وماذا يصنع، وأين هو الآن؟

لا أحد يعلم شيئًا!

ولم تستطع بولين كتمان ما استحوذ عليها من القلق والمخاوف، وانطلق لسانها على غير إرادة منها بقولها: "أنني خائفة!"

ثم استدركت لتخفي ما كادت تصرخ به، فأضافت إلى ذلك قولها:

إنني خائفة من أن يعتدي أحد على الجنرال في الطريق!

وسارعت الخادمة إلى بعث الطمأنينة في قلب سيدتها، فقالت:

هذا أمر بعيد الاحتمال

وسكتت بولين قليلا، ثم قالت:

إذًا.. كيف العمل للحصول على أنباء عن الجنرال؟

فأجابت الخادمة:

لماذا لا تعهدين إلى يوسف في الذهاب إلى القصر، أو إلى الخارج، لاستقصاء الأخبار؟

وبدا بريق الإعجاب بالفكرة في عيني بولين وسرعان ما نفذتها، فنادت المملوك الحارس وعهدت إليه في القيام بتلك المهمة وانصرف من

فوره واعدا ببذل كل ما في وسعه لإنجازها على ما يرام.

وطالت غيبته!.. ولكنه عاد في النهاية، وقال لها وعلى وجهه دلائل التأثر والانقباض:

لقد سافر الجنرال!

سافر؟.. ماذا تعني؟.. أننا جميعا نعلم بأنه سافر، وإنما المهم أن نعلم أين هو الآن؟.. ومتى يعود؟

وأطرق المملوك يوسف قليلا، ثم رفع رأسه وقال متلعثمًا:

إن الجنرال لن يعود!

ولم تصدق سمعها وشعرت بقلبها يتصدع لما سمعته، فهبت واقفة وهي تسأل المملوك:

ماذا حدث؟.. تكلم!

فقال يوسف:

حقا إنه شيء يدعو إلى الآسف، ولكن هذا ما حدث...

فالجنرال قد غادر الأراضي المصرية كلها وأبحر عائدًا إلى فرنسا.

فانطلقت من صدر بولين صرخة عالية وترنحت في وقفتها، فرمت بنفسها على الأريكة شاحبة الوجه خائرة القوى!

وسكت المملوك متأثرًا، لكنها ما لبثت أن تمالكت عواطفها وسألته أن يسرد ما عرفه عن رحلة الجنرال ومضى يروي لها كل ما سمعه من القصر وغيره في هذا الشأن.

أراد بونابرت، قبل مغادرة القاهرة، أن يطمئن إلى أن كل شيء فيها سيظل سائرا على ما يرام، فوجه اهتمامه إلى كل كبيرة وصغيرة من مختلف الشؤون الإدارية وإعادة تنظيم فرق الجيش وتزويدها بالأسلحة والمعدات ودعم الاستحكامات، وعهد إلى الجنرال كليبر تولي القيادة بالنيابة عنه، لكنه لم يبح بسر رحلته إلى هذا القائد الثرثار ولا بوقوع اختياره عليه لكي يخلفه في قيادة الجيش إلا بعد إبحاره من الإسكندرية بيومين!

ولم يترك بونابرت في مصر شيئًا مما يخص شخصه، غير بولين عشيقته الحسناء، فقد أخذ معه صناديق كبيرة بها جميع أوراقه ورسائله وكتبه والهدايا الثمينة التي تلقاها من زعماء مصر والإعلام التي غنمها في معارك مصر وسوريا. وفي أحد هذه الصناديق، وضع صورة بولين التي رسمها كونتى في أقل من يومين!

وليس من شك في أنه قد شعر بالأسى لفراق بولين وقد احتفظ معتزًا بذكريات فوزه بها.. ولكن هذا كان كل ما أرضى به قلبه الذي أحبها. وفيما عدا ذلك كان تعطشه إلى السلطة والمجد وسموه إلى نيلهما بطريقته الخاصة، مما لا يترك مجالًا للتفكير في تلك الذكريات!

وفي الليلة التى عرفت فيها بولين من يوسف حقيقة ما جرى، وصل

إلى بيتها رسول يحمل إليها آخر خطاب كتبه إليها بونابرت..

وقد بقي نص هذا الخطاب مجهولا، كما بقيت أيضًا نصوص الخطابات التي كتبها إليها في أثناء الحملة السورية؛ ذلك لأن بولين لم تشأ الإبقاء على تلك الخطابات حين تقدمت بها السن، فأحرقتها لتمحو كل أثر يمكن أن ينال من عظمة البطل الذي أحبته وأحبها في مصر!

على أنه يمكن القول إن ذلك الخطاب الذي بعث به إلى بولين، قد اشتمل على نصحه لها بأن تتذرع بالشجاعة، كما اشتمل على الأسباب الفجائية التي حملته على الرحيل وأنه عهد إلى سائسه فيكوني أن يحمل إليها مع تحياته وتمنياته ما يجعله مطمئنًا عليها من الناحية المادية. وأخيرا، لابد أن يكون بونابرت قد وعدها في هذا الخطاب بأنه سيمهد السبيل أن أن تلحق به إلى فرنسا عما قريب!

وفي الوقت الذي فرغت فيه بولين من قراءة هذه الرسالة، كان بونابرت على ظهر سفينة في عرض البحر، ومن حوله قواده: مورا، ولان، واندريوسى، ومارمون، ومرافقاه: مرلان، وأوجين دى بوهارنيه، ابن جوزفين. وبعض المقربين الآخرين.

وقد وجد الأميرال كانتوم صعوبات جمة في تدبير رحيل بونابرت ومن معه، فأعد لهذا الغرض سفينتين وجهزهما بالرجال والسلاح والمؤن والذخيرة، بحيث تستطيعان البقاء في البحر شهرين وتم كل ذلك في تكتم تام، ودون أن يعلم رجال السفينتين أنفسهم حقيقة الرحلة التي يستعدون

لها!

وقد غادر بونابرت القاهرة في ليل اليوم الأول من فروكيتدور، ووصل إلى الإسكندرية في اليوم السادس منه، حيث انضم إلى الركب الجنرال مارمون وآخرون وجاءت الزوارق من السفينتين فحملتهم جميعا إليهما. وكان المملوك رستم بين الراحلين، فحمل بونابرت إلى الزورق بين ذراعيه حتى لا تبتل ثيابه بمياه البحر!

وتركت الخيول على الشاطئ، فجعلت تمزق سكون الليل بصهيلها، بينما كانت الزوارق تبتعد في طريقها إلى السفينتين اللتين لم ترفعا مراسيهما إلا في صباح اليوم التالي ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩، للانطلاق في جو ملائم وعلى صفحة البحر الهادئة، حاملتين بونابرت ورفاقه نحو مصير عظيم رائع، لم يكن المسافرون أنفسهم يتصورونه.

كليبر خليفة القائد

ألقت بولين ريشة الرسم من يدها وخاطبت رفيقتها قائلة:

إذا أردت، أيتها المواطنة، فتأخذي بعض الراحة، أنك قد تعبت في جلستك هذه!

ولم تكن رفيقتها سوى بيانكا فرديه، فردت بصوتها المسرحي العميق المؤثر قائلة:

أنا تعبت؟! هل ظهر علي التعب؟.. ما أظن!.. فأنا لا أعرف التعب!

ثم اعتدلت في مقعدها، بعد أن بقيت جامدة فوقه ساعة كاملة، أمام بولين، التي انهمكت في رسم صورتها، وقالت لها بتلك اللهجة نفسها:

أما إذا كنت أنت قد تعبت، يا صديقتى العزيزة، وترغبين في الراحة، فهذا شيء آخر!

فكان جواب بولين أن واصلت الرسم، مؤكدة أنها لم تتعب، فعادت صاحبتها تقول:

أفهم ذلك. فأنت أيضًا خدمت في حملة مصر وعانيت المشقات!

وتنهدت بولين وقالت:

أريد أن أواصل الرسم؛ فالانهماك في العمل يمنعني من كثرة التفكير،

قائلة...

ثم سكتت. واستأنفت الرسم بينما عادت بيانكا إلى جلستها الجامدة قائلة:

لا تفكري في شيء؛ إن السعيد في هذا العالم هو الذي لا يفكر في شيء أبدًا!

حدث هذا بعد حوالي شهر من مغادرة بونابرت القاهرة. ولم يكن هناك حقا ما هو أخطر على بولين من انهماكها في التفكير. وهي نفسها تدرك ذلك جيدا، ولكن أنى لها التخلص من التفكير بعد ما حدث؟

صحيح أن مرحلة اليأس انقضت وقد أدركت بولين الأسباب التي من أجلها سافر الجنرال فجأة. وهي لذلك قد صفحت عنه وعاودتها ثقتها بحبه إياها وبأن مكانها في قلبه ما زال خاليا ولكن: كيف السبيل إلى الخروج من مصر والذهاب إلى فرنسا؟

وتتابعت الأيام والفرصة لا تسنح بالرحيل وشعرت بولين بأنها وحيدة في الحياة؛ فأصدقاء الأمس سافر أكثرهم مع بونابرت ولم يبق على الود لخليلة القائد الغائب ممن بقوا في مصر، غير العالم فوريه وبيانكا زوجة الجنرال فرديه. وماذا يملك فرديه وبيانكا غير زيارتها من وقت إلى آخر لتسليتها والترفيه عنها؟

أما فيكوني، فقد قام بمهمته التي عهد إليه فيها بونابرت وحمل إلى بولين مبلغًا كبيرًا من المال وسدد كل ما كان عليها من الديون، ثم لم يره أحد بعد ذلك!

وفكرت بولين في الاتصال بالجنرال كليبر، ليكون لها سندًا وعونًا إذا اقتضى الأمر، فذهبت إليه في قصر الألفي، حيث حل محل بونابرت وهناك بقيت في غرفة الانتظار مثقل غيرها من الزائرين، حتى جاء دورها، فاستقبلها كليبر[1]

وكان هذا القائد في السادسة والأربعين من العمر ولكنه يبدو أصغر سنًا، ويعده الناس من أجمل القواد الفرنسيين، بل أجملهم على الإطلاق. وكانت بولين قد رأته من قبل وإن لم تتحدث معه، وشعرت بأن جمال الأنوثة قد يؤثر في نفس هذا الرجل الجميل.

فلجأت إلى وسائل الإغراء وخاطبته بصوتها الناعم قائلة:

جنرال، إنك لا تجهل في أي مركز دقيق أجد نفسي الآن!

فقاطعها كليبر قائلا:

إنني أرثى لحالك، بعد أن هجرك عشيقك العظيم!

ولم تدر بولين، أيهزأ بها القائد العام الجديد، أم يعبر عن اهتمامه بأمرها؟ ولكنها واصلت عرض شكايتها، فطلبت إليه أن يوفر لها مشكورًا سبيل الرحيل عن مصر في أقرب وقت.

وأصغى إليها كليبر إصغاء رجل ألف أحاديث الإغراء وعرف مقامه عند النساء. ولكنه تضايق لسماعها تردد اسم بونابرت بلا انقطاع وتذكر

---

[1] جان كليبر ولد في سترا سبورج عام ١٧٥٣ وقتل بالقاهرة عام ١٨٠٠. له في مسقط رأسه تمثال يتوسط ميدانا يحمل اسمه.

تعلقها به ورغبتها الملحة في السفر للقائه بفرنسا، فقال غاضبا:

إن بونابرت أضاع رشده! فإلى أين يذهب على ظهر سفينته؟

سوف يأسره الإنجليز ولن يصل أبدا إلى فرنسا. وفي أثناء ذلك، ماذا يحدث هنا؟ لقد ترك لي مهمة شاقة. فكل شيء في مصر يسير على أسوأ حال وسيزداد سوءًا مع الأيام. وليس الذنب ذنبي أنا، بل إنني سأتحمل مسؤولية أخطاء اقترفها غيري، وسوف يسيء هذا إلى سمعتي![١]

وجعل يشكو ويتهم سلفه، قائلا:

إنه هارب من واجبه، ولكنه في الواقع كان ينوء بعبء المنصب الذي آل إليه. فهو بطل من أبطال الحروب ولكنه خلق ليكون محكومًا لا حاكمًا!

وانتظرت بولين حتى انتهى كليبر مما أراد أن يقوله لها عن نفسه وعن بونابرت سلفه، ثم قالت له:

إنني أعلم المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقك، ولكن ما أطلبه منك ليس بالأمر العسير وكلمة منك تكفي لكي أجد لنفسي مكانًا في أول سفينة تبحر إلى فرنسا!

---

(١) كان كليبر يكره بونابرت. وقد زادت نقمته ونقمة بقية الضباط على القائد العام بعد رحيله عن مصر واتهموه بأنه أدرك سير الحملة إلى الفشل فهرب ليتجنب الهزيمة أو التسليم. وكان كليبر، بعد معركة أبي قير البحرية وتحطيم الأسطول الفرنسي، قد كتب إلى الديركتوار بباريس يقول أن الاحتفاظ بمصر مستحيل وأن الجلاء عنها خير وأوفي. وكان يجاهر بأن بونابرت مخطئ في اعتقاده بأن الشعب المصرى سيرضخ ويرضى بالحكم الفرنسي.

وبدت الدهشة في وجهه ممتزجة بالغيظ، وقال:

سفينة؟ من أين تريدين أن أجد لك سفينة؟ ولقد أخذ مني بونابرت السفينتين الوحيدتين الصالحتين للعمل. ولو وجدت السفينة لاضطررت إلى توفير أماكن فيها للجنود الجرحى والمرضى والمشوهين

وبرغم ذلك لم تيأس بولين ونظرت إلى القائد الجميل نظرة أودعتها كل سحرها وعززتها بابتسامتها الخلابة وعادت ترجو عونه بصوتها المغرد الحنون وهدأت ثورة كليبر، فقال في ختام الحديث:

عودي إلى منزلك أيتها المواطنة وانتظري، وسوف نرى ما يمكن أن نصنعه من أجلك!

وتظاهرت بأنها تعد هذه العبارات بمثابة وعد من القائد وشكرته على ذلك!.. وشيعها كليبر إلى الباب، باب القاعة التي كانت من قبل مكتبًا لبونابرت. فعادت إلى بيتها حائرة بين اليأس والرجاء.

وقسمت بولين وقتها، في الأيام التالية، بين المطالعة مع فوريه والرسم مع بيانكا. وبقيت صابرة صامتة، ترقب الأخبار.

وكان رجال الحملة في مصر قد انقسموا إلى فريقين: أحدهما فريق الذين حاربوا في جيش الرين مع كليبر، فهم يرون رأيه في أن بونابرت فر هاربًا، تاركًا جيشه فريسة الأقدار في الشرق. وفريق الذين حاربوا مع بونابرت في إيطاليا وهؤلاء يرون أنه عاد إلى فرنسا لإصلاح الفساد، وأنه سيتولى الحكم ولن ينسى رفاقه الذين حاربوا تحت إمرته في مصر وفلسطين.

وكان هذا أيضًا رأي العالم فوريه، كما هو رأي بيانكا، التي قالت لبولين وهى منهمكة على وفائهم له.. وأنت على الأخص يا عزيزتى، أنت التي..

وسكتت بيانكا لأن أمينة دخلت مسرعة واقتربت من سيدتها، وهمست في أذنها:

الجنرال بالباب يريد أن يقابلك! ذهلت بولين وسقطت ريشة الرسم من يدها وجعلت تردد قائلة: "الجنرال!.. الجنرال!"

وفطنت فتاتها المصرية الذكية إلى سر دهشتها، فهيلابد قد انصرف ذهنها إلى الجنرال الحبيب "السلطان الكبير". فأردفت الفتاة قائلة:

الجنرال كليبر!

فوثبت بيانكا هنا.. في بيتك؟ إن الحظ يسعى إليك وقد تنبأت لك بذلك. وإذا كان كليبر يريد أن يراك، فمعنى هذا أنه سيسهل لك سبيل الإبحار إلى فرنسا ولا أريد أن أكون مزعجة.. إلى اللقاء!

وقالت بولين للخادمة: "أدخلي الجنرال".

وبعد لحظات، ظهر القائد العام الجديد بقامته الفارعة التي ملأت فرجة الباب واضطر أن يحني رأسه ليتمكن من الدخول، ولكن هذا الانحناء كان في وقت واحد تحية للحسناء، ثم قال لها متلطفًا:

معذرة أيتها المواطنة على هذه الزيارة المفاجئة، فإنني شديد الرغبة في التحدث إليك، وقد فكرت كثيرا بل أكثر مما يجب، وأظن أن التفاهم بيننا

ممكن. ولهذا، جئت لأفضي إليك بما يجول في خاطري وبلا إبطاء. فالحياة قصيرة وينبغي ألا نضيع منها دقيقة ثمينة واحدة!

قال هذا، ثم أخذ ينظر إلى الرسم الذي تصنعه بولين، وهتف معجبًا:

إنك بارعة في الرسم.. وهذا رأي خبير عليم!

ولم تجد بولين ما ترد به على هذه العبارات وظلت صامتة وقلبها يخفق وشفتاها ترتعشان، وانطلق كليبر في ثرثرته، يتحدث عن شبابه وحروبه، وعن تطوعه أولا في جيش النمسا، ثم في جيش ملك فرنسا.. وأخيرا، تكلمت بولين فقالت له:

جنرال، ما أحسب أنك جئت لزيارة عشيقة مهجورة لتقص عليها تفاصيل حياتك!

وبدأ أنه سر لمقاطعتها حديثه ذاك، واعتذر قائلا:

كلا، فسوف نجد الوقت الكافي في المستقبل، للعودة إلى هذا الحديث، أما الآن، فلنتكلم بصراحة، وليفتح كل منا قلبه للآخر، كما يفعل الصديقان.

ثم جلس على مقعد بجانب مقعدها، ومد رجليه على السجادة.

وأستلقى إلى الوراء، واستأنف كلامه فقال:

لقد ترك لي بونابرت، بعد سفره، قيادة لم أكن أتمناها، ومسؤوليات ومتاعب أنا في غنى عنها. ولكنه ترك لي أيضًا قصرًا فاخرًا ومائدة عامرة وخدها مدربين ومركبات وجيادًا، وغير ذلك مما هو جدير بالملوك

والسلاطين، وهذا في الواقع يعجبني كثيرًا. ومن ناحية أخرى، ولست أدري أفعل ذلك عمدًا أم لا؟.. أراه أيضًا قد ترك لي خليلة تعجبني كثيرًا أيضًا!

وملأ الشحوب وجه بولين وصاحت به في لهجة ملؤها الاستنكار

مهلا يا جنرال!.. أظننت أنك بالحلول محل بونابرت في حكم مصر، يمكنك أن تحل محله أيضا في علاقاته الغرامية؟(١)

فلم يبد لسخريتها واستنكارها أي أثر في نفسه، وقال:

أرى أنك على جانب عظيم من الذكاء. فقد فهمت في الحال!

فابتسمت ساخرة، وقالت:

نعم، فهمت قبل أن تبدأ الكلام، فهمت كل شيء من نظرتك الأولى! ولكنني فهمت أيضًا أن الإقدام على استغلال الظروف، يعد جبنًا!

ولم تثر هذه الإهانة السافرة غضبه أيضا، واستطرد يقول:

بل قولي أن هذا يعد اهتمامًا ممزوجًا بالإخلاص والعطف، ولو أن مكاني الآن أي رجل آخر، لأقدم على ما تسميته جبنًا، أمام امرأة شابة، فاتنة، مغرية مثلك!

كانت بولين حتى هذه الساعة باقية، من حيث الطبع والخلق، في

---

(١) أن موقف الجنرال كليبر من عشيقه سلفه الجنرال بونابرت دليل آخر على الانحلال الخلقى عند قادة الحملة الفرنسية الذين تحلوا بنبوغ عسكرى لا شك فيه. وقد ترك كليبر في مصر ذكريات مشينة من هذا القبيل. وبعد رحيل بونابرت، فاوض كليبر الإنجليز والأتراك على الجلاء عن مصر، ولكنهم اشترطوا شروطا رفضها فاستأنف الحرب ضدهم، وثارت مدينة القاهرة في عهد مرة أخرى، وكان مركز الثورة في حى بولاق. ولم يتمكن من إخمادها إلا بعد شهر كامل من نشوبها.

مستوى الوسط الذي خرجت منه عاملة من عاملات الأقاليم، ولكن الغضب الذي تولاها في ذلك اليوم، أمام الجنرال كليبر، جعلها تسمو إلى مصاف البطلات وحدقت بصرها في قسمات وجهه الجميلة المتناسقة، فخيل إليها أن ذلك الوجه بشع قبيح. ثم رفعت يدها وأمسكت بالسلسلة التي تطوق عنقها وتحمل صورة بونابرت في إطارها الثمين، وقالت:

انظر إلى هذه الصورة ما دمت تراها في مكانها هنا، فكن واثقًا بأنني باقية على وفائي لصاحبها!.. أفهمت يا جنرال؟!

فارتبك كليبر ونهض من مقعده واتجه إلى الباب مرددًا:

ليكن.. ليكن.. سوف ننتظر ونصبر.. فكري مرة أخرى أيتها المواطنة... إن مصيرك بين يديك!

وبعد أن خرج، أجهشت بولين في البكاء...

وفي العاشر من شهر أكتوبر، تمكنت من الحصول على إذن بالسفر إلى فرنسا، فأبحرت على سفينة أمريكية كانت مارة بالإسكندرية!

بعد الانقلاب

خرج الملازم جان فوريس في صباح أحد الأيام من بيت عمته واخترق شوارع المدينة متجهًا إلى الأسوار القديمة المحيطة بها وكان الجو دافئًا. كما هو الشأن خلال فصل الربيع بمدينة كركاسون. والأسوار بعيدة الموقع بحيث لا يقترب منها غير طالبي النزهة أو الخلوة وقد اختار فوريس ذلك المكان ليقضي فيه الساعات الطوال، مستسلمًا لأفكاره وكآبته وحقده!

كان يجتنب الاختلاط بالناس لأنهم جميعًا يعرفون ما حدث له!.

فلم يكن يغشى المجالس أو المقاهى وما إليها تفاديًا للحرج. وطالما أدرك أن المارة الغرباء عنه يرمقونه بنظرات تحمل معاني السخرية والاستهزاء وأن اسم بولين يطوف على شفاههم كلما رأوه!

وكان اسم بونابرت يطرق سمعه في كل مكان، فالناس لا يتحدثون إلا عن القائد الشاب الذي صنع معجزات كثيرة وينتظر أن يصنع معجزات جديدة!

على أن رجلًا واحدًا من بين أهل كركاسون جميعًا كان يروق لفوريس أن يتحدث معه، وذلك هو المواطن ديسال المحامي. فكلا الرجلين يشترك مع الآخر في شعور واحد؛ هو شعور الحنق على العاملة السابقة في حانوت

"الوردة الفضية".. وعلى بونابرت. ذلك القائد الذي أصبح معبود الفرنسيين وكان ديسال على علم بكل ما يجرى في باريس وله فيها أصدقاء كثيرون، فما كاد فوريس يلتقي وإياه في ذلك الصباح، أمام الأسوار القديمة النائبة، حتى سأله:

هيه أيها المواطن الصديق: أما من نبأ جديد؟

وانفرجت شفتا المحامي عن ابتسامة صفراء، وقال:

نعم عندي نبأ جديد خطير عن صديقك بونابرت! لقد كتب إلي ملك الإنجليز، كما يكتب الند إلى الند، مبلغًا إياي خبر اختياره لمنصب القنصل الأول وعرض عليه الصلح!

ومضى الصديقان يتبادلان التعليقات الساخرة، كما كان شأنهما إزاء كل عمل أقدم عليه بونابرت، منذ اليوم الثامن عشر من شهر بروميير الذي أسقط فيه حكومة الديركتوار وتولى هو الحكم بإنشاء هيئة القنصلية برئاسته![١]

فقال فوريس متأففًا:

ولكن نهايته السقوط.!.

فأجاب رفيقه:

---

[١] هيئة القنصلية كونسولا حكمت فرنسا من ٩ نوفمبر ١٧٩٩ إلى ١٨ مايو ١٨٠٤ وكانت تضم ثلاثة قناصل: بونابرت، كرئيس أول وكمباسيريس ولبرون. أما حكومة الديركتوار السابقة فقد أسقطها بونابرت على أثر عودته من مصر في ٩ نوفمبر ١٧٩٩ (١٨ برومبر)

السقوط؟. من يدري يا صديقي؟ إن طالعه السعيد لا يتخلى عنه!. إنه رجل ذو حظ عظيم!. هل تذكر مركزه الحرج بعد تدمير الأسطول في أبي قير، أو بعد فشل الجيش أمام عكا؟ أما كان الجميع يعتقدون أن قائدكم هذا أصبح سجينًا في مصر. ومع ذلك، استطاع الإبحار من الإسكندرية وأفلت من الحصار الذي ضربه الأسطول البريطاني بقيادة الميرال نلسون وعاد سالمًا إلى فرنسا. وبدلا من أن تنهار سمعة القائد الهارب، كان يجب أن يلقى القبض عليه يوم اقتحامه مجلس الخمسمائة لإعلان إسقاط الحكومة[١].

ولكن الذي حدث أن أعضاء المجلس فروا من النوافذ وصفقت فرنسا كلها للقائد الجرئ!. وهو اليوم يشغل منصب القنصل الأول؛ أي أنه حاكم فرنسا المطلق!

وتمتم فوريس قائلا:

قنصل أول! ولماذا لا يكون إمبراطورًا؟ فردد المحامي ديسال هذا التساؤل. ثم مشى الصديقان معًا. وفي حديثه قال المحامي مبتسمًا:

جاءتني أيضًا من باريس أخبار عن شخص آخر

فقال فوريس:

عن المواطنة بولين، أليس كذلك؟

---

[١] مجلس الخمسمائة سنكسان عرف بهذا الاسم لأنه كان يضم خمسمائة عضو يتولون السلطات التشريعية، حلة بونابرت يوم أسقط حكومة الديركتوار أي المديرين.

نعم... عن المواطنة بولين...

فوقف فوريس وأخذ ينظر في دهشة وتساؤل إلى صديقه المحامي، الذي واصل حديثه قائلا:

بعد رحيل بونابرت، ساعدها الجنرال كليبر على الرحيل بدورها والعودة إلى فرنسا!

وهز فوريس كتفيه ومد شفتيه، وتمتم قائلا:

هذا أمر طبيعي يا صديقة؛ لقد كانت وهي فقيرة لا يطمع فيها أحد. أما بعد أن انغمست في الترف والفساد، فإن كليبر وجميع الناس يريدونها!

فقال ديسال:

أنا لم أقل إنها كانت عشيقة كليبر!

فأطلق فوريس ضحكة متكلفة، وقال:

ولم لا؟ ألم تكن عشيقة سلفه؟

فتوقف ديسال عن المشي مرة أخرى، وقال:

وهذا أيضًا لم أقله لك!. إن بعض الناس يدعون أنها كانت عشيقة القائد العام الجديد في مصر، ولكن الآخرين ينكرون هذا.

والذي لا شك فيه أنها حصلت من كليبر على إذن بالسفر وأبحرت على سفينة أمريكية. ولكن الأسطول البريطاني أوقف هذه السفينة في عرض البحر ووقعت بولين أسيرة ولكن الإنجليز أطلقوا سراحها!

وهنا عاد فوريس بذاكراته إلى الحادث المماثل الذي وقع له مع الأسطول البريطاني، فغمغم يقول: ".. هي أيضا؟!". بينما واصل ديسال كلامه، فقال:

وواصلت السفينة الأمريكية طريقها إلى مرسيليا، فنزلت بولين إلى البر وذهبت إلى باريس حيث استأجرت منزلًا في سان كلو تعيش وحدها فيه!

فسأله فوريس:

هل رأته؟ هل رأت بونابرت؟

وأجاب ديسال:

لا وما أظن أن هذا سيحدث، فالظروف في فرنسا تختلف عما كانت عليه في مصر؛ والقنصل الأول يتحاشى القيل والقال ويتجنب الفضيحة. ثم إن المواطن بونابرت قد ملك قيادة من جديد!

وأعادت هذه الكلمات بعض الطمأنينة إلى نفس فوريس، فقال:

على هذا، إذا كانت بولين تعيش وحدها في سان كلو، كما تقول، فلا شيء يمنعني من اللحاق بها لعلها ندمت على ما فات وقد تكون باقية على حبي!

فدهش المحامي وهالته هذه الكلمات، فحذر صديقه قائلا:

إياك أن تقدم على مثل هذه الحماقة التي لا فائدة منها، فما أدراك أن بونابرت لا يراقبها ويحرسها. وقد يلقي القبض عليك وتسجن. وفي هذا

خير خدمة للمرأة التي خانتك!

فأطرق فوريس كئيبا حزينا، ثم سأل صديقه:

ما العمل إذًا؟

لا شيء. لا شيء غير التمتع بالحياة والنسيان!

النسيان؟ وهل النسيان سهل إلى هذا الحد؟

نعم، فأنت في مقتبل العمر وفي كركاسون فتيات كثيرات غيرها!

وأطرق فوريس كركاسون كلها تنظر إليه باحتقار، بسبب ذلك الماضي المؤلم، وليس هناك غير فتاة واحدة تبدي نحوه بعض العطف، وهي سيزارين، العاملة في الوردة الفضية، حانوت عمته المواطنة فوريس.

فتمتم قائلا: "نعم قد تكون على حق!"

ثم تصافح الصديقان وافترقا، فعاد فوريس إلى "الوردة الفضية" وانصرف ديسال إلى بيته، وكل منهما يجهل أن الآخر يفكر في الفتاة التي يفكر فيها هو.. سيزارين!

قناعان يلتقيان

توافد المدعوون على شارع كابوسين في باريس، حيث تقع الدار الفخمة التي أقام بها المرشال برتبه حفلته الساهرة، في مساء يوم من أيام الخريف سنة ١٨٠٧.

وكان فريق من الضباط يستقبلون الوافدين ويطلعون على بطاقات الدعوة التي يحملها كل منهم ويبرزها عند الباب. وقد اختلط بالمستقبلين أيضا بعض رجال البوليس السري التابعين للوزير فوشيه، احتياطًا للطوارئ والمفاجآت.

كانت باريس كلها لا حديث لها منذ شهر إلا عن هذه الحفلة الرائعة التي وعد الإمبراطور نابليون بأن يحضرها بنفسه![١]

واجتازت مدام دى رانشوب باب الدار بقدم ثابتة. ومع ذلك، فهي تشعر بأن قلبها يخفق بشدة تحت الثوب التنكري الوردي اللون وقد ارتعشت يدها وهي تبرز بطاقة الدعوة التي حصلت عليها من صديق له علاقة وثيقة بالبلاط الإمبراطوري.

ولم يفطن أحد إلى ارتباك السيدة. وبعد النظر إلى بطاقتها، دعيت إلى الدخول واتجهت إلى القاعات الفسيحة.

[١] في ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ الغى النظام القنصلى ونودى بالجنرال بونابرت إمبراطورا باسم نابليون الأول وأصبحت جوزفين الزوجة الطائشة إمبراطورة!

إنها امرأة في الثلاثين من العمر، ولكنها لا تزال أنيقة فاتنة بقامتها المعتدلة وجسمها الممتلئ المتناسق التقاطيع وشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين الصافيتين اللامعتين من خلال قناعها الأسود الشفاف!

وكثيرات هن النساء ذوات العيون الزرق والشعر الأشقر بين المدعوات إلى تلك الحفلة. ولكن مدام رانشوب كانت ولا شك، تفوقهن جميعا في هاتين المزيتين. فقد كانت هي بعينيها وشعرها.. المواطنة بولين!

لقد انقضت ثمانية أعوام على مغامرتها في مصر. ثمانية أعوام ظلت فيها الحسناء محتفظة بنضارة شبابها وكامل فتنتها، برغم فشل المساعي التي بذلتها لاسترجاع العشيق العظيم الذي أفلت منها!

وقد كتبت المواطنة بولين أكثر من مرة إلى القنصل الأول من البيت الذي اعتزلت الناس فيه بمدينة سان كلو. وكان رده في كل هذه المرات، لا يزيد على زيارة من "دوروك" مرافقه القديم الأمين، يحمل إليها بعض المال والهدايا والتمنيات والوعد بالمزيد من هذا القبيل وبشمولها بحماية القنصل الأول من كل مكروه. أما أن تفكر في غير هذا، في العودة إليه مثلا، فهذا ما يجب أن تقطع كل أمل فيه.

إن أمام القنصل الأول مشاغل عظيمة عديدة وسُمعته أيضًا لا تسمح له بأن يجدد الصلة بالماضي ويربطه بالحاضر!

ولم تكن بولين تجهل المطامع البعيدة التي لم تتحقق بعد للقنصل الأول ولا تجهل ما ينطوي عليه حاضره من علاقات غرامية جديدة، بجانب علاقاته المجددة مع جوزفين!

أخيرا رضخت بولين للأمر الواقع ورضيت بما قسم لها، فابتاعت بيتا على مقربة من باريس وجعلت تتردد على العاصمة من حين لآخر، باحثة عن أصدقاء تتبادل معهم الزيارات.

في سنة ١٨٠١، تعرفت في إحدى الحفلات الباريسية إلى "هنري دى رانشوب" وهو شاب جميل متأنق، يدعي أنه من أسرة نبيلة. ولكنه فقير يبحث عن وسيلة يملأ بها يده الفارغة ويكثر في هذا السبيل من المباهاة بأعمال لا أثر لها إلا في مخيلته!

وأعجبت بولين بجمال الشاب وأناقته ثم أرادت أن تتزوجه.

وعهدت إلى دوروك في استطلاع رأي بونابرت في ذلك، وسرعان ما جاءها الرد بموافقته على طول الخط، بل لقد أشفع موافقته هذه بأن عين الشاب في وظيفة بإسبانيا!

وتم الزواج في شهر أكتوبر سنة ١٨٠١. ولكن الخلاف دب سريعًا بين الزوجين، فاتفقا على الانفصال وديا وعادت بولين إلى باريس وحدها، فأقامت بدار فتحت أبوابها للأدباء والفنانين.[١]

ولما أعلنت الإمبراطورية ووضع بونابرت على رأسه التاج، قالت بولين: "لو أن الحظ ساعدني لما توج البابا اليوم جوزفين، بل لتوجني أنا!.."

ورضخت بولين لحكم القدر ولكنها ظلت تعلل النفس برؤية "بونابرت السلطان الكبير"، عشيقها بالأمس، ولو مرة واحدة! وانقضت

---

[١] في شهر أكتوبر ١٨٠١ تزوجت بولين. وفي أكتوبر ١٨٠١ أيضا كان الفرنسيون يجاون عن مصر ويسدل لستار على مغامراتهم فيها.

سنوات دون أن يحقق هذا الرجاء. ولكن، ها هي ذي اليوم، تذهب إلى الحفلة الساهرة في دار برتيه. وسوف ترى بونابرت في هذه الحفلة!

اجتازت بولين ممرات الدار الفسيحة في خطى وئيدة متزنة وراحت تجيل نظراتها في حلقات الرقص وعلى الموائد، باحثة عن ضالتها المنشودة؛ محاولة أن تعرف الإمبراطور في ثوبه التنكري.

ولكن أين هو؟ وأين مكانه بين هؤلاء الكثيرين من المتنكر من المقنعين؟

واسترعى انتباهها رجل يرتدي ثوبًا رمادي اللون، وخفق قلبها، فلا بد أن يكون هو من تبحث عنه!

ومضيت تتبع الرجل المتنكر من قاعة إلى أخرى واحتالت لتقف في طريقه أو على مقربة منه ونجحت في ذلك. ولاحظ صاحب الثوب الرمادي أن سيدة تقف وحدها أمام باب زجاجي، فاقترب منها، وقال لها:

لماذا تنتحين هذه الناحية وحدك يا سيدتي؟ ألا يوجد بين المدعوين من يعجبك، فترافقينه أو ترقصين معه؟

فأجابت صاحبة الثوب الوردي:

هناك واحد فقط يعجبني.. وأنا في انتظاره!

إنه لإهمال منه لا يغتفر. وهل طال انتظارك؟

وشعرت بولين بأنها أقل شجاعة مما كانت تظن، ولكنها تجلدت وأجابت بجرأة:

انتظره منذ ثمانية أعوام!. نعم، منذ أحد أيام شهر فروكتيدور. حيث تركني في القاهرة في حدائق الألفي بك!

وساد صمت قصير وتقابلت العينان المطلتان من أعلى قناع الثوب الرمادي بالعينين المطلتين من أعلى قناع الثوب الوردي!

وأخيرا، قال بونابرت في لطف، وبدون أن يفقد هدوءه:

حقا. كان يجب علي أن أعرف هاتين العينين! فأنت بولين! وعينان مثل عينيك، لا ينساهما من يعرفهما!

وانطلق يسأل ويكثر من الأسئلة كعادته. أهي في صحة جيدة؟ أهي في حاجة إلى شيء؟

وأجابت المرأة بكلمات متقطعة، لأنها أفرغت مجهودها كله في جملة جريئة واحدة! فما الفائدة الآن من الكلام؟ إن الرجل الذي تراه أمامها الآن ليس عشيقها السابق، بل الإمبراطور. وما دامت قد رأته وكلمته، فإنها لا تنتظر شيئًا آخر في المستقبل. ولكن صرخة غرام أخيرة انطلقت من بين شفتيها فقالت: "لماذا هجرتني؟"

فحدق فيها البصر وأجابها بسؤال آخر: "لماذا لم تلدي لي ابنًا؟"[1]

---

[1] طلق نابليون زوجته جوزفين في سنة ١٨٠٩ لأنها أيضا "لم تلد له ابنا" يرث العرش من بعده. وتزوج في السنة التالية الأرشيدوقة مارى لويز ابنه إمبراطور النمسا فرزق منها وحيده "فرنسوا لويس نابليون" الذي عرف باسم "نابليون الثانى" وأن لم يكن قد جلس على العرش. وقد مات نابليون الأب منفيا في جزيرة القديسة هيلانة سنة ١٨٢١، ومات نابليون الابن منفيا أيضا في فينا سنة ١٨٣٢.

وكان بودها لو تضحك وأن تكون ضحكتها تغريدًا عذبًا كما كانت بالأمس. ولكن الضحكة اختنقت في حلقها؛ لأن صاحب الثوب الرمادي ابتعد متغلغلًا بين المدعوين!

ومنذ ذلك اليوم، لم يجتمع العاشقان السابقان!

من إمبراطورية إلى أخرى:

مدت مدام دي رانشوب يدها ومالت بوجهها إلى الموقد لتنعم بحرارة النار المشتعلة فيه. وكانت جالسة على مقعد واسع والتحفت بثياب ثقيلة؛ فالشتاء شديد قاتم والضوء ضعيف داخل الحجرة، حيث السيدة العجوز ذات الشعور البيضاء والوجه الذابل والأصابع المتجمدة، جامدة في مقعدها، بين قطع الأثاث القديمة الثمينة واللوحات الزيتية الجميلة.

إن مدام دي رانشوب أوشكت أن تبلغ التسعين من العمر.

وهي ترفع رأسها مرارًا إلى الساعة المعلقة على الحائط وتتنهد متسألة:

لماذا لم يأت بعد؟ هل حدث له مكروه، أم أنه قد نسيني هذا الأسبوع؟

ولكن قبيل الساعة الرابعة، دق الجرس في الخارج وبعد لحظات فتح باب الحجرة ودخل شيخ أبيض شعر الرأس واللحية، يرتدى سترة ضيقة سوداء، تحلى بإشارة "جوقة الشرف" ثم تقدم منها متكئا على عصاه، وهو يقول:

لقد تأخرت قليلا، معذرة يا صديقتي.

جاكومان:.. لماذا جعلتني أنتظرك.. هذا يخالف عادتك وأنت تعرف أنني لا أحب التأخير!

وكان جواب الكولونيل جاكومان على هذا العتاب، قبل اليد الممدودة إليه وجلس في المقعد المجاور لمقعد ربة الدار، ثم قال بعد سكون قصير:

كنت أجتاز ميدان المادلين، فرأيت الناس محتشدين على الأرصفة ينتظرون موكب الإمبراطور. وأقر بأني فعلت مثلهم، فوقفت على الرصيف وانتظرت!

ولما مر الموكب، هتفت مع الهاتفين: ليحيا الإمبراطور.

هذا كان هتاف الناس من حولي. أما أنا، فقد اكتفيت برفع قبعتي.. ولكن. ألا تقرين معي أن هذا الهتاف: "يحيا الإمبراطور" يبعث السرور في النفس؟

هذا صحيح.. ولكن نابليون الثالث ليس إمبراطورنا نحن، ليس بونابرت.

كان الكولونيل جاكومان يزور صديقته مدام دي رانشوب أو بولين زوجة زميله القديم فوريس، مرة في كل أسبوع. وقد عاد الملازم جاكومان إلى فرنسا، حيث واصل الخدمة في الجيش واشترك في حروب الإمبراطورية وتزوج حبيبته لوسيل.

وأحيل إلى المعاش بعد عودة الملكية، وهو في رتبة كولونيل. ومرت سنوات عديدة، فماتت مدام جاكومان، ومنذ ذلك الوقت، عاش الضابط القديم وحده، يشكو ألم المفاصل ويذهب كل أسبوع لزيارة صديقته القديمة بولين والتحدث معها واستعادة ذكريات الماضي.

أما بولين، فقد استأنفت حياتها الزوجية بعد مقابلة الإمبراطور في الحفلة الساهرة، ولكن رانشوب الذي عين في وظيفة أخرى بألمانيا ألح على زوجته في اللحاق به، فرفضت، واتسع الخلاف بينهما، حتى انتهى بالطلاق.

والتقت بعد ذلك بضابط قديم يدعى بيار، فأحبته وسافرت معه إلى البرازيل، بعد أن باعت كل ما كانت تملك في فرنسا. غير أن هذه العلاقة كذلك لم تدم طويلا، فافترقت عنه وعادت إلى فرنسا.

وتوافد الكتاب والفنانون من جديد على دارها بشارع "فيل لفيك"، حيث استقبلت لفيفًا من المقربين إلى البلاط ولكنه بلاط غير بلاط سنة ١٨٠٧، فقد مرت السنون وتغيرت الظروف والأحوال وتتابع على قصر التويلري بباريس ثلاثة ملوك: لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس فيليب!

وانصرفت إلى التاليف، فكتبت بعض الأقاصيص وعنيت بجمع اللوحات الفنية وأتقنت العزف على القيثارة[١].

---

[١] وجدت في بيت مدام دى رانشوب أو "بليلوت" لوحات زيتية ورسوم يدوية تمثل مناظر مصرية، بعضها من رسم عشيقه بونابرت يوم كانت في مصر.

أما الملازم جان نوبل فوريس، فشغل وظيفة في الجيش المرابط في أسبانيا وأسره الإنجليز مرة أخرى، فظل في الأسر حتى سقوط الإمبراطورية ثم اعتقل في عهد الملكية ومات خاملًا مجهولًا في عهد لويس فيليب. وإذا كان التاريخ يحفظ اسمه؛ فذلك لأنه أعطى هذا الاسم للمرأة التي كانت عشيقة بونابرت وهو متزوج!

ولا شك في أن أكثر المترددين على دار مدام دي رانشوب باريس كانوا يعرفون شيئًا عن علاقة ربة الدار بالفاتح العظيم..

فمظاهر التكريم التي كان معظم هؤلاء يحيطون بها الكونتس، تدل على أنهم كانوا على علم بها. ولكنهم كانوا يتجنبون الإشارة في أحاديثهم إلى ذلك الماضي البعيد. بينما جاكومان وحده كان يفعل ذلك في خلواته مع الصديقة القديمة!

وهذا ما فعله أيضًا في هذه الزيارة...

سكت العجوز، ثم سألت مدام دي رانشوب صديقها فجأة:

هل رأيته؟

من؟

نابليون الثالث[١]

---

(١) نابليون الثالث: أبوه لويس بونابرت أخو الإمبراطور نابليون الأول، وأمه أورتانس ابنة جوزفين من زوجها الأول بوهارنيه. أعاد نابليون الثالث النظام الإمبراطوري إلى فرنسا في سنة ١٨٥٢ وهو النظام الذي انهار مرة أخرى بعد هزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠.

نعم، رأيته من خلال زجاج المركبة

وما رأيك فيه، بصراحة؟

لا أدري!.. إنه على كل حال لا يشبه الآخر! فعيناه الواسعتان وأنفه الكبير وشاربه الأسود الطويل، اللامع...

هذا ما كنت واثقة منه، فليس في العالم رجل يشبه بونابرت!

وابتسم الكولونيل العجوز، وقال:

يخيل إلي أن الحب لا يزال ينطق بفمك!

نعم، إني أحبه.. أحبه حتى هذه الساعة، كأنه لا يزال حًّا أحبه كما عرفته هناك نحيف الجسم، شاحب اللون، سريع الغضب، جديرًا بالإعجاب! وكما كنت أنا أيضًا في ذلك الوقت، ظمأي إلى الملذات، غير مكترثة بالمستقبل، طائشة.. وفي العشرين من العمر!

في العشرين.. لقد مضى على ذلك الوقت الآن.. إنني لا أجرؤ على عد السنين!

لا تعدها، ففي نهاية العمر، ليس لي غير عزاء واحد، هو أن أحيا بالذكرى ما قد أصبح في حكم الماضي البعيد..

آه بليلوت! إن هذه لكلمات تجعلني أتخيلك مرة أخرى كما كنت في ذلك الوقت.

فتنهدت العجوز وقالت: بليلوت!.. أنت وحدك الآن تناديني بهذا الاسم، أي عزيزي جاكومان... ردد على مسامعي مرة أخرى هذا الاسم

الذي يلذ أن أسمعه!

فرسخ جاكومان لإرادتها وهمس في أذنها بصوت خفيف ولهجة تكاد تكون غرامية:

بليلوت!

مات الكولونيل جاكومان في الربيع التالي. وبعده بسنتين، أي في ١٨ مارس سنة ١٨٦٩، في نهاية عهد نابوليون الثالث، ماتت، في الثانية والتسعين من العمر، بولين العاملة السابقة في مدينة كركاسون، زوجة المواطن فوريس المطلقة، كونتس دي رانشوب التي لو ولدت لبونابرت ابنًا، لأصبحت إمبراطورة!

الفهرس

مقدمة ٥

الوردة الفضية ١٣

"بليلوت" صانعة القبعات في حانوت "الوردة الفنية" ١٥

أمل ضائع ٤٠

الفرسان الأربعة ٤٧

مياه.. ثم رمال ٥٩

فارس من المماليك ٦١

في الحسينية ٧٢

الزيارة الأولى.................................. ١٠٢

انتصار الحب.................................. ١١٢

رسول إلى باريس ١٢٢

فنجان قهوة ١٣١

أسد يأسر الصياد ١٤٠

عصفور أفلت................................... ١٤٩

أنطونيوس وكليوباترا........................... ١٥٦

إلى سوريا ١٧٢

قراءات تاريخية ١٨٠

عودٌ بلا مجد ١٨٨

صديق قديم ٢٠٥
في كفة القدر........................... ٢١٤
رحلة في الظلام........................... ٢٣٠
كليبر خليفة القائد........................... ٢٣٨
بعد الانقلاب ٢٤٧
قناعان يلتقيان........................... ٢٥٣